العدد الثاني

فبراير (شباط)

السنة الثامنة

8ème ANNEE

No. 2 Fev. 1960

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢

AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH, LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et
directeur
SOUHEIL IDRISS

سلاح الأدب !

في محاكمة السيد محمد جميل شلش ، حاولت محكمة المهداوي ، أعجب محكمة في التاريخ ، أن تجد مجلة « الآداب » سلاحاً ضد المتهم ، وأن تجعلها من الأدلة الثبوتية على تجريمه ، بدعوى انه كان يقتنيها ، وانها كانت تنشر له بعض قصائده . وكذلك كان الامر مع السيد ماهر سعيد وصفي ، وقد وصفت هذه المجلة بانها عدوة « الجمهورية العراقية الخالدة » وان الاشتراك في تحريرها يعتبر جرماً يعاقب عليه القانون .

وهذا يعني ، آخر الامر ، أن جميع الادباء العراقيين الاحرار مجرمون ينبغي ادانتهم واعدامهم ، اما شنقاً حتى الموت ، او « سحلاً » في الشوارع !

وليس هذا ما يهمنا معرفته ، وانما يعنينا أن نعرف رأي محكمة التزييف في فئتين اخريين من ادباء العراق: فئة متذبذبة انتهازية كانت تتظاهر بالقومية العربية ، فتوافي « الآداب » ببعض مقالات او قصائد تنشرها المجلة بدافع من نية حسنة ، حتى اذا انحرفت الثورة العراقية عن اهدافها ، كشفت هذه الفئة عن وجهها الحقيقي الاحمر ، وراحت تهاجم القومية العربية وتكيل لاقطابها الشتم والسباب ..

وفئة اخرى كانت تؤمن حقاً وصدقاً باهداف القومية العربية ، ثم جرفها تيار التضليل ، فانقلبت على أهدافها ، وراحت تهاجم المجلة التي فتحت لاقلامها صدرها !

ما رأي محكمة التهريج بهاتين الفئتين اللتين شاركتا في تحرير « الآداب » ؟

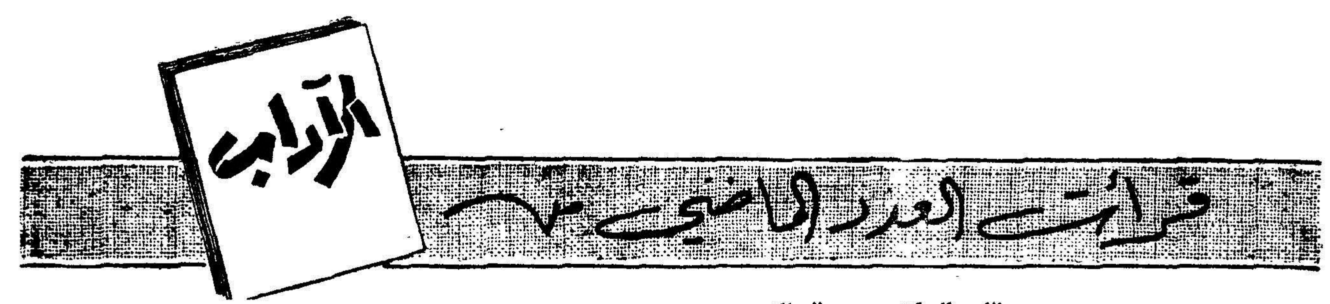
اننا لا نتهمهما بالاجرام ، بل بالبغاء الفكري ، لان افرادهما خانوا الرسالة التي نذروا نفوسهم لها ، فحق عليهم ان يلفظهم الفكر وتلعنهم الكلمة !

اما « الآداب » فانها لم تناهض الجمهورية العراقية ، بل هتفت لها من اعماق صفحاتها ، واصدرت عدداً خاصاً بثورتها مع شقيقتها الثورة اللبنانية . وانما هي تهاجم قادتها الذين يزيفون حقيقتها ويضمرون لها غير ما رصدت نفسها له . ونحن نؤمن بان المفكرين العراقيين الحقيقيين الاحرار لا يمكن ان يؤيدوا هذا الانحراف ، وانهم قد يضطرون الى التزام الصمت فترة من الزمن لانهم ، من جهة ، لا يسمح لهم بمغادرة البلاد ، ويخشون من جهة اخرى القتل والتعذيب والاهانة .. ولكنهم في اعماق اعماقهم يعانون مأساة العراق العزيز الذي يخيم عليه اليوم شبح الارهاب الشيوعي الاحمر .

ان هؤلاء المفكرين سيظلون محط آمالنا في الحفاظ على شرف الكلمة وقيمة الحرف ، كما سيظلون الممثلين الحقيقيين للفكر العربي الثائر في العراق .

فالى هؤلاء جميعا ، سواء اكانوا مشردين ام مضطهدين ام ماثلين امام محكمة التزييف المهداوية ، ام صامتين مؤقتاً خلف الابواب المرصودة والنوافذ المغلقة ، اليهم جميعا تحيات اخوانهم في سائر اجزاء الوطن العربي. انهم يحملون سلاح الفكر الحقيقي ، ولن يكون النصر ، في آخر المطاف ، الا لهذا السلاح الشريف !

« الآداب »



بقلم الدكتور عزة النص

العدد الثائر

لولا واحة نزار القباني لكان العدد الممتاز من « الاداب » لهبا في لهب .. يتواكب فيه الادب الثائر مع الحديث عن الادب الثائر ، ولا يكاد القارىء يجوز كومة نار ، وهو يتحسس اضلاعه ، حتى تقتحمه كومة نار اخرى ، تلظى فيها التضحيات والمروءات ، واحسب ان هذا القارىء كان يود لو ان المغارة كلها كانت جمرا وضراما ... ، فلا مكان لـ(قديسة) نزار في ذلك الجحيم البطولي ، الا اذا اعتبرنا من الادب الثوري ثورة الجنس لدى الفحل المكتمل على (قديسة) متأبية .. تجردت على خطوات منه وحسرت عن قباب الياسمين ، ثم استرخت على سريرها الزاهي ، تتلهى بلفافة لوكي سترايك..

ولي عودة الى (البتول) المولعة بالتدخين.. وقبل ذلك لا بد لي من التأكيد بأن الادب القومي في زادنا العربي قد ولد ، الادب الفاعل المتحرك الذي يخفق مع رايات النصر ويسير مع الزحف في المقدمة . وعدد (الاداب) في مستهل عامها الثامن هو شهادة ميلاد .

كان لنا حقا أدباء ثوار في نصف القرن الماضي ، ولكنهم لم يخلقوا مدرسة ، ولم يطبعوا اداب عصرهم بطابعهم المميز ، وهم ، بعد ، نفر قليل اذا قيسوا بجيش الادباء والمتأدبين الذين كانوا يعيشون ليالي (موسه) ويتغنون ببحيرة (لامارتين) ويتعذبون مع (غوته) لالام فيرتر ، او ينظمون في الزهر والنهر وعيون المها وغصن البان ... بينما كانت مدن العرب تطوى بنيران المستعمرين ، وامة العرب ترسف في اغلال الدخلاء .

الادب القومي الذي انتزع الغلبة في محصول الادب العربي الجديد يتمثل في ابواب عدد (الاداب) التي سنعرض لها الان .

الثورة والفكر

يعتقد الدكتور سهيل ان (الثورية) ستكون السمة الرئيسية لانتاجنا الادبي الحديث ، وانا اطمئنه بان « الثورية » هي سمة انتاجنا الادبي الحديث ، بالفعل لا بالقوة ..

والقول بأن الادب لا يزال يتبع الاحداث ولا يسبقها ، ويتأثر بها ثم يؤثر في مسيرها ، لعل فيه بعض الافتئات .. وليذكر الدكتور سهيل ما نشر في (الاداب) بالذات عن ثورة ١٤ تموز في العراق قبل ان ينهض بها جيش العراق ! وليذكر كل ما ينشر اليوم – وفي مجلة «الاداب» ايضا – عن ثورة العراق الآتية ، التي يعبىء لها ادباء العروبة ويمهدون الدروب ويلمون العزائم .

وقد تولى الدكتور مندور ، في هذا العدد من الاداب ، الاستشهاد ببعض من استثاروا ثورة مصر ، وفتحوا اعين الضباط الاحرار ، وشدوا اناملهم على أزناد البنادق ، وجاءت بامثلة اخرى الاستاذة ملك عبد العزيز في مقالها (الشعر الثوري في الادب المعاصر) .

قلت قبل اسطر اننا كنا نفتقد الادب القومي المتمرد ، الى سنوات خلت ، او بالاحرى ، كنا نجد قليلا عدد الادباء الذين يخططون الهبة القومية ، ويرسمون طريق الانطلاق في وعي المجتمع السادر .

هذا اذا تواضعنا على ان الادب قصة وشعور فحسب ، اما اذا اخذنا بالمعنى الشمولي للادب ، وعرفناه بانه حصاد الفكر الحر الخلاق ، فالامر يختلف تماما ، وزاوية الرؤية تتبدل .

نحن لا نشك اقل الشك في ان الانتفاضات التي حركت اجواءنا الراكدة ، والوثبات التي خرجنا بها عن السكون المتبلد ، والانتصارات التي توجت هامنا ، كانت كلها من صنع المفكرين .

مجتمعنا الدنف ، من كشف عن علله ، ووصف له سبيل العافية ؟

وتراث العرب المشترك ، المتضخم عبر الزمان ، من الذي لمه ووصل خيوطه ونقله الى عقول الناشئين ؟

والوحدة العربية من الذي عرف بمأثراتها الماضية ، ووضع الاصبع على مآسي انفصامها الحاضر ، واهاب بنبش امجادها وبعث تكاملها وتكافلها؟ ومن عجن خميرة الوجدان الجماعي للانعتاق من الاستعمار السارق؟ كل ذلك اضطلع به اساتذة الجيل ومؤلفو الكتب المدرسية وغير المدرسية في التاريخ والجغرافيا والفلسفة والاخلاق والاداب وعلم الاجتماع والاصلاح الاجتماعي .. وهؤلاء كلهم ادباء بالمفهوم الاوسع للادب .

استدل صديقنا الدكتور مندور على فعل الادب في التمهيد للثورات بروايتي (بومارشيه) : حلاق اشبيلية وزواج فيغارو . وميزة هذين الاثرين المخلدين انهما وضعا المجتمع والحكومة في فرنسا قبيل الثورة موضع الهزء باسلوب غير مباشر . واظن ان اديبنا الكواكبي الذي مجدنا ذكراه في الشهر الماضي ، لم يكن اقل فعلا في نفوس معاصرين بكتابيه (ام القرى) و (طبائع الاستبداد) ، رغم انه التزم اسلوب الجد الصارم فيما كتب .

والذي اريد ان اخلص اليه هو الوطن العربي كانت له ايضا قيادة فكرية مخلصة ، ايقظت وعي ابنائه ونسجت بنية تفكيرهم وشقت لهم الاقنية الموصلة الى التمخض الحاضر .

واني في هذا التأكيد اتمركز في قطب معاكس للقطب الذي وقف عنده الاستاذ علي بدور حين كتب في مقاله (المثقفون والمجتمع العربي) : « اما القيادة الفكرية فقد كانت بعيدة عن تفهم روح الشعب وتاريخه المجيد وثقافته القومية ، لانها نهلت الكثير من مبادىء الثقافات الاجنبية.»

وليس من يخالف الاستاذ بدور حين يقرر ان « القيادة السياسية للمجتمع العربي كانت بعيدة عن الشعور بالانتفاضة الثورية التي بدأت تعيشها الامة العربية » . ولعل هذا النقد لا يزال صحيحا بالنسبة الى اكثر حكومات العرب القائمة اليوم .

ونحن معه ايضا في التأكيد على البلبلة التي تملكت الكثير من قادة

الفكر العربي ، والحيرة التي ضللت بعضهم حينا ما في متاهات مسدودة . ولا نستطيع الايمان بأن الامر قد تبدل بالقدر الذي نرجو حتى الان ..

ولكن تلك القيادة الفكرية ، في جملة مناحيها واتجاهاتها ، كان لها في النتيجة عمل مفيد . والا كيف حدثت الانتفاضة الثورية التي تحدث عنها كاتب المقال ؟ هل الانتفاضة كانت سابقة للتفكير في الانتفاضة ؟!

واما النهل من الثقافات الاجنبية ، فالحكم له او عليه امر يسير . ان الاستاذ بدور مدعو الى الموازنة بين الدول العربية المتخلفة في مجالات التطور الاجتماعي والوعي السياسي وبين شقيقاتها التي سارت خطوات ارحب نحو العدل الاجتماعي والحكم السوي . لعله بعد هذه الموازنة يجزم معنا بان النهل والعل من الثقافات الاجنبية كانا الوقود الدافع في المنطلق العربي الجديد . نظفت تلك الثقافات العقول المتكلسة ، وفتحت الاعين المغمضة ، وحفزت على النهوض العربي بتأثير المقارنة والاقتباس والتطعيم والافادة من تجارب الامم جميعها . وبالمزيد من الغوص في طلب الحقيقة يجد الاستاذ بدور ان « الانتفاضة الثورية التي بدات تعيشها الامة العربية » صنعتها ايضا مواقف الذين زودوا الحصون الراسخة بسلاح الثقافة الاجنبية .

معنى الثورة

والصراع بين الثورية والرجعية ، بين التقدميين والمحافظين ، يأتي ذكره في عشرات المواضع من عدد « الاداب » الممتاز ، سواء في الادب ام في السياسة .

فلنسر بعض الطريق مع الاخ الدكتور عبدالله عبدالدائم في بحثه عن (ثورية القومية العربية) واخشى الخشية كلها ان لا نستطيع مسايرته في اكثر من فكرة ...

يقدم الدكتور عبدالله بين يدي بحثه بضعة تعاريف : فالفكرة المحافظة هي ثورية مقلوبة ، والرجعية هي الاعتقاد بان الطبيعة الانسانية واحدة غير متغيرة ، والرجعي هو رجل الاشياء المحدودة ، والتقدمية هي استسلام كامل لمجرى التاريخ دون هدف ، والتقدمي هو المتحرر من اي تثبت والمؤمن بلادرية مطلقة بالنسبة الى المستقبل.. والاصلاحي ثوري يدعو الى مستقبل معين عن طريق التطور .

لا اظن ، يا اخي عبدالله ، ان في الدنيا كلها انسانا يؤمن بضرورة او بامكان العودة الى الماضي كاملا .. سل اشد الرجعيين عراقة في الرجعية هل في امنياته او بمكنته ان يعود العرب في القتال الى وسائل الصحابة من المسلمين واساليبهم ؟ هل الرجعيون بالذات يرغبون في سكنى الخيام ومنازل التراب ، وهل يجرح عقيدتهم انشاء المعامل واقامة المدن واختراع الالات ، مما لم يعرفه الاقدمون ؟

والرجعيون – او على الاصح من عرفوا بالرجعيين على كره منهم – لا يؤمنون بطبيعة انسانية واحدة غير متغيرة ، بل يفرقون بين الجواهر الثابتة والاعراض الزائلة حتى في صور النفس . ولا مطلب لهم الا الحفاظ على جملة مثل روحية واتجاهات خلقية يعتقدونها عناصر ازلية في النفوس وفي الحضارات ، كالشجاعة والاستقامة والعدل والامانة وعبادة اله واحد والتمسك بشعائر دينية معينة . وهم يتقبلون التحديد ضمن هذه التخوم .

ويغلب على ظني ان الاخ عبدالله قد رأى الحدود المتطرفة ، ولذا فان تعريفه للتقدمي لا ينطبق ايضا على زمرة معروفة من البشر .. ، ان التقدمي لا يستسلم لمجرى التاريخ دون خطة معينة وهدف واضح، بل هو لا يستسلم لسير التاريخ اكثر مما يحاول تغيير ذلك المسير . وهو كالثوري والاصلاحي يعتقد ان الحياة ديمومة وصيرورة في آن واحد والحضارة هي استمرار لا تكرار ، والتاريخ هو اتمام لا اعادة . وفي جميع الاحوال لا بد من البدء بالماضي لبناء الاتي على مثال جديد . ولا يشك التقدمي بان المستقبل خير من الحاضر ، وهو يتصور اهداف ذلك المستقبل ويثق به . انه متفائل فاعل فلا يصح ان تنسب اليه الاستسلام في اي شيء . وهكذا فان الفروق تتضاءل اذا اعدناها الى اطارها الحقيقي . المحافظ والرجعي يلتزمان الماضي في قيمه الروحية فقط ، والتقدمي والثوري يلتقيان في تفتح الذهن للمفيد من الجديد دون تفريق بين المادي والمعنوي . التقدمي قد يؤثر ان يراعى دستور التطور ، والثوري يريد تسريع الزمن قد يؤثر ان يراعى دستور التطور ، الاقل – اصلاح الحاضر اما بالرجوع الى صفاء الماضي او باقتباس الصالح من الجديد .. وفي تاريخنا مصلحون سلفيون ومصلحون تقدميون .

ولا شك ان بين جميع هذه الاصناف المذهبية تباينا في المواقف النفسية والعقلية ، ولكن التصلب في هذه المواقف يشتد عندما تنتظم المفاهيم في عصبيات حزبية غايتها الحكم السياسي اولا وقبل كل شيء ..

واذا نزهنا القومية العربية المتنامية عن انواع الحزبية – في مرحلة البناء على الاقل – فان التقريب بين المواقف يصبح اقل عسرا . والجمهورية العربية المتحدة قد حققت هذا الانسجام .

والاستاذ اورخان ميسر في مقال (الثورة تحت المجهر) ينتهي الى

ان الثورة هي استعجال المراحل في التطور الانساني . وليس في ذلك من شك بشكل عام . ولكن ثورة (فرانكو) في اسبانيا كانت ردة فعل على استعجال المراحل .. اليس كذلك ؟ واكثر الثورات في تاريخنا العربي الوسيط - تلك التي ندعوها بالفتن - لا تحمل مغزى الدفق الحياتي المنهمر نحو هدف انساني مشخص . وهكذا فانه لمن الصعب على المجهر ان يكشف عن بنية الثورة بمعناها المجرد عن الزمان والمكان والانسان ...

ولننتقل الان الى (ثورة) الاستاذ محيي الدين محمد على (الفكر العربي المعاصر) ... والحق ان الدكتور سهيل قد برهن على عمق ايمانه بحرية الفكر حين نشر هذا المقال . اريد ان أقول باخلاص حار للاستاذ محيي الدين انني لا اعتقد بوجود شيء عام شامل يمكن ان يطلق عليه مدلول (سيكولوجيا الذهن الشرقي) ، واود باخلاص حار ايضا ان اقف على تعريف جامع مانع لما يسمونه الشرقي والشرق .. وقد كتبت اكثر من مرة انه لا وجود لشرق مطلق او لغرب مطلق في عرف الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الاجتماع على السواء.

بعد هذه الملاحظة المبدئية ، ليسمح لي السيد محيي الدين ان اوضح اراءه بعض الشيء ، فلا اشك في انه تصدى لنقد الواقع وحده ولم يقصد المساس بالمبادىء . ولعلي غير واهم اذا تفهمت اقواله على انها وصف لجماعات عربية معينة لم تع الدعوة الاسلامية على حقيقتها فانساقت الى انحرافات عن الدين مصدرها تراكم الجهل بذلك الدين.

نفسية المذلة ، القبول بالظلم ، الرضى والتسليم بما كتبه الله ، اطاعة اولي الامر ، رفض العدالة لان الدين يؤكد على وجود الطبقات..

هي في نظر كاتب المقال وجوه المشكلة في (سيكولوجيا الذهن الشرقي).. والاستاذ الكاتب لا بد موقن بالحقيقة التالية : لو قام الاسلام على رفض العدل لقبر في مهده ، ولو فهم المسلمون الاولون دعوة محمد على انها دعوة استسلام لما غالبوا البيزنطيين والفرس ونهضوا بحضارة مادية وفكرية واجتماعية يحق لنا ، بل يجب علينا ، الاعتزاز بها وتمثلها ورفدها بنسغ جديد .

قصص الناثرين

في مقالها (ادبنا الثوري والموقف الحضاري) أثبتت الاديبة الفاضلة سلمى الخضراء الجيوسي التلازم الطبيعي بين الاصالة والابداع، وبذلك حملت عنا جهد البحث عن معايير فنية تصلح للحكم على النتاج القصصي المعروض في عدد (الاداب) الاخير . والقصص الخمس التي سنعرض لها ترسم صفحات نابضة من معركتنا القومية ، رآها كل كاتب من شرفته الخاصة ، وتخير لها اللون الفني الذي يناسبها . هي كلها تهدف الى اثارة نفوسنا من اجل غرض نبيل . انها فصول من عقيدة القتال التي تعمر ارواحنا . وهي كلها صحيحة الارتباط بالاجواء الساخنة التي نعيشها وبالمشكلات التي يتحسس بها كياننا ، فلا اصطناع ولا زيف ولا نقل ولا اقحام .. تتماثل جميعها في الاصالة وتتجارى في الابداع .

قصة (الخائن) للدكتور عبد السلام العجيلي بسيطة ، ضخمة في بساطتها : محكمة (مهداوية) - خرساء هذه المرة - تستمع الى ضابط شاب يعترف بالخيانة ، خيانته للشعب - أي للحزب الشيوعي - ..

والعقدة في القصة اكثر من طبيعية : كان لذلك الضابط خطيبة من الحزب اياه .. فاستجاب لدعوة الضمير وعصى جواذب العاطفة . وليس في كل ذلك مسحة من فخامة (كورنيلية) ، وانما تسير القصة تماما كما تسير الحياة . ويحبس القارىء انفاسه على روعة وحماسة انسانية . والى هذا كله فن متمكن في تصوير المشاهد والامزجة والحركات : المرأة في ساعات اغرائها ، والعسكري تحت بزته ، والسحل والذبح ودسائس السراديب الشعوبية ومناورات رجال الحكم ..

والبراعة انك لا تحس بالموعظة الفجة ، ولا يخيل اليك لحظة واحدة انك تقرأ صحيفة سياسية .

يشكو سينمائيو بلادنا ان الجماهير العربية لا تقبل على الافلام الجادة. فليجربوا هذه القصة ، وانا زعيم بانها ستجذب الجماهير جذبا.

ومأساة العراق يقصها ايضا الاستاذ مطاع صفدي على نحو اخر :

سلمى ومجيد وحسين وفيصل وعبد القادر وعاكف .. رموز للالاف من شبابنا الجامعي ، نماذج من الجيل العربي الصاعد ، في توثبه للفداء واصلائه للمعركة ، معركة المنطلق العربي . ابناء هذا الجيل حملت بهم امهاتهم في جو محموم ، وولدوا على مقربة من ساحات القتال . سمعت آذانهم اول ما سمعت أزيز الرصاص ، رصاص المستعمرين وهم يحتلون ارضنا الطيبة بعد الحرب العالمية الاولى . واستمر الازيز يخرق اذانهم كل يوم ، الى اليوم . سلمى ومجيد وحسين وفيصل وعبد القادر وعاكف وعشرات الالوف من الابناء الاخرين ، عاشوا على اعصابهم في المدرسة الابتدائية والثانوية وفي الجامعة : مظاهرات واضرابات ثم رصاص وسجون .

ومن الجامعة يستقبلهم الاستاذ مطاع . يستلمهم وقد اكتملت جذوتهم

- التتمة على الصفحة ٦٨ -

انتصار بور سعيد

(الى جمال عبدالناصر في العام الثالث للوحدة)

✶

ظمآن للمجد ؟.. أم ظمآن للّهب … يا قلبُ حسبُك ما بالذكريات وبي
هذي القناةُ ، وهذا الشط افئدةٌ … تعاصرتها يدُ الطغيان والغَلَب
أيامَ يخطر (ديليسبس) منتشياً … والشعبُ يلهث من ضَعف ومن سغبِ
يساقُ للموت آلاماً مؤلفةً … لتستبدَ اساطيلٌ لمُغتصبِ
هذي القناةُ ، يَدُ الشعبِ التي حفرت … ، في كل شبرٍ حُطامُ من اخي وابي
جماجمٌ يعربيات هنا اندثرت … واذرعٌ سمر من ابطالنا النجبِ
في كل ضمة ماء اعينٌ سهرت … لتطلع الشمس في الدنيا من الحُجب
انَّا فتحنا (قنَاة العرب) قافلة … توزع الخير عبر العالم الرحب

★

قلنا : اعبروها ، كما شئتم ، على سفنٍ … من السلام ، بلا حرب ولا حرَب
وامضوا الى بركات الله ، تغمركم … موج الحياة ، بايمان وقلب نبي
وامضوا الى بركات الله ، تغمركم … في الشرق والغرب ارزاقٌ من الذهب
يا للطواغيت ، غدَّارونَ ، معتصبٌ … من كل منكلبٍ يغري بمنكلب
تكاتفتهم عصَاباتٌ يزج بها … وهم المغير على الأشلاء والسلب
واستكثروا عددا قد جمَّعوه لنا … مدججاً عددا ، يا سوء منقلَب
مذ قال فينا (جمال العرب) : ندفعها … ، يا كل قطرة دم في العروق ثبي
في (اللاذقية) اجناد تشد يداً … على الزناد ، وجيش الزحف في (حلب)
وفي (الفراتين) ثوارٌ لنصرتنا … وقلب (لبنان) اعصار من الشُهب
في مشرق العرب ابطال تثور لنا … و (المغرب) الحر بركانٌ من الغضب
اسطورة الغزو راَحت في تخبطها … في (بور سعيد) دفناها مع الحقَب

★

عاد الغزاة على اعقابهم جيفاً … من خزيهم ، ارباً يلتف في ارب
عاد الغزاة ، وظل الارذلون على … ارض (العراق) تماثيلا من الخشب
من خائن الشعب (نوري) حطّةٌ بعثت … في (قاسم الشعب) اسبابا الى سبب
هذي التماثيل ، كف خلف رغبتها … يسوقها ، ابدا ، مستعمرٌ وغبي
تعنو فتنقاد ضد الشعب طائعة … فتستبد على وهم من العجب
حتى اذا الشعب في ارض العراق مضى … يحطم القيدَ كالبركان واللهب
ثاراته تلك في (الحدباء) (١) يعرفها … على العواميد ، كالصلبان والنصب
وفي حفائرَ (كركوك) وما حملت … (ام الطبول) بماضي فجرها الخضب
ستعلم الطغمة (الحمراء) ان يدا … في الشعب تجتثُها من اصلها الخرب
سيعلم (القاسميون) ، الالى عبثوا … بالجيش ، قوتنا في جيشنا اللَّجب
سلو (البرامكة) الماضين حين طغوا … بأي منشعب لاذوا ومنشعب
يا يوم ينتفض التاريخ ثانيةٌ … في كف زاحفة ، في عين مرتقب
اليومَ .. لا ، لا مفرٌ للطغاةِ ولا … مأوى ، ولا عتمةٌ تقتادُ للهرب

★

(جمال) ، (النيل) مصبوب على (بردى) … بعض الاماني ، واقباس من الارب
بين (المحيطين) شعب واحد وفمٌ … اضحى يناديك للامال فاستجب
تقاسمتنا دويلات ممزقة … واوهمتنا تصاريفٌ من الوَب
(حيفا) تناديك ، والمليون منتزع … من ارضه ، وضحايا الغدر في (النقب)
واخوة النصر في (اوراس) تسندهم … في ثورة النصر من تعثار مضطرب
قع جمّع العرب من اطلال فرقتهم … ما بين (نازحة) فيهم ومغترب
الشعب يودع في كفيك امنية … بان تتمّ فينا (وحدة العرب)

القاهرة

عدنان الراوي

---

(١) الحدباء .. الموصل .. ام الربيعين..

العطش والتعطش في الاغاني العراقية

بقلم نازك الملائكة

لو سألنا سائل(*) ان نضع مخططا فكريا عاما للاغاني العراقية لانتهينا الى القول بانها في حقيقتها تعبير بسيط عن العلاقة الفطرية بين الانسان والارض . ذلك اننا ، مع الفرد العراقي الذي يبدع هذه الاغاني ، بازاء مخلوق ما زال يحتفظ في نفسه بكثير من بدائية الانسان الاول الذي يقف من الطبيعة موقف المتأثر فيتجاوب معها ، وينفعل لاحداثها ، وتستجيب حواسه اليقظة المرهفة لتقلباتها الدائمة. ويكون التعبير الغنائي اول حصيلة لذلك التجاوب والاهتزاز ، فيندفع العراقي الى الانشاد اندفاعة انسان الطبيعة القديم الذي لا يغني حين يغني بدافع التسلية واللهو والطرب ، وانما تهزه حاجة ملحة تجعل الاغنية ضرورة حياة ينفق بها الانسان عواطفه الدافقة ويتخلص بها من طاقة جائشة لا بد ان تنفق . وانما يصدر العراقي، في كل نغمة يغنيها ، وفي كل كلمة موزونة ينطق بها ، عن احساس وثيق بحاجة الى التعبير المنغوم تقض مضجعه وتدفعه دفعا الى ان يرفع صوته بالغناء . وتلك الخاصية تجعل لاغانينا العراقية ملامح خاصة بها تميزها الى حد ما عن سواها من اغاني الوطن العربي الكبير .

ان الفرد العراقي عاطفي ، متأجج المشاعر وتلك ابسط خصائصه واوضحها . وقد الف ان يقيم صلاته بالاشياء والاحداث على اساس تلك العواطف فليس مستغربا ان تكون الصلة بينه وبين ارضه صلة تأثر وانفعال زاخر مستمر . انه يعيش بأرضه ولها ويحكم احاسيسه نحوها في كل جهات حياته . فمن النهر الذي يجري في الارض او لا يجري يشتق العراقي اغانيه وقصائده . اذا كانت الارض مترفة ندية بالخضرة لان النهر الكريم يمر بها ، جاءت الاغاني تقطر بالماء وتموج بالخصوبة والاخضرار . واما اذا كان المحل هو الغالب والماء بعيد لا ينال ، فان الاغاني تأتي حافلة بالعطش المحرق واليبوسة والجفاف ، وتصور اناسا عطاشا ، وخدودا احرقتها شمس الظهيرة، وحصادا جافا لا طراوة فيه ولا ندى . والحق ان الالتفات الدائم الى الماء يكاد يصبح خاصية مميزة للاغاني الشعبية في العراق،بحيث لا يمكن لنا ان نلقي نظرة تحليلية فاحصة على هذه الاغاني دون ان نشخص هذه الظواهر ونقف عندها متأملين ما يكمن وراءها من دلالة وما تلقيه من ضوء على نفسية العراقي.

وبمقدار ما يمتلك العراقي عاطفية غريزية واندفاعا فطريا نحو الارض ، يمتلك ايضا ذلك الصفاء الشفاف الذي تتميز به نظرة الرجل البدائي . انه يتطلع الى الوجود في خشوع مشحون بالعاطفة والحرارة فتكون نتيجة ذلك ان تتصف نظرته بالادراك الحق الذي يتصف به العقل البدائي، ان الاغنية العاطفية التي تنطلق من القلب في صدق كامل هي دائما الاغنية الى تعبر بعمق عن الحقائق الانسانية الكبرى والعفوية هي حقا مفتاح الحقيقة . ولذلك نلاحظ ان العراقي الذي يغني بكل عاطفته ياتي دون ان يدري كيف، ودون ان يتعمد ، بفلسفة عميقة مدركة ذات ابعاد شاسعة. واذا اردنا ان نذكر مثالا بسيطا لذلك فليس علينا الا ان نستذكر بعض الاغاني الدارجة في العراق من مثل الاغنية البسيطة التي كنانسمعها في طفولتنا كثيرا :

ما تروي العطشان ‏ ‏ ‏ ‏ يا شط عسنك (1)

ان في هذا الشطر من مطلع الاغنية بعض الحقائق الكبيرة تكمن مبعثرة وراء المعنى المتحرق الذي صاغه عاشق ريفي مجهول لا يعرف له اسم . ان هذا الرجل العراقي الذي ابدع الاغنية يحب فتاة تسكن على الضفة الثانية من النهر ويشعر ، من ثم ، ان الماء هو الذي يفصل بينه وبينها فلا يجد متنفسا يعبر به عن حبه وضيقه الا بان يندفع في سذاجة ويدعو على النهر بألا يروي ظمآن . ولعل هذا الدعاء يبدو مضحكا لنا، خاصة لمن انغمس منا في شكليات المدنية حتى ابتعد ابتعادا وثيقا عن عفوية الانسانية الحقة. لعل الانسان المتحضر المعاصر الذي فارق الحياة البدائية وفقد الصلة الوثقى بالطبيعة ، ان يتساءل عن الاساس الذي تقدم عليه دعوة هذا العاشق الريفي ، فماذا يضير النهر الا يرتوي الذين يشربون من مائه ؟ والجواب في الظاهر ان ذلك لا يضير النهر ، فيكفي اي نهر ان يجري ويتفرع ويترامى عبر المسافات ، لكي يحقق غايته ، سواء بعد ذلك أروى العطاش ام ابقاهم على عطشهم . غير ان منطق هذا المحب العراقي الساذج اعمق واكثر ارتباطا بالحياة . انه يشعر – دون ان يدري – بان المثل الاعلى لكل ما على الارض ان يكون معطاء وان يبذل ويبذل ويروي العطاش . وفي نظر هذا العاشق لا تكون سعادة النهر الا بأن يسقي ويعطي كل ما في وسعه ان يعطيه للشاربين.

(*) هذا البحث هو الحلقة الثانية من سلسلة دراسات اكتبها حول المضمون الاجتماعي للاغاني العراقية . وقد كانت الحلقة الاولى بعنوان (شخصية الاخرين في الاغاني العراقية) وهو مقال نشرته مجلة «الاداب» سنة ١٩٥٧

(1) « الشط » في اللهجة العراقية الدارجة هو النهر نفسه لا شاطئه.

ليس ذلك فقط . وانما تكتمل سعادة النهر في حالة واحدة وحسب : اذا سقى العطشان ورواه . فكم من شارب لا يروى طمأه شيء، وكم من ماء يسقي الشفاه ولا يتركها الا متعطشة للمزيد بهذا النهر – الذي هو بصورة واضحة نوع من العذول يشاكس العاشق – ان يصبح ماؤه مثيرا للعطش فلا يرتوي من يشرب منه قط . ولذلك نرى صاحبنا المحب العراقي البسيط . يحاول ان ينتقم من عذوله النهر الذي يفرق بينه وبين الحبيبة العزيزة على الضفة الثانية ، فلا يزيد على ان يدعو عليه على الا يحقق غايته من وجوده ، ومن ثم لا يتاح له ان يروي عطشان .

وحين نذهب ابعد في التحليل ننتهي الى الخلفية الاعمق للنفسية العراقية وسوف نجد ان احدى الخواص الظاهرة لهذه النفسية انها تقدس الحياة وترى غايتها العليا هي البذل والانفاق السخي. ان سعادة العراقي تشبه سعادة هذا النهر الذي لا يريد ان يسقي الظامئين وحسب ، وانما يهمه ايضا ان يرويهم حين يسقيهم . واما عندما يلعن العراقي نهره ويدعو عليه بان يعقم ماؤه فلا يروي الشاربين ، فان المعنى ان الامور لم تعد تجري على النحو الذي يرضي ويسعد . ان النهر الذي هو دائما صديق حنون كريم ندي اليد يمنح البركة والحياة ، هذا النهر نفسه قد بات عدوا لئيما مشاكسا ، دابه ان يحول ولا يحقق ، ويفصل بدلا من ان يربط ويصل .

ولعلنا نندهش حين نرى العراقي يصل في بدائية تفكيره الى حد معاداة شيء لا ارادة له كالنهر ، ففي نظر العقل تبقى الطبيعة سلبية لا تقصد ولا تريد وانما تجري دفق نظام صارم مفروض عليها . غير اننا سرعان ما نلاحظ ان من خصائص الذهنية البدائية انها تفيض من حياتها على الاشياء الجامدة حولها باستمرار . وفي الاغاني العراقية عشرات الامثلة على ذلك نشير منها الى تلك الصورة اللطيفة التي وردت في بيتين لفتاة ريفية من الجنوب تمنت لو تكون فنجان قهوة في مقهى حتى اذا تناول الحبيب العزيز هذا الفنجان انفجرت بالبكاء بين يديه . فالفنجان في هذه الصورة ينتحب وتتحدر له دموع حارة :

كون انقلب فنجان بيد القهوجي(٢)
واوصل لحلق هواي وانتحب وابجي(٣)

ومثل ذلك ان يتصور المحب الريفي انه يسمع النخله تئن وتشكو من ان الحبيبة السمراء قد رمتها بحجر فاصابها الذبول ولم يبق منها الا السعف والكرب ، كما نلاحظ من الصورة التالية :

نخل (الرمادي) يقول طرتني سمره
سعف وكرب ظليت ما بي ثمره

ومن الامثلة الحية المشهورة في الادب الشعبي العراقي بيتان تتصور فيهما عاشقة ريفية أنها استحالت نجمة من نجوم الصباح التي تعبر في السماء ، وتسقطها المصادفة المحضة على غطاء الحبيب الغافي ، فتتدثر معه بحجة البرد : –

نجمة صبح يا هواي واسقط على غطاك
وبحجة البردان واتلفلف وياك

ومن ذلك ايضا الصور الكثيرة التي ترد عن القمر وهو يبدو احيانا مخلوقا عابثا يلعب بتضليل المحبين المؤرقين وخلق الاوهام لهم :

أرد اجمع الميزان ويا الثريا
ثاري القمر حيال يضحك علي(٤)

ان استقصاء هذا التشخيص الذي يضفيه العشاق الريفيون في العراق على الاشياء الجامدة أمر يضيق عنه نطاق بحثنا الموجز هذا وبحسبنا ان نستبقي في اذهاننا ما يكمن وراء الامثلة الجزئية ، فهذا العراقي حين تتفجر عواطفه يملأ كل ما حوله بالحياة ، فيرى الفناجين تبكي وتتحدر دموعها ، والنخيل تشكو آثار النظرات التي ترمقها بها العيون السود ، والنجوم تعشق وتشتاق وتتظاهر بالبرد لتتدثر مع حبيب غاف في غبش الفجر ، والقمر ينصب شراكا ويلعب العابا يشاكس بها المحبين في ليالي الريف الجميلة وهكذا يتحول الجمود نفسه الى حياة مشتاقة متفجرة تبقى نابضة ولا تهدأ لحظة .

★

(٢) كل قاف في العامية العراقية تلفظ كما تلفظ الـ G الانكليزية
(٣) «ابجي» معناها ابكي بلهجة العراق
(٤) « حيال » باللهجة العراقية تعني « محتال » بلا نية سيئة .

ولكن صلة العراقي بالماء ، بمختلف مظاهره وارتباطاته ، هي اقوى صلة . الماء يكاد يكون النبع الاكبر الذي يفجر الاغاني ويبعث الالحان والمعاني والعواطف حتى توشك اغاني الريف العراقي ان تكون كلها نتيجة للعطش والارتواء ومختلف مظاهرهما . ونحن نجد هذه الاغاني تعكس ، حتى بلغتها وتشبيهاتها ، صورة البقعة التي كتبت فيها . اما في تلك السهول الفسيحة العطشى التي لا يصلها الماء ، فان الاغاني تسلك مسلك اشجار النخيل التي تصعد في الهواء على ظمأ وحرقة بينما تجوب جذورها التراب بحثا عن قطره ماء لا تجدها الا اذا غاصت في اعماق الارض . ومع هذا الصبر المتمثل الكريم الذي يقابل به نخيلنا حرقة العطش ترتفع اغانينا عطشة هي الاخرى ، متحرقة تحرق التربة المجدبة التي انبتتها ، يكثر فيها ذكر الانهار والماء والمحل والعطش والمطر . هنا في اعماق الريف العطشان يولد الحزن والغناء وينشآن توأمين لا ينفصلان . ولعل العراقي لا يغني ولا يبدع الا حين يحزن ويغص بالدموع . اذ ذاك يجلس متكئا الى جذع نخلة حانية ويرفع عقيرته بالغناء فتتكسر الاهات وتتجاوب بين سعف النخيل .

والحق ان النخيل العطشان يصلح رمزا عاما للنفسية العراقية حين تخلق الشعر والغناء . واقول « النفسية العراقية » واقصد بها الفطرة العراقية الحقة التي لم يلوثها تصنع المدنية ... ففي المدن ، يكتب النظامون المحترفون اغاني ركيكة مبتذلة لا يشتقونها من اعماق الروح المحلية الاصيلة وانما يطلونها بكل ما هو زائف مجلوب فتجيء منظوماتهم حافلة بالبذاءة والبرودة والتصنع . وانما اقصد الاغاني الجميلة الحارة التي ينتجها الريف ويعبر بها عن عواطفه تعبيرا عفويا ، في غفلة كاملة عن الشهرة والمال والاساليب . هناك ينظمون الاغاني مدفوعين بمثل دوافع النخلة المتعطشة التي ترسل جذورها في التربة بحثا عن الماء والغذاء . وكما انه لا بد للنخلة من ان تسعى الى الارتواء والشبع ، فكذلك يشعر العراقي انه لا بد له من ان يسعى الى التعبير عن نفسه بالشعر والغناء ، ومن ثم تجيء الاغاني نابضة بالاصالة والانسانية والجمال والحرارة ، وتشير الى نقاوة الروح العراقية ذات العاطفة الفطرية المكتنزة والخصب الشعوري الذي لا ينضب .

واذا كان الماء ظاهرة غالبة على اغاني العراق ، فان العطش هو السمة الغالبة على هذه الاغاني . ولسنا نعني بالعطش حرفية المعنى ، فكم في العراق من حياة غزيرة جارفة تتبدد ليل نهار ، وما اكثر الاغاني التي تتحدث عن دجلة والفرات وعن الشواطيء والامواج والاسماك ومراسي الزوارق والاشرعة البيض وغير ذلك مما هو مفعم بالماء الدافق الغزير . وانما نحن ، مع ذلك ، بازاء اناس عطاش لا يرتوون ويبقون يتحرقون الى الماء الذي هو رمز الحياة كلها . ان النهر في العراق يكاد يصبح رمزا للعطش وذلك هو وحده سبب الالتفاتة في الشطرين :

ما تروي العطشان   يا شط عسنك
محرمني شوف هواي   يا كلها منك (٥)

ان ابسط دراسه لمضمونات الاغاني العراقية مما نسميه عادة بـ « غزل البنات »(٦) تنتهي بنا حتما الى ان نقابل « التعطش » وجها لوجه . ان دجلة والفرات مقترنان لدى العاشقات من بنات الريف بحبيب ضائع تاه في جرف ما على طول النهرين الكبيرين فنسمع الفتاة تصف بحثها عنه واصرارها على ان تعثر عليه مهما كلفها ذلك حتى لو قلبت النهرين قلبا :

أرد اقلب الشطين   دجله والفرات
وانطر حبيبي اليوم   من يا عقد فات

والشواطىء التى تحف بالنهر تذكر هذه الفتاة بطباع حبيب متقلب هوائي لا يكتم اسرار حبها وانما يبوح بها هنا وهناك ، وتلك طباع الرمال التي تتراكم على كل جرف حول الفرات ، فلا يأمن المرء ان يضع عليها قدما . وتنطلق المحبة في لحن عتاب رقيق لهذا الحبيب الثرثار :

— التتمة على الصفحة ٧٠ —

(٥) ((يا كلها منك)) معناها الحرفي : ((يا من هو السبب في المسألة كلها))

(٦) ((غزل البنات)) الاسم التقليدي للشعر العاطفي الذي تقوله بنات الريف ارتجالا وله وزن خاص متنوع من البحر البسيط . وقد اعتمدنا عليه في الامثلة التي اوردناها في هذا المقال . على ان الوزن لم يعد مقصورا على البنات وان كان كذلك في الاصل .

وقد حدثتني ذات ليلة ..

هتفت من الجانب الاخرِ
وكنتُ بعيده
أهيم وراء شواطىء ذاتي
اهيم بعيدا وليس معي
سوى وحشة الليل في مخدعي
وفي الدار حولي فراغ الصحاري
وصمت القفار
وكنتُ وحيده

اعيش حياتي بغير انتظارِ
بغير انفعـال مثارِ
اعيش حياتي يوماً فيومـا

على غـير توقٍ
على غير شـوقٍ

وكنتُ طويت كتاب الحنين

وشوق السـنين
واخمدتُ ناري

✶

ورنَّ هتافك عبر المسافاتِ
يطرق باب انطوائي
يفجِّر نبع الحياة بأرضي
ويلمس عمق سمائي
فيـا للنداوه
نداوة صوتـك في مسمعي
ويـا للطراوه
طراوة كلماتك الغاليات
تغلّفها بالدعابه
تلونها بالعتاب ، بمعنى الصبابه
وما زلتُ اصغي ومع كل كلمه
تفتـح ورده

بقلبي وتبزغ نجمه
ويا لانبعاثي ، ويا لانخطافي
وراء حدود المكـانِ

وراء حدود الزمانِ
اطير واعلو وصوتك وحده

معي فـي دمائي
يمور بحـيرة ضـوءِ
يرقرق جدول دفءِ

يعيد نسيج الحياة جديدا
يرفُ ويرعش في كل شيء

✶

ومرّت دقائقنا وانتهينا
وما زلت اصغي
واطبق صمت وما زلت اصغي
بفرح يغنّي
كانـي
اضمُ الـى كنوز البحـار
كأني ألمـم كـل الشموسِ
وما زلت اصغي واحلم أنـي
اطير اليـك واعلو
ودربي عبير وظـلُ
ووطء حرير يرف وضحكة شمس تهـلُ

✶

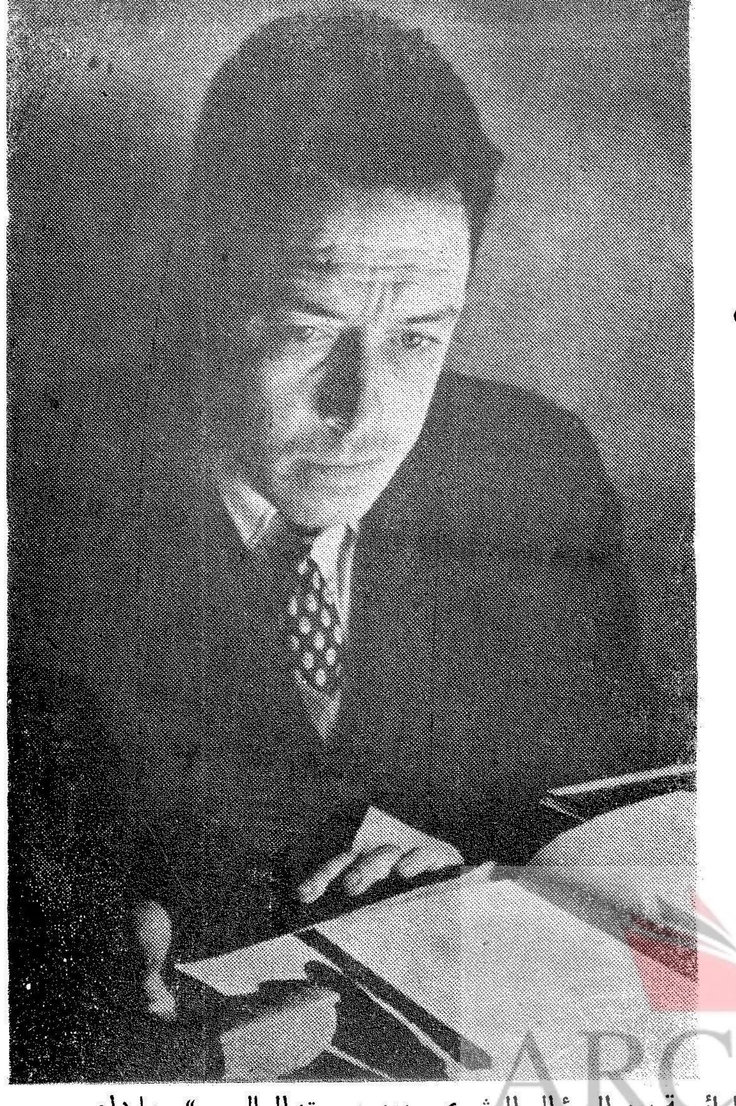
غـدا نلتقي !

ووسَّدت خدي ذراع الرضى
ونمتُ على حلم الزنبـقِ

فدوى طوقان

كامو والتمزق ...

بقلم الدكتور سهيل ادريس



كان مصرع البير كامو ، في حادث اصطدام ، الحلقة الاخيرة من سلسلة « العبث » التي كان كامو يعتقد بأنها تقود حياتنا البشرية كلها . والحق انه لا يمكن لشيء ان يجسد « لا معنى » الحياة كهذه الميتة التي تطبع بطابع التفاهة كل جهد وتطلع وشوق يحس به الانسان ليتحرر من التفاهة . ولعل هذه النهاية هي خير تطبيق للفلسفة العبثية التي كشف عنها اول كتاب لكامو «اسطورة سيزيف» ولعلها في الوقت نفسه اجهاض حاسم لفلسفة « التمرد » التي حاول الكاتب الفرنسي ان يخرج بها من حدود السلبية الى حدود الايجابية ، واضعا بذلك اسس «اخلاقية» صارمة لم ينته اليها زميله سارتر مثلا .

وقد يكون ذا مغزى عميق ان يتحدث سارتر عن هذه الاخلاقية لدى كامو ، فيكتب اثر مصرعه (١) بانه «كان يمثل في هذا القرن ، وضد التاريخ ، الوريث الحالي لهذا الصف الطويل من الاخلاقيين الذين كانت آثارهم تشكل ابدع ما في الادب الفرنسي واجده ـ لقد كانت نزعته الانسانية العنيدة ، الضيقة الصافية ، القاسية الشهوانية ، تشهر معركة اليمة ضد احداث هذا الزمن الكثيفة الفاقدة الانسجام . غير انه ، بعناد رفوضه ، كان يؤكد في قلب عصرنا ، وفي وجه المكافيليين ، ووجه عجل الواقعية الذهبي ، وجود العنصر الاخلاقي » .

على اننا ينبغي الا نرى في آثار كامو خطا تطوريا منسجما ، لان هذه الآثار لم تكتمل بعد ، من جهة ، فهي منقطعة ، ناقصة ، ولان لحظتي العبث والتمرد ليستا ، من جهة اخرى ، لحظتي تتابع واستطراد ، فهما في نزاع ابدي مستمر ليست الغلبة فيه لاحدهما بشكل نهائي . ولعل هذا الصراع الموصول هو الذي يلقي هذا الظل من التمزق على جملة آثار كامو ، وعلى حياته بصورة خاصة .

هذا التمزق ، في اطار فلسفته ، نجده بصورة واضحة في فكرة الانتحار الذي « يعني بكل بساطة : الاعتراف بان الحياة لا تستحق ان تعاش » ولكن بالرغم من عدم جدوى هذه الحياة وعبثيتها ، فان كامو يرفض الانتحار ، لان الانتحار هو رفض للتناقض وللامعنى اللذين هما خصيصتا الوضع البشري. فما العمل اذن؟ ما معنى ان يكون الانسان انسانا ؟ ان ذلك لا يعني الا ان نقيم حتى النهاية « المجابهة اليائسة بين السؤال البشري وبين صمت العالم . » وما دام الانسان ينعم بهذه الحاسة التي نسميها « الوعي » ، فلا مفر له من هذا التمزق الذي ينتج عن ادراك العبث من جهة، وعن رفض وضع حد لهذا العبث الا بالتمرد. صحيح انه ليس ثمة ما هو موجود ، ولكن الانسان يبقى مع ذلك « قيمة » . وينبغي ان ننقذ هذه القيمة ، لانه النبع والمصدر . وسيكون هذا الانقاذ عن طريق الاخوة على غير ما وهم ، وعن طريق العمل من غير امل. وهذا مغزى رواية « الطاعون » : ان الدكتور ريو يعمل كل ما يستطيع عمله، في مدينة وهران المعزولة بالطاعون ،من غير ان يؤمن بشيء. ونحن لا نجد الحنان والنزعة الغنائية الا في مشاعره ، اما في افكاره ، فليس الا الصرامة .. فحتى موت طفل « اكثر الامور ظلما على الارض » لا يبلغ ان يعكر حرصه على العمل او يضعف حسه للصراع .

واذن ، فان انسان كامو ، في دراساته ورواياته ، من « اسطورة سيزيف » حتى « السقوط » مرورا بـ «الغريب» و « الانسان المتمرد » و « الطاعون » يظل هذا الكائن الممزق ، حتى حين يتمرد . يظل سلبيا تقريبا حتى في ايجابيته ، لانه يعمل بلا امل ، ولانه لا يستطيع الا ان يعمل، وهكذا يجد قارىء كامو انه مدفوع الى ان يتساءل : وهل في ذلك انقاذ حقيقي ؟ هل التمزق انقاذ ، ان لم يتجاوز

---

(١) راجع العدد ٥٠٥ من مجلة « فرانس اوبسرفاتور »

نفسه الى القاء بعض المراسي التي يستطيع الغريق ان يتشبث بها ؟

ان هذه الاسئلة هي التي تدفعني الى الاعتقاد بأن عمل كامو الكتابي لم ينته بعد ، وان مقتله يدع هذا العمل ناقصا غير ناجز .(٢)

ولكن ذلك لا ينهي المشكلة ، بل لعله يلح علينا في طرح السؤال : ما تفسير هذا التمزق لدى مؤلف « اسطورة سيزيف » ؟ واي شكل يتخذه هذا التمزق في حياته ؟
نحن نعتقد بان مأساة الجزائر تكمن وراء هذا التمزق ، ولو كان كمونها خفيا . والواقع ان موقف كامو من القضية الجزائرية لم يكن موقفا موحدا حاسما . كان دائما موقفا مشوبا بالقلق والتمزق ، ولعل ذلك كان يؤدي الى فترات متقطعة يؤثر كامو ان يلتزم فيها الصمت المطلق .

ولا فائدة من ان ننكر بأن كامو كان يؤمن في اول الامر بان قدر الجزائر ينبغي ان يظل قدرا فرنسيا ، لانه كان يخشى ، لو اعطي الشعب الجزائري حريته ، ان يصاب ببؤس عظيم ، وان يؤدي ذلك الى انغلاق الجزائر على عصبيتها ، بدلا من انفتاحها على اوروبا .. وليس لنا ان نبرر هذا الموقف ، فانما هو مستوحى من منطق استعماري كان الفكر الحر يربأ بكامو ان يستعين به . والحق ان هذا الموقف اثار كثيرا من المفكرين الفرنسيين الاحرار فسجلوا به على كامو مأخذا كبيرا . ولكننا لا نستطيع ان نتناسى ان كامو قد كتب عام ١٩٤٥ بضع مقالات ارسلها من الجزائر عن الاضطهاد الذي كان يتعرض له الجزائريون . ولعله كان من اوائل الصحفيين الفرنسيين الذين اطاقوا صيحة الخطر حول الموقف في الجزائر ، وكان من نتيجة ذلك ان ابعد من الجزائر في وقت السلم . وان مراجعة هذه المقالات تكشف عن انه قد تنبأ بكل شيء ، بما في ذلك الثورة الجزائرية ، وردود فعل المتطرفين من الفرنسيين ، وفساد الادارة الفرنسية ، وتزوير الانتخابات وكل ما يتصل بآلة الاضطهاد ، ومن هذه المقالات استمد بعض الكتاب الذين يناهضون الاستعمار الفرنسي في الجزائر حججهم وبراهينهم .

وفي باريس ، انضم كامو الى اسرة تحرير جريدة « الاكسبريس » الاسبوعية ، وكتب عام ١٩٥٥ مقالا يرد به على السيد بومنجل ، لسان حال جبهة التحرير الجزائرية اليوم ، ويقترح فيه معه عقد طاولة مستديرة يجتمع حولها كل ممثلي الرأي العام الجزائري ، وكانت جبهة التحرير

(٢) اعلنت بعض الصحف الفرنسية ان لكامو رواية جديدة قيد الطبع بعنوان « الانسان الاول » Le premier homme فلعل في هذا الكتاب بعض جواب على السؤال المطروح .

في ذلك الوقت موافقة على الفكرة .

ومن الاسباب الرئيسية التي حملت كامو على الانضمام الى تحرير « الاكسبريس » رغبته في الاشتراك بالحملة التي تهدف الى اعادة منديس فرانس الى الحكم . ومنديس فرانس معروف بنزعته التحررية وايمانه بحق الشعوب في تقرير مصيرها . ويروي جان دانيال (٣) المحرر في هذه الجريدة انه كان يقدم الى كامو ، اثر كل رحلة صحفية كان يقوم بها الى الجزائر ، مجموعة من الوثائق عن اساليب التعذيب التي كان يقوم بها الفرنسيون تجاه الجزائريين العرب ، فيدفع كامو بعضها الى النشر ..

وحين اعلنت الثورة الجزائرية عام ١٩٥٦ ، آثر كامو ان ينسحب ويصمت ، كأنما سقط فريسة تمزق دام بسبب هذه التطورات . ومنذ اعلان تلك الثورة العظيمة ، اي منذ اكثر من خمس سنوات ، يلتزم الكاتب الفرنسي صمتا شبه مطلق في ما يمت اليها بصلة ، ويحاول ان يخرج من تمزقه بالانصراف الى بعض الاقتباسات المسرحية التي تحقق له الغيبة والفرار . ولعل اقتباس رواية فولكنر « انشودة الى قديسة » تشي بحنان خفي لدى كامو الى أن يقف من القضية الجزائرية موقفا ينحاز فيه كليا ونهائيا الى جانب الضحايا . ويذكر جان دانيال ان كامو « لم يكن يتردد قط في تقديم كل معلوماته وارائه الى لجنة الوقاية» حول شجب التعذيب والاعتقالات القسرية ، ولكنه كان يؤثر الايعلن ذلك على الملأ . ويضيف الكاتب بان مؤلف « الطاعون » صارحه قبل فترة وجيزة من موته بقوله : « يكفيني ، وانا اقرأ ما تكتب ، ان ادرك انك ممزق مثلي »

وبعد ، فنحن لا نود ان نبرر موقف كامو او نبرئه . فان الصمت نفسه هو اتخاذ موقف . وقد كان على كامو ، وهو الجزائري المولد ، ان يكون اعمق ادراكا لمأساة الجزائر من اي كاتب فرنسي آخر ، وان يتخذ منها الموقف الذي ينسجم مع ايمانه بالعدالة والتمرد والثورة . ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع ، ونحن نقرأ آثاره ونبحث في حياته عن اضواء تنيرها ، الا ان نجد شبح هذه المأساة مخيما فوق السطور .

لقد كان كامو يعتقد بأن عبثية الحياة تفرض عليه ان ينعزل عن الحياة ، وان يعيش عيشة المتوحد Solitaire ولكنه كان يدرك كل يوم ، أنه كانسان وكفنان ، لا يستطيع الا ان يعيش عيشة المشارك المتضامن Solidaire وهذا مغزى قصته الرائعة « جوناس » (٤). وذلك الصراع بين التوحد والتضامن هو الذي خلق في ضمير كامو ادمى تمزق نفسي وخلقي عرفه الادب العالمي الحديث .

سهيل ادريس

---

(٣) راجع مجلة « اكسبريس » العدد ٤٤٧

(٤) ترجمتها الى العربية عائدة مطرجي ادريس ونشرت في « الاداب » كانون الثاني ١٩٥٨

حامد

النابغة التركي في الخط العربي

بأحلى خطوط الوشي ما خطَّ « حامد »
وتفديه امٌ للربيع ، ووالدُ !

احاول بالتشبيه وصف سطوره ،
وان اعجز التشبيه ما انا ناشد :

فكالجيش ، هذا صفه غير ملتو ،
وكالغيد هذا سربه المتوارد .

لعمرك : ليس اثنان في العصر ، انما
اخو عبقريات المراقم واحد !

اذا خطّ شعرا جود الشعر خطّه .
كأن عليه ان تجود القصائد ...

وما ذاك صوغ اللفظ ، لكن روعة
لها من مصوغ الخط لمحٌ يشاهد !

✶✶✶

أ « حامد » : تلك الضاد ، هل كحروفها
حلا لعيون اثمد ومراود ؟!

فسل قومك الترك الذين تغيروا
عن الضاد : هل قد ادرك الفقد فاقد !

هو الحلي جنب الحلي دون سطورها
فيا أحرف التلاتين : اين القلائد ؟..

اذا « الفات » الضاد لاحت قدودها ،
بدا من قدود الغير قال ، وحاسد .

وفي نقط « الثاآت » غمزٌ محبب ،
وفي « العين » غنجٌ ، فهي غيداء ناهد .

ولله كم في « السين » روح لمقلة ،
لها من تعاريج ، هناك ، وسائد ...

✶✶✶

لخطك بات لحبر كالتبر غاليا ،
واطنب دلال ، وفصل شاهد .

وفي السبج اللماح قام معبِّرٌ
يقول : الا اين الحلى ، والفرائد !..

امين نخله

الشعر الانثوي وديوان «العودة من النبع الحالم»

بقلم مطاع صفدي

يعاني ادبنا العربي المعاصر بجميع فنونه ، من قصة وشعر ودراسة ونقد ، مرحلة تكاد تكون بدءا خالصا . انها ليست مرحلة ولادة ، ولا مرحلة تكون او هرم . هي انطلاقة مبهمة ، غير واضحة الجوانب ، بالنسبة لخالقها او لمتذوقها . كل ذلك لان ادبنا اليوم بدء من ذاته . وليس له من الوعي بنفسه ، اشد من هذا الوعي الجذري ، وهو انه بدء ، مجرد بدء ، لا يقال عنه بعد اي شيء . ووعيه هذا ، هو النقطة الوحيدة الثابتة التي لا ترتج تحته ، بينما يكاد يختنق في غاب من اداب اخرى ، ذات شخصيات متيبسة الملامح ، حادة الهيئة ، كل منها مداهم مهاجم ، ذو ثوب فضفاض ينزع الى استغراق اية هيولى لم تتكون بعد ، لكي يصبها في القالب الذاتي له . غاب من الاداب المغتصبة الشرسة تلقاء فريسة لينة قلقة من خوف في ذاتها ، اكثر من خوف في محاولات الاغتصاب المحيطة بها.

ادبنا فصول عن تراث بعيد ، وليس له تراث قريب . وادبنا غريب بين مؤثرات شتى من الاداب العالمية الغازية التي تحددت شخصياتها ، واتضحت قيمها ومفاهيمها . وما هي بعد الا طافحة بفعاليتها ، تؤثر ولا تتأثر ، تغزو ولا تعنو .

واذا كان هذا الحديث ينطبق على القصة من ادبنا، وهي فن جديد كله تقريبا ، فانه ينطبق ، بافجع وافدح ، على الشعر . ومنذ المدرسة الكلاسية المجددة ، من حافظ وشوقي ، الى يومنا هذا ، تتصاعد نزعات وسرعان ما تتلاشى كمويجات صاخبة ولكنها زائلة . كلها مفتتنة بالتجديد . ولكنها لا تعدو كونها مظاهر تقليد . تتخيل تجربة الاخرين ، ولا تمتح من اصل شخصي ثر خصب . تظن تارة ان المشكلة في اللفظة المجنحة، في الانصياع التام الى الموسيقى ، فاذا بها تقع فريسة لتداعي الكلمات الغبي السادر . فتخرج عندنا هكذا مدرسة تدعي الرومانسية من محمود طه الى رمزية سعيد عقل الى صورية نزار قباني .

ونزعة اخرى تبدأ خارج الشعر ، من مبادىء نظرية تدعي حب الحقيقة ونفسية الثورة الشعبية. فتسقط في الخطوة الاولى من دربها ، اذ تتضح خيانتها للفن ، بما فيها من تهافت اللفظ والمعنى ونشاز الموسيقى ، وعامية الاحساس الشعري ، عندما تتضح خيانات اصحابها للامة التي يتبجحون بحبها والفخر بها ، وذلك في اول امتحان لها امام بدء النصر في نضال الامة . كالبياتي والبغدادي واضرابهم .

ولا تصبح نزعة التجديد ذات مضمون حقيقي الا عندما يرتبط اصحابها بالثورية العامة في تجربة امتهم. فلا تجديد في اللفظ او المعنى ، بدون تجديد في المضمون الحي للشاعر ، بدون ثورية معاشة ، تربطه بوجدان الواقع الثوري للامة . فاذا بالمحاولة تنمو وتزدهر في كلاسية ثانية عند عمر ابوريشة ، والجيل الثاني من خطه العام ، كسليمان العيسى ويوسف الخطيب وبدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور ، واحمد حجازي .

مثل هذا الخط يؤلف للشعر العربي الحديث تراثه الجديد ، انه يبني قيمه بصلة روحية عميقة مع روح الشعر العربي القديم ، اكثر مما هي صلة مع اشكاله الفنية . ولقد صنفوا تحت اسم الكلاسية ، ليس لانهم يتبعون التقنية القديمة للشعر الكلاسي ، ولكن لانهم يبعثون استمرارا حيا جديدا في قيمة الروحية القومية الخالدة . ولهذا يحق لهذا الشعر ان يكون تراثا مجددا ، وان يضع اسس الاصالة لشعرنا منذ الحاضر حتى مستقبل لا نهائي .

واما شعر فتياتنا ونسائنا ايكون له تصنيف خاص، ام انه يلحق بهذه النزعات ؟. والحق انني اميل الى فصله في فئة لوحده ، دون ان الجأ مباشرة الى تبرير هذا الفصل وان كان سيبدو لنا ذلك ، قريبا من خلال الدراسة . ولكن اكتفى الان بان اقول ان هذا الفصل تمليه ضرورة واقعية وجودية ، واخرى علمية لتسهيل الدراسة .

★

لقد برزت في ساح الشعر النسائي حتى اليوم شخصيات اساسية كفدوى طوقان ونازك الملائكة ،في صف زمني اول ثم عزيزة هارون وسلمى الخضراء في صف زمني تال. وكان لكل واحدة منهن نصيب وافر في تجربة الشعر النسائي ، فساهمت كل بطريقتها الخاصة في جانب منه دون اخر . وبقي شعر فدوى طوقان



سلمى الخضراء الجيوسي

ترنيمة انثوية طويلة يتصاعد منها خدر الاحساس الخبيء، ولطف الروح السجين في تمرد من الحلم والعاطفة الخجول. ومع ذلك لها عنفها غير المباشر ، ولها سجيتها الثورية ضمن معاني الانوثة التي تكاد تعاني من نتائج الثورة السلبية اكثر مما عرف الرجل وعهد . واما عزيزة هارون فلا تكاد تحس بموقف الثورية الانثوية، وانما تتابع عالم العواطف الصغيرة، التي كان يجرفها شعرنا الكلاسي بالفاظه الضخمة وتعابيره المصطنعة واساليبه التي ابتليت بمادة اللغة اكثر مما الفت الغوص على المشاعر الدقيقة الخاصة بروح انسان ما في هذا الوجود . ومن هنا كان شعر عزيزة سلسلة من الكشوف الملهمة لمكامن الانفعال الذاتي ، وهو يتوتر ضمن حالات هاربة منسابة ، لا يكاد الانسان العادي يحفل بها او ينتبه اليها . وتلك هي خاصة الشعر الاصيل ، وهي اعطاء روح الانسان ، لا في خطوطها ووجوهها العامة المشتركة ، بالعادة والتكرار ، مع الاف من الارواح الاخرى، وانما ابراز اللونيات العفوية التي تلوح من خلال اضوائها الخافتة البسيطة قرارة النفس الانسانية .

فشعر فدوى وشعر عزيزة يسيران في اتجاه واحد فهو شعر الانثى اولا . ولكنهما من هنا يفترقان مع ذلك . فينحو شعر فدوى منحى الثورية الانثوية التي تتجلى في تبني تجربة حب ليست لها وقائع حية بقدر ما لها من اجنحة خيالية منسابة . وينحو شعر عزيزة جهة اخرى . فتفترض ان الثورة الانثوية قد تحققت نتائجها فعلا . وهي ما عليها الا ان تعرض على ذاتها زخمها العاطفي الخاص ، وقد تابعته في شتى توتراته ، شتى انعطافاته وازماته ، قماته وهوّاته . حتى شارفت ، من خلال جزئيات الاحاسيس المحفوفة بقيم انسانية اطلاقية ، شارفت حدود الاستغراق التصوفي الخصب .

ومن شعر نازك تظهر خاصة اخرى ، هيأتها لها ظروفها الثقافية التي ربما لم تتوفر لزميلاتها السابقات. وهي خاصة لم تتضح للقاريء الا بعد ان تجاوزت تجربة (عاشقة الليل) وودعت فيه غنائيتها الاولى ، التي ما اختلفت عن الطابع العام للشعر الانثوي بما فيه من رومانسية ورهافة وصور موسيقية موهومة وحنين للحب وتوابعه ، بمعانيه المألوفة .

واعني بهذه الخاصة الارتفاع الى مستوى الموقف الشامل الانساني ، حيث تمتزج عناصر الثقافة بثروة العاطفة بدقة الفكرة بعمق الاستجابة الكاملة للشروط العصرية والميتافيزيقية للانسان . وهنا بدأنا نلمح الفنان وقد اخذ ، ضمن حدود اولية بسيطة ، يستبدل الصورة التي تجرها اللفظة بشحنتها الانفعالية العابرة ، يستبدلها بالصورة المركزة على اساس كونها جزءا من البناء الفني الاصلي. كما يستبدل تلقائية الاستطراد والانسياب المادي مع مادية الوزن ، بالسيطرة على الانفعالات والعناصر الفنية، وظهور القدرة على الانتقاء والانتخاب . وكل ذلك يهيء وجدان الفنان لنوع اخر من التقييم يؤهله الى ابداع الاثار الاصيلة .

وفي ديوان سلمى (العودة من النبع الحالم) نجد ذات المنحى الانقلابي في الشعر الانثوي ، وقد اكتسى بلحمة خاصة بالتجربة التي تمتح منها فنيتها . واذا اردنا ان نتتبع حركة النمو الشعرية في هذا الديوان ، وجدنا ان القصائد الاولى التي تكاد تستغرق نصف الديوان تتعثر بين اطراف النزعات الانثوية المعروفة في الشعر . وقليلا ما انبأت عن طريق الشخصية الخاصة التي عملت على انمائها وابرازها الشاعرة فيما بعد ، الا من بعض جفاف وعسر في الكلمة المنتقاة ، والصورة الفنية المؤثرة . وهذا الجفاف نفسه هو الذي استطاعت الشاعرة ان تبرز خصبه الخاص في القصائد الاخرى التالية .. انه برودة التفكير ، او بالاحرى انه هذه الصفة التي تلزم عن طابع تفكيري تدخله سلمى ، عن قصد او عفوا ، في خطوط شخصيتها الفنية الاساسية. ففي قصيدة كهذه عنوانها (جامع قرطبة) تظهر خاصة الجفاف في بعض الابيات من خلال نثرية يمليها العقل المقارن اكثر من ان يتحسسها الوجدان المتكامل انسانيا وفكريا .. هكذا مثلا :

هو قطعة (اي الجامع) عربية في ارض اندلس اراه.
ستطل عمر الدهر آثار الجدود على ثراه ..

ولولا استجابة قومية عفوية مخلصة في نفس الشاعرة لنقاء هذا الجامع الذي يذكرنا باول فاجعة لنا امام اوروبا لضاعت القصيدة كاثر فني ، ولبقيت كنزوة نثرية شاحبة .. لولا هذا مثلا :

فلتصدح الاجراس ولتقرع نواقيس المدينة .
فنداؤهن لها .. واجراس الخلود حولنا

ومن هذا القسم الاول المتعثر من الديوان تقف قصيدة اخرى (انا والراهب) لتكرر معاني لا جدة فيها ولا تأثير خاص لصورها . ورغم ان الموضوع يعد بكثير من امكانيات المعالجة الشعرية ، الا ان الشاعرة رددت فيه مشكلة عمومية الايحاء والتصوير . فهي كانثى لن تغريه ، ولن ترى فيه ادم الخائن من الغوايه ، بيد انها تطمح الى سكينة نفسه وتبتله وقهره لدنياه في سبيل اوهام الهية قد تشبه اوهامها الانسانية هي. ولو ان هذه القصيدة قد تأخر سبكها الى المرحلة الثانية من نمو التجربة الاستقصائيه الشاملة عند الشاعرة ، لبرزت قيم جد مبدعة من بين يديها تلقاءه .

ومع ذلك فان اكثر القصائد الباقية تؤلف في مجموعها اللوحة المتكاملة عن التجربة الشعرية الخاصة التي انضجت اسلوبها الفني الذاتي.

ولنصل الان الى الحديث عن هذه القصائد ، لنلقى سلمى في عالمها المفقود وقد اخذت تتلمس ملامحه وتدرك تدريجيا غياهبه .

أقول ان شعرنا العربي المعاصر يلتحم مع واقعية التجربة الوجودية لانسانيتنا كلما أحس بخاصة اساسية واستطاع ان يضيف اليها اثارة جديدة ونغما خاصا ، وهذه الخاصة هي (ايقاع الرعب) . وايقاع الرعب هذا ليس وصفا رومانسيا ، انه تعبير عن وجه ادبنا الاصيل الذي سيكتب له التأثير حقا في مشكلة تكويننا كلها ، وليس تعبيراً عن الشعر وحده ، وهو يلتحم مع هذه المشكلة الاولية بالنسبة لنا كبشر اولا وكفانين ثانيا . ولقد ابتدأ (ايقاع الرعب)(١) هذا فيوحشيته الاولى لدى كبير شعرائنا (بدر شاكر السياب) واخذ تأليفه المرناني في موجات تطورية نامية لدى عبد الصبور واحمد حجازي ويوسف الخطيب . وها هوذا يبرز في موجة اصداء ، مؤسسة للايقاع ذاته ، عند سلمى .

واذا حاولت ان اوضح ماذا اعني بايقاع الرعب ، تركت ذلك لاثار هذه الطائفة من ادباء الجيل الاشكالي ، ومنهم القصاصون والشعراء والنقادون والدارسون (٢). ولنسمع الان الى ابراز بعض خصائص هذا الادب من خلال اثار سلمى في ديوانها .

١ ـ الموقف الفاجعي

تصدر سلمى عن أسى لا نهائي ازاء المعاني التي تمليها احداث خارجية ، وتضطرب بها نفس ذات رؤية فاجعية لمعطيات العالم ، المحاصر للانسان الاشكالي. فهي لا تملك تمردا ماديا ، كما عند ابطال الاساطير . ولا تحوز على استسلام انثوي ، كما عند الشاعرات الغنائيات . فلا تجعل من تمردها غباء مصطنعا ازاء سطوة المصير . ولا تؤلف من استسلام الانثى احابيل العواطف السادية . ولهذا كان لها الموقف الفاجعي في ايقاع الرعب . ولقد تحول ايقاع الرعب الى نبرة شاقة ذات مدى طويل ، متماوج بين ذروة اليأس الصاخب وهوة الصمت الابدي الكالح . هذه النبرة هي صرخة الندب . الندب الدائم الذي يستثمر كل مأساة جزئية ، كل كارثة عابرة ، كل لون من الحياة يملك القدرة على الاثارة ، في سبيل بعث الندب القديم . وهو يكاد يكون ندبا يفتقد نسبيته ، يضيع مبرره المباشر . ويصل هكذا الى عمقية الموقف الميتافيزيقي من الوجود .

ان ايقاع الرعب يصبح ، لدى سلمى ، ايقاع الندب. وتكاد تعبر قصيدة صغيرة عن روح هذا الديوان بتمامه

(١) لقد اوضحت بعض الخطوط الاولية لايقاع الرعب في نقد كنت كتبته عن ديوان عبد الصبور حين صدوره منذ اربع سنوات .

(٢) بودي ان اشير الى انني قد افردت فصلا كاملا عن هؤلاء الادباء الاشكاليين في كتابي (الثوري والعربي الثوري) وهو تحت الطبع .

وهي (نعاس) . أنها تلقي في قلوبنا نعياً جنائزيا لكارثة غير محدودة ، لنعش كبير يكاد يبتلع الوجود . ومع هذا فانه نعي من صميم الحياة . انـــه :

نعاس تحت ضوء الشمس مسكوب على الاجفان يرويهـا

وهو بيت طويل ، كما نرى ، وما اكثر ما تلجأ الشاعرة الى مد الابيات. كانها تتابع صدى الصرخة المعولة بين اطلال لا تتناهى اشباحها السوداء على الارض اليابسة .

ويشيع الندب الدائم في عدد من القصائد الرائعة ، في (الورد والقين) و (مرثية الشهداء) و (بعد الجزر) (الشهيد المهجور) ، (الفداء) ، (اذرع الكتان) .. وفي هذه القصائد تحفل الروح العربية الاسيانة بفيض من الصور القومية ، والمعاني البطولية . وتستفيد الشاعرة من كثير من خصائص شعرنا القومي المعاصر . ولكنهـا تفجر فيها طاقة من التحريض جديدة ، ترفض التهويل، ولا تعتمد على المبالغة والتفخيم وتداعي الالفاظ ، ولا تترك لعواطفها المخلصة ان تتابع توترا أجوف خطابيا . ولكنهـا تقدم زوايا من عالم الكارثة لم تألفها صيغ الشعر القومي من قبل

ويتصاعد ايقاع الرعب ، عند سلمى ، بنبرته النادبة ، حتى يصل بين آلام العربي اللاجيء المفجوع الى ذرواتها الانسانية المطلقة . وهكذا يتحرر شعر الكارثة ، لاول مرة من الاجترار والضيق التأثري الانفعالي ، ويتحول الـى موقف فاجعي شامل له قيمة الميتافيزيقية الخاصة .

وقصيدة (الشهيد المهجور) تعطي اوضح دلالة على ذلك. فلقد فقد هذا الشهيد هويته من ملامح معينة وزمان ومكان واسباب للقتل خاصة ، ودواع للتأثر محدودة . وأصبح الشهيد المطلق ، ليس الرمز ، ولكنه الانسان المقتول دائما، المضطهد ، المنسي اضطهاده ، والمهجورة عظامه ، والضائع قبره . ويكاد بالمقابل ، يرفض كل انسان آخر ان يحمل مسؤوليته . وهذا ما يؤكد الموقف الفاجعي الشامل لدى الشاعرة . انه يتجاوز معاينة المأساة من خارج . يتعدى الانغلاق في سادية الحزن . بل يفتح افاقـه لكشـف الوجودي عن عتمة انسانية خالصة ، هي من جوهر كينونتنا المتمزقـة .

ومن مرثيات الديوان الكثيرة قصيدة (أذرع الكتان). وهي رغم انها تتوجه في الاساس الى رثاء شاب قد غرق في دجلة ، الا انها ترتفع الى مستوى الموقـف الفاجعي الشامل من الوجود . وتتجلى نبرة الندب هنا في نغمـات مادية مباشرة . حتى انها تستعين بتقاليد الشـعب الفولكلورية في هذه المناسبة المأتمية من نفسية وغنائيـة تردادية ووصفية مباشرة . كل ذلك لتستكمل شروط أفجع قصيدة ندبية في شعرنا المعاصر ، قد تذكرنا احيانا بمريثة جيكور لشاكر السياب . الا ان الاولى اكثر الحاحا مأتميا، واشد تأثيرا واقعيا لاستفادتها من عناصر الفولكلور الشعبي في هذا المجال . ان التردداد الجماعي ، وتكرار النـداء ، وتعداد الصفات ، واثارة المدائح في ثوب من استـدرار العطف ، كل ذلك قد هيأ للشاعرة قوالب مباشرة تستطيع ان تملأها بمضامين شعرية فاجعية جديدة . ولم تنس سلمى ان تورد صورا واقعية لمستعملات المآتم كالمقرىء العتيق والمغسل والالواح .. وكل رموز الموت الاجتماعيـة في بلادنـا :

فنابش الحفر
وقاطف الزهر
وبائع الحنوط والكفن
تفتحت ارزاقهم هذا الصباح
كل له ثمـن
والدمع غمر والمعزون سيول
والنعش عند الباب كي يعلم من عبر
بان موتا قاسيا في بيتهم يصول

وأخيرا نستطيع ان نتبين ان الموقف الفاجعي عند سلمى هو غاية في ذاته . ولهذا فرض عليها اسلوب الوصف دون التحليل السبري . فاضاع عليها ذلك كثيرا من الاثـارات العميقة . وقد بقيت اسيرة المعاناة دون ان تسـتطيع الشعور بضرورة البحث عن التقييم المتقصي لمكتسبـات هذه المعاناة الوجودية . انها تتشبث بالالم ويخشى ان تضيع نكهته الوجدانية . وقد تستيقظ احيانا من سلطة الالم الجميل لتنتبه الى رديف له أخطر واقسى وهو الالم الوجودي ، أي هذا الالم الذي يتطلبه الموقف الفاجعـي

ـ التتمة على الصفحة ٧٦ ـ

تموز جديد !

بقلم محيي الدين اسماعيل

« الى ي. م. التي تركتها في بغداد .. تنتظر ميلاد تموز جديد »

.. أنت تذكرين ولا شك !
كانت مدينتنا تستجدي الخبز من بيت لبيت ،
وعجلات الزمن تتهشم بجنون ابدي ،
على شوارع مدينتنا .
وكنا نريد ان نسرف في الكراهية ،
ونسرف في احتقار الذات .
كنا نرفض التبتل من أجل مدينتنا الجائعة ،
وهي تستجدي الحياة في ظل الموت .
كانت مدينتنا الغافية الفارغة ،
تستلقي على شاطيء الفرن الجهنمي ..
وكانت على الشاطيء رمال تحترق .
اما نحن فكنا نحرث الرمال الجهنمية من أجل حياة،
حياة نستجديها وليست لنا .
ولكن انفاسنا كان يرتعد منها الفرن الجهنمي...
كان الفرن الجهنمي يلهث .
وكنا نواجه يومذاك صخوراً من اللهب ،
وحفرا من الزفت والقطران ،
وقلاعا من جليد .
كان الفرن الجهنمي يلهث بوجوهنا ،
وتزحف علينا من جوفه سراطين شنيعة ،
تمد بخراطيمها الحمراء،
وتزحم مدينتنا الجائعة ،
فيشيع بيننا فزع غريب ،
وتفعم البيوت بالروائح الكريهة .
وتتوالى علينا الزلازل ،
فتتدفق بحيرات من نار في كل مكان ،
ويسود الطوفان شوارع مدينتنا ،
فتستحيل الى متاهة متشابكة ، كمتاهات الجحيم .
طواحين .. عجلات وصنارات مسمومة ،
تصطاد الجميع ليلتهمها الفرن الجهنمي الجائع .
كنا نريد الخلاص من انفسنا ،
وقد عادت جزءا من آهة ممتدة طويلة .
ونمد بأبصارنا فلا نرى غير عقبان وغربان ، ترتعد في السماء لتقيم على جثثنا حفلة من حفلات الليـل .
كنا نرقب مواكب الموت ،
تسير بعجلات تتخبط بالدم ،
وكانت هناك اصوات تنبعث ،
من افواه كانها فتحات الجحيم .
والشمس قد انطفأت عينها ،
وسال منها قيح دام يتساقط قطرات على الارض .
ويختلط القيح الشنيع مع مياه مدينتنا ،
وهي غافية ، جائعة تتلوى .
كنا نسير مع موكب الموت بلا ظلال ،
لان النور هو مبدع الظلال .
فقدنا كل شيء ، حتى ظلالنا ،
بعد ان تفيحت عين الشمس وانطفأت .
اناس بلا ظلال !
وعلى الشاطيء الجهنمي كنا نجتمع صامتين ..
وكانت تتردد علينا هناك اشباح مجهولة ،
تبدو شاحبة صفراء ،
كانها اشباح أولئك الشهداء،
تتدلى من صلبانها كعناقيد الرعب ،
بوجه الظلام .
كنا نسمع اصواتا تقول :
« اغرقوا في النوم على الشاطيء ، حتـى تحترقوا بتياره اللاهب ..
الويل والدمار لك أيتها المدينة الملعونة ،
التي لا تظللها الشمس ..
الكراهية تنتصر !..
مأساة مدينتكم الملعونة ! »
أنت تذكرين ذلك ، ولا شك .
كنت احتضنك بين يدي واقول :
« الكراهية لن تنتصر »
وتقولين : « وهل ينتصر الحب في قفص من حديد ؟»
ثم يغمرنا الصمت والانتظار !
ولم يعد يهزنا شيء سوى الصمت والانتظار :.
الظلام ينمو في مدينتنا ،
وكنت ارى من وراء سجف الظلام،
دموع عينيك كلآلىء البحار المهجورة مع الاسفنج ..
كل شيء فقد شكله واستحال الى عماء ،
الا دموع عينيك كلآلىء البحار المهجورة ،
وسط ظلمة العماء .
ومن اعماق قبورنا القلقة الموحشة ،
كنا نتحدث عن فجر وردي ،
وعن ظلام النور ،
بعد ان نمنا مع الغربان ،
وغفونا تحت مقصلة العبيد ،
وبعد ان قضمت الجرذان أشجارنا ،
وطاردنا الاثم ،
وطرق الموت بابنا ثم أقعى امامه ،
مع العقارب والافاعي والذئاب .

زهرة .. الى فيروز

أحس يا صديقتي البعيده
بصوتك الملون ،
يحملني
على جناح القمر المورد
للابعـد ...
لغيمة زرقاء
في ظلها يترد المساء
مستلقيا نخيمة انتشاء
آفافها الصحو الذي يهيم
مع العصافير الى كروم
ثمارها النجوم
أشواقها نافورة الخمور والعطاء ..

★

سفيرة الانسان للانسان
أحس في نبراتك الامان
أشعر بالكادح ... بالانسـان
يشدني اليه في ايمان
في الليل .. واللهيب .. والاحزان
في موسم الفرحة والحنان
وينزع الاشواك والصلبان
من دربنا الطويل
فالقيد والاهوال والاحقاد
مذعورة .. حقيره
تصفعها امواج اغنياتك الصغيره

يطوف بي صوتك في الكروم
على حدود القمر
في الانهر
يتركني هناك في الضباب ... في الجبال
على رؤى خيال
راعية .. حالمة .. جميله
تعشقها المروج..
تسكر من خطواتها الدروب
تأتي مع الغروب
بالحب والغناء والطيوب ..
صديقتي القريبة البعيده
المح في صرخاتك الجزار
بالاعين الحمر وبالسكين والاظفار
يمزق الاطفال والازهار
ويصبغ النهار
بالدم والاحقاد والالام
والمح الشعوب
في حبها الغضوب
قبضاتها تدحرج الحروب
وتطأ الاظفار والانياب
وتفتح الابواب
للحب .. للصباح .. للسلام

بيروت **رفيق الخوري**

ونتساءل صامتين :
« متى تتداعى مملكة اللهب ؟ »
ثم نقول : تموز اله الخصب من جديد ،
سينبعث من رماد مدينتنا النائمة .
من اعماق تموز الخالد
الذي لن تميته الجراح ،
ستخرج مدينتنا ،
ونخرج معها ،
وعلى شفتيك ظلال من ارجوان ..
الكل يبكي في صمت من أجل شيء لا يعرفونه ،
ومن اجل كل شيء .
ولكنهم سيعرفون ،
وستندمل جراح تموز التي تنز دما ،
في ظلام الليل .

ستعود مدينتنا حقلا من حقول تموز...
تموز اله الخصب والسخاء ،
رفيق عشتار
سنابله حية
وهيكله فسيخ
والقمر يمسح عن امه الشمس
دموع الحزانى .
ويومئذ لن تعود مدينتنا ،
قطرانا يتقد ،
بل ينابيع كعين الطاووس
ومن اعماق تموز
سنخرج من جديد ،
يدا بيد ! »

القاهرة **محي الدين اسماعيل**



فان امت فقد تناهت لذتي وكل شيء بلغ الحد انتهى

« ابن دريد »

— ١ —

ولد ابن دريد في البصرة سنة (٢٢٣) هجرية وناهز المائة عام . وكان ينتمي الى اسرة عربية عريقة تنحدر من الازد ويمتد نسبها الى يعرب ابن قحطان . ولعل امتياز النسب قد اتاح لها يسرا في الحياة توارثته من عهود بعيدة ، فلم يعرف ابن دريد ذل الفاقة ، وكان على جانب من النعمه ، ولا يعرف عنه خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن الا انه نزح عن بلده في وقت مبكر ونشأ في عمان وكان يحب الموسيقى والازهار ويدمن شرب الخمر . وانه عرف بين الناس لغويا مبدعا وشاعرا بارع الصنعة وعالما في الادب جمع في صدره دواوين العرب جميعا ، وكان من ائمة النحو في عصره يأتيه المثقفون من كل بلد ويقصد اليه المريدون ، وقضى اعوامه الاخيرة مفلوجا يعاني الام المرض واحزان العزلة ومات ببغداد .

واشتهر ابن دريد في تاريخ الادب العربي بقصيدة طويلة وضع فيها خلاصة تجربته في الحياة وجماع ثقافته اللغوية ، هي المقصورة المعروفة باسمه ، والف عشرين كتابا اخر في اغراض النحو والشعر وعلوم اللغة .

ومقصورة ابن دريد هي عمل فني كامل . وعلى الرغم من ان الصنعة فيها تبدو صارمة متكلفة احيانا ، وكان الصيغة فيها استغرقت كل جهد الشاعر ، فان وراء الكلمات المصنوعة في براعة واصطفاء ، شخصية انسانية واضحة تحمل تجربة غنية متعددة الاغراض متماسكة الجوانب حتى لتبدو جوابا بليغا على الكثير من قضايا الانسان .

وليس في القصيدة ما ينم عن عبقرية في ابتكار المعاني وابداع الصور ، فهي مجموعة من الخواطر المألوفة والصور التقليدية والتشابيه الدارجة في الشعر العربي . ولكنها على الرغم من ذلك تعتبر اثرا فنيا مبدعا بما تنطوي عليه من متانة السبك وجمال العبارة .. ولعل ما يميزها بوجه خاص هو حرصها على التقاليد من حيث المعاني والصور، والتماسها الابداع الفني في صنع الصيغة الجديدة . وتلك ظاهرة ، تلفت النظر ، في طبيعة الشعر العربي القديم . فقد كان الشعراء يتوجهون الى الابتكار في العبارة اكثر مما يلتمسونه في المضمون . ولم يجدوا غضاضة في التقليد من هذه الناحية . فالكلمة في تجربتهم الشعرية هي صنعة الشاعر ورسالته الحقة ، اما المضمون فانه ثمرة لتجربة الجميع .. ولا يضير الشاعر ان يكون اللسان المفصح عن هذه التجربة ، ان يردد ما يقوله الاخرون ، وما يفيض به الوجدان الجمعي .. وهو يلجأ الى روح الجماعة حتى في التعبير عن مشاعره الذاتية ، كأن هناك حقيقة اعمق جذورا في تربة الحياة واغنى بالتجربة ، هي الشعب الذي ينتمي اليه ، ومن ثم فهو من ناحية المعنى الذي يمثله ، رمز لا اكثر . اما العبقرية الفنية التي ترجع اليه ، فانها تتمثل في ابداع العبارة الجديدة ، الصياغة التي يمكن ان تضاف الى لغة الشعب كجزء من تراثه العريق .

كان ابن دريد صورة بليغة لهذا النموذج من الموهبة الشعرية .

— ٢ —

حين ولد ابن دريد كان تاريخ العرب السياسي في بداية الانحدار . وكان الخليفة المعتصم اخر يد قوية تمسك بزمام الحكم العربي،وعلى الرغم من ذلك فقد قال له احد مهرجي القصر ذات يوم : « انما لك من الخلافة الاسم » . وكان المعتصم يبني مدينة سامرا لجنوده الاتراك الذين استعملهم لحماية الدولة بعد ان اخمدوا له ثورتين لعب فيهما الصراع الطبقي دورا هما ثورة الزط وثورة القرامطة . وكان العرب يبتعدون عن المشاركة في الحياة السياسية ولم يعودوا موضع ثقة السلطة ، غير انهم احتفظوا بالكثير من الامتيازات الاجتماعية ، والمصالح الاقتصادية .

ويكاد المعتصم ان يكون اخر ملك عربي ينتهي نهاية عادية ، فقد ولي الخلافة بعده ، خلال حياة ابن دريد ، عشرة خلفاء خلعوا او قتلوا ومنهم من مات من السكر (١) ومنهم من قتله تأنيب الضمير (٢)

واصبحت الدولة لعبة خطرة بيد جيش دخيل يحكم عن طريق كبار الضباط الذين لا يحملون من قضية الدولة الا السيطرة والدسيسة وتحقيق المطامع الشخصية . وكانت ادارة الحكم في الظاهر بايدي الوزراء ولكنهم كانوا اداة للقوة العسكرية . وكانوا يدفعون ثمنا غاليا لايام الحكم القصيرة ، وكثيرون منهم كان مصيرهم القتل والتعذيب والتشريد ..

وكان العصر خضما جارفا من الاحداث ، تتعاقب فيه الثورات العديدة والمؤامرات والكوارث ، في سير مزدحم من المآسي ، شعاره العنف والغدر والدسيسة . وكان بذلك صورة للاضطراب الذي تفيض به حياة الناس ايضا . فقد كان التناحر والصراع شعار الجماعات البشرية في ارجاء الدولة ، بين سكان البادية وسكان المدن ، بين سواد الفلاحين والاقطاعيين بين مفاسد السلطة والتقاليد الخلقية ، وكان التعصب العنصري والتنازع القبلي على اشدهما في كل مكان .

— ٣ —

ورث ابن دريد عن نشأته فردية جامحة لم تتح له ان ينظر الى قضية

(١) المعتمد . (٢) المنتصر .

عصره الا من خلال مشاعره الذاتية وامانيه الخاصة . ويبدو انه اختار العزلة عن احداث العصر ، ولم يحمل عمله الثقافي ما يدل على اكتراثه بما يجري حوله من احداث .وهو موقف يعبر عن اليأس ويمكن ان يكون مظهرا للخيبة والانهزام . وقد كان للجماهير الشعبية مثل هذا الموقف ، ولكنها كانت تحمل فيه الكثير من النقمة تعبر عنها في الاستجابة لكل دعوة ثورية تعارض الدولة وتقوم على العنف . وعلى الرغم من ان الخيبة كانت تحصد جميع الامال ، فقد بقي التذمر شعارا للوجدان الشعبي الذي كانت السلطة في نظره تحمل طابع القدسية والمنعة فاصبحت مهزلة عجيبة تنضح بالمآسي البغيضة .

وقد انطوت تجربة ابن دريد على ازمة هذا الوجدان في جذورها العميقة ، وعلى الرغم من ان انتاجه الثقافي لا يشير الى اقل التزام بقضية معاصرة ، كما هي الحال مثلا بالنسبة للمتنبي والمعري ، فانه استطاع في مقصورته ان يصور المأساة التي يحياها عصره ، وراء جميع الاحداث العابرة . فثمة اشياء راسخة كانت قد استقرت في بنية الحياة الانسانية ، اذ ذاك ، اصبح الجميع يحماون ملامحها ويعبرون عنها في الافكار والاعمال ... اشياء ثابتة واضحة المعالم ، تكشف عما الت اليه قضية الانسان في ذلك العصر ... وكان ابن دريد مفصحا عنها ، في حقيقتها المتمكنة الصلبة وراء ضوضاء الحوادث وضباب المظاهر .

وتخيم على ابن دريد في هذه التجربة روح حزينة خائبة تتحسس المأساة في كل جانب .

ـ ٤ ـ

كل شيء زائف ملوث . تلك هي الحقيقة الاولى في حس المأساة : ان يلتفت الانسان حوله فلا يرى الا المظاهر الباطلة والاكاذيب . لكي ينشأ هذا الشعور يجب ان يكون المرء على جانب من الوعي يتيح له الانفصال عن التيار الدنس الذي يجرف مصائر الجميع ، ان يخلع العصر الذي يعيش فيه معترفا بالهزيمة . فحين يشارك الانسان في احداث عصره ، ويحتل مكانه في موكب الحياة العامة ، يفقد كل مبرر للعزلة ، ويصعب عليه ان يتبين الخيوط الحقيقية للمأساة . والعزلة شقاء ، مهما تكن جميلة . انها اعتراف بالفشل . فالمألوف ان تتحكم الارادة الانسانية بالحياة ، ان تكون للفرد قضية كبرى يلتقي بها مع الاخرين ، ويمضون معا في صنع التاريخ ..

ولكن قوة عاتية تتحكم بمصائر الجميع ، لا يستطيع الانسان امامها اي شيء . ظروف قاسية تفسد كل طمأنينة وتدفن كل امل . احيانا تحملها مخاوف الناس وقلقهم على مصيرهم ، وتارة تحملها مخازي السلطة، ومساوىء المجتمع ، ولكنها في جميع الاحيان تبدو في فساد النفوس . وذلك الامر الذي يدفع الى اليأس . فالناس لم يعودوا قادرين على شيء نبيل . وقد ماتت نزعة المجد (١) وانطوت صفحتها الى الابد .

ولكن الناس يعيشون ـ مهما تكن الظروف ـ ويمضون في هذا الركب المزدحم بالمفاسد ، لانهم مرغمون على الاستمرار . تفرض عليهم نزعة الحياة في عبودية قاهرة ، ويضطربون اذا تهددهم خطر ، حتى اذا انقضى مضوا بعيون مغمضة وعبث كاذب ، وهم اجبن من ان يتطلعوا الى الحقيقة المرة ، الى ما ينتظرهم من مصير (٢) .

وهم غير ملومين . فقد قدر عليهم ما هم فيه لانهم لا يملكون العزم على التمرد . انهم ابناء عصر مدان ، والعصر يصنع ابناءه على شاكلته (٣) ومن ثم فالفاسد قدر داخلي قبل ان يكون شيئا دخيلا . لقد فسدت الطبيعة البشرية منذ ان فقدت صبوتها الى الفعال العظيمة ، بهذه الصبوة وحدها يمكن ان يكون للحياة معنى انساني جميل ، وبها يتحرر الانسان من قيود الحياة المألوفة العادية ، ويكون شيئا جديرا .

من هذه القيود ان هناك منطقا صارما يوجه سلوك الجميع ، يبدو الانسان خلاله كائنا عاديا يسعى في سبيل حاجاته في طمع وشراسة ، لا يربطه بالاخرين الا الصراع من اجل العيش . ولكي يظفر بما يشتهي يجب ان يكون ذا سطوة ، قادرا على الظلم ، فالمحبة مظهر للضعف والانكسار . اذا كنت لين الجانب فقد اهانك الناس (٤) واساءوا اليك ، فالعداوة متأصلة في نفوس الجميع .

ذلك ان طلب الانتفاع هو المحور الاصيل في حياة الناس ، وحين يكون ذلك ، فقد سيطر عليهم النفاق ، ان ينحنوا امام المال حيثما وجد،

---

(١) « ان نجوم المجد أمست افلا »

(٢) قال للامر الذي يروعنا   ونرتعي في غفلة اذا انقضى

(٣) وكل قرن ناجم في زمن   فهو شبيه زمن فيه بدا .

(٤) من ظلم الناس تحاموا ظلمه   وعز عنهم جانباه واحتمى

وهم لمن لان لهم جانبـه   اظلم من حيات انباث السفا

ويحتقروا الانسان حين تدركه الفاقة (١) انهم يلتمسون في المظاهر الكاذبة رداء يحجبون به هزال النفوس ، فالانسان بمظهره لا بحقيقته ، والكذب ذريعة الحياة .(٢)

واذا لم يتح للانسان ان يساوم البيئة التي يعيش فيها ، فانه يطرح جانبا ويهان . وما من انسان ينال ما هو جدير به لان هناك قدرا عاتيا يملك مصائر الجميع هو الحظ ، (٣) والحظ صدفة عمياء . فقد يسود الجاهل ويضطهد العالم .. وقد تفتح الحياة ذراعيها للاشرار حين تثقل الطيبين بالهموم والاحزان ..

من اجل هذا ، على الانسان ان يدرك حكمة الحياة في عصره ، انه مرغم على الانسياق في خضم الواقع وعليه ان يحسن هذا الانسياق . ان يكون « ظاهرة واقعية » بكل معنى الكلمة .

— ٥ —

واول ما تقتضيه هذه الحكمة ان نعتبر باحداث الدهر ، وناخذ الموعظة من الايام فهي خير مؤدب للانسان (٤) . انها تعلمنا القناعة والاستسلام (٥) فليس للمرء ان يطلب مالا يطيق (٦) . وعلى النفس ان ترضى بما هي فيه مهما يكن بغيضا (٧) . ومن نزعت نفسه الى ابعد مما له ، عجز عن نيل ما تحت يديه . (٨) وللانسان حد يجب ان يقف عنده(٩)وليس ما هو ادعى للمقت كالغرور والطموح والعجب بالنفس(١٠). انما العاقل من فكر في الامور طويلا قبل ان يعمل ، واحترس من كل مجازفة والا كان نصيبه الندم . (١١) فالحكمة ان تحجم عن كل نزوة جامحة ، وما ينجو الا الذي يلجم هواه بالتعقل (١٢) فالجموح ضلال لان الطبيعة البشرية مشوبة ابدا بالخطأ والنقيصة(١٣). والحكيم من اخذ الناس على علاتهم ، وحسبه ان يجد في الاخر خلة واحدة محمودة لكي يمحضه الود ، مهما يكن رديء الطباع . (١٤) وما من سيف الا وينبو وما من جواد الا ويكبو .. (١٥)

(١) عبيد ذي المال وان لم يطعموا   من غمره في جرعة تشفي الصدى ..
« وهل لمن املق اعداء .. »

(٢) والناس كالنبت فمنهم رائق   غض نضير عوده مر الجنى
ومنه ما تقتحم العين فان   ذقت جناه انساغ عذبا في اللهى

(٣) لا يرفع اللب بلا جد ولا   يحطك الجهل اذا الجد علا
« لا تسألني واسأل المقدار .. »

(٤) من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما   راح به الواعظ يوما او غدا
من لم تفده عبرا ايامه   كان العمى اولى به من الهدى

(٥) من ملك الحرص القياد لم يزل   يكرع في ماء من الذل .. »

(٦) من عارض الاطماع باليأس رنت   اليه عين العز

(٧) من عطف النفس على مكروهها   كان الغنى قرينه حيث انتوى

(٨) من طال فوق منتهى بسطته   اعجزه نيل الدنا ..

(٩) من لم يقف عند انتهاء قدره   تقاصرت عنه فسيحات الخطا

(١٠) من ناط بالعجب عرى اخلاقه   نيطت عرى المقت الى تلك العرى

(١١) من ضيع الحزم جنى لنفسه   ندامة .. »

(١٢) وآفة العقل الهوى فمن علا   على هواه عقله فقد نجا

(١٣) من لك بالمهذب الندب الذي   لايجد العيب اليه مختطى

(١٤) كم من أخ مسخوطة اخلاقه   اصفيته الود لخلق مرتضى

(١٥) اذا بلوت السيف محمودا فلا   تلمه ان تراه يوما قد نبا
والطرف يجتاز المدى وربما   عن لمعداه عثار فكبا

واذا كان اللسان على هذا النحو من الفساد فان من الحزم ان يذلل نفسه ويرغمها على احتمال الاذى (١) ، والتذرع بالخنوع والصبر ، (٢) في انتظار ما يمكن ان تمنحه الاقدار من منة الخلاص .. (٣)

الانتظار الخانع .. تلك خاتمة الوصايا الابدية التي يفرضها العصر على ابنائه الخائبين .

— ٦ —

ذلك هو قدر الانسان في تجربة ابن دريد ، و « الانسان في التجربة » هو الكائن الواقعي المشدود الى بيئته وعصره بجميع الاغلال . انه ليبدو صورة كئيبة للعبودية والاستسلام ، كانه « شيء » تافه يعبث به القدر وتثقله لعنة الجمود بالهموم الثقال .

وقد كان ابن دريد من ابناء عصره ، ولكن المرارة التي تفيض بها مشاعره امام الواقع ، تحمل روح انسان متمرد يشفق ان يكون على النحو من الجمود والاستسلام ، غير انه اشفاق اليائس لا يملك الا الرثاء والالم . فلكي يكون ثمة امل يجب ان تقف ارادة انسانية جريئة في وجه الاقدار . مشيئة حرة تتيح للانسان ان يصنع مصيره وفق ما يحب ويريد. وهو يريد الحياة السليمة ويحب السعادة الابدية . ولكن لا سبيل . فالعصر كله مدان . ومن الحكمة ان نلتمس منطقا معقولا لما نفعله الايام . وليس لنا الا هذه الحكمة ما دامت الطبيعة البشرية في حضيض من الانهيار .

علينا ان نبرر الاشياء التي نحياها ما دمنا لا نستطيع تبديلها . وفي هذا التبرير ننقذ شيئا من حريتنا ، نختار على الاقل ، في شيء من الوعي ، الطريق التي ارادها لنا القدر ، وبتعبير اخر نتبنى الواقع لئلا نقسر عليه (٤) .

ولكن هذا لا يمنعنا من العودة الى نفوسنا ، وعندئذ تبدو لنا هذه الهوة السحيقة بين « الانسان الواقعي » ، «الانسان في زمنه » ، وبين الانسان كصبوة الى الحياة الجميلة ، تختار مصيرها في حرية . واذا لم يمكن ثمة سبيل لان تحقق هذه الصبوة ما تنزع اليه في واقع يسحق الانسان سحقا ، فانها تعيش كحقيقة حية في نفوس القلائل . افراد (٥) يملكون القدرة على التمرد والانفصال عن القطيع . فلا بد من ان يبقى للحياة الانسانية من يمثل ما يحلم به الناس من صور الانعتاق . وقد لا يستطيع هؤلاء الافراد شيئا ، ولكنهم يلبثون نماذج يحاول ان يقتدي بها الاخرون ..

وقد تكون هذه النماذج مجرد وهم يطوف باخيلة الخائبين ، ولكنها تومىء ابدا الى شيء ثمين في الحقيقة الانسانية هي ان الانسان خلق لامر اخر ، لمصير كبر مما قدرته عليه الايام ..

وتبدو هذه الحقيقة عند ابن دريد في نموذج الفارس . ينطلق في الصحراء وحيدا ، وراء الخطر ولا رفيق له الا السيف والجواد (٦) والعزيمة المصممة التي خلقت للكفاح المستمر (٧)» ووجدت في اقتحام الموت

(١) وعطف النفس على سبل الاسا .. »

(٢) عول على الصبر الجميل انه   امنع ما لاذ به اولو الحجا

(٣) والدهر يكبو بالفتى وتارة   ينهضه ..

(٤) من كان ذا سخط على صرف   القضا ؟

(٥) وواحد كالالف ان امر عنى

(٦) هما عتادي الكافيان فقد من   اعددته، فليناً عني من نأى

(٧) لكن لي عزما اذا إمتطيته   لمبهم الامر ..

سبيلها الى العظمة (١) انها ترمز الى العنفوان في كل شيء ، الجموح الذي لا يعرف الاحجام والتحفظ .. احيانا تحمله الكبرياء يقف بها الانسان الحر في ذروة المجد (٢) ، واحيانا تمثله المكرمة والسخاء (٣) .

ولكن هذا النموذج هو خيال واسطورة اكثر منه حقيقة حية تعيش في الواقع . انه اشارة صادقة لحنين الانسان الى الانفراد والعزلة ، الحنين الى الحياة الجميلة القوية التي اندثرت معالمها من مجتمعات النـــاس واصبحت الصحراء وحدها ملاذها الاخير ..

وليست الصحراء رمزا للعزلة الحزينة فحسب ، بل هي صورة الماضي حين كان كل شيء صادقا بريئا . والذين يمثلون هذا النموذج في شيء او سواه ، انما هم بقية من عهد ذهبي (٤) ، من غابر بعيد كانت الحيـاة فيه اجدر بان‌تبارك وتحب...

وخيال الفارس المنفرد ، على الرغم من عنفوانه ، ينطوي على نزعـة عاطفية يائسة . موقف فردي قاس تمليه روح سلبية ينتهبها التشاؤم : ان يلوذ الانسان بالصحراء كارها حياة الناس مؤثرا عليهم مخاطر الليـل وصحبة الذئاب (٥) .

— ٧ —

ولكنه الحنين الى الماضي . وهذا الحنين هو الينبوع الذي يستقـي منه ابن دريد ايقاع عاطفته. شعور بالنأي والذهاب (٦)والاندثار في غور الزمن . ومن المألوف ان يكون هذا الشعور محورا في تجربة رجل عـاش قرنا كاملا او كاد : وكان حس الماضي في وجوده ، شعورا جازفا بالزمـن هذا التغير الازلي الذي سلط على كل شيء . وحين يكون الماضي صورة للحياة السليمة فان كل تغير يعني الفساد ، فلا ريب ان الحياة فـي البدء تحمل البراءة والعنفوان ، ومثلما ذهب الزمن بالعصور الجميلـة يذهب ايضا بالطفولة والشباب . وكل ما تلمسه يد الزمن يغيض بعـد التفتح وينحدر (٧) كان الزمن سقوط وانهيار (٨) .

وما يؤسينا من الزمن انه ينتهب الجسد اولا ، ونحن لا نستطيع شيئـا دون فتوة الجسد . فمنذ ان يبدأ الجسد بالذبول تضمحل فينا القدرة على الاستمرار في الرغبات الحارة ، وتخمد كل صبوة حقة ، وتـذوي مسرات الحياة (٩) .

ونحن نعيش تجربة الزمن في كل يوم ، ولكننا لا نكتشف المأساة فيها الا عندما يبدأ الانحدار . فثمة احساس بالعبودية يغزونا آنئذ ، ويسكب في جوانحنا كآبة حزينة تصبح مع الايام نسيج وجودنا . والعبودية اننا لا نستطيع ردا لهذا السقوط المروع ، فان ما يستبد بالكائنات فيبليهـا يستبد بنا ايضا ويورثنا الانهيار . والشيخوخة رمز لهذه الوراثة البائسة.

غير اننا نرفض الهرم ، لا لاننا نحب الحياة الحارة فحسب ، بل لان تقدم السن يحمل الينا نضجا في فهم الحياة وتذوق مسراتها . ولكننا نرى الابواب موصدة ، تقرعها يدنا المعروقة دون طائل فلا نملك الا الالم الصارخ (١) .

ونحن — مع ذلك — نحتمل الالم في صبر وعناد ، لاننا لا نحب اليأس فثمة في النفس بقية من عنفوان الماضي (٢) تعيد الى حياتنا املا بالعودة ... ولكنه امل مضطرب لا يحمل من اليقين الا ما تحمله ايماضة البـرق للارض العطشى ، مجرد وعد لا اكثر (٣) .

امام هذا الامل تقف الحقيقة الصعبة . ان عذاب الجسد هو اشارة الى النهاية (٤) . فالموت هو المصير المرتقب . ومهما يكن في الموت مـن حكمة ، فانه بغيض الينا . اننا نرفض الموت مهما يكن معقولا . واذا كان الزمن يلوح لنا ابدا بهذه النهاية الفاجعة ، فاننا نعرف انها حكمة الزمن . ففي طبيعته انه يحمل الفساد والبلى . ولكنه في الوقت نفسه يحمل الينا الحياة ، وهي حياتنا نحن نستطيع ان نصنع منها ما نريد . ومن العبث ان نطمح الى‌تبديل الزمن كقدر عات نهايته القبر ، ولكننـا قادرون على الزمن الذي نحياه : ان نغنيه بالتجارب القوية والمسرات العميقة ، ان نخلع عليه المعاني الانسانية التي تزخر بها صبوتنا الـى الحياة ، ونوشيه بجميع الالوان الجميلة ..

ومن اجل هذا نحرص على الحياة حتى النهاية ، ونحاول ان نقهر الموت بشهوة الحياة المستمرة في كياننا ولو خذلنا الجسد (٥) .

الرغبة الحارة . ذلك هو الينبوع « الانساني » الرائع الذي يجعل الزمن كله نهارا صاخبا بالنشوة مترعا باللذات ، لا تمتد اليه كآبـة الغروب . والرغبة الحارة هي العنفوان . وهو دائما في البداية ، حين يكون كل شيء فتيا جامحا بريئا ، غير مكترث بتعاقب الليل والنهار ، بعيدا عن احزان القدر ..

وفي سبيل هذا العنفوان نلتفت الى ذكريات الماضي في شغف وحنين، ويغبطنا ان الحياة كانت لنا ذات يوم وان الجدول ما يزال على ترقرقه العذب ..

— ٨ —

اننا نقهر الموت بمقدار ما نملأ حياتنا جيدا ، وما نصنع من الذكريات الجميلة ، وسبيلنا في ذلك هو النشوة في شتى آفاقها الرحيبة ، نشوة الجمال والحب (٦) ونشوة الخمر (٧) والصداقة (٨)والغبطة التـي يهبنـا

(١) فان سمعت برحى منصوبة المحرب فاعلم انني قطب الرحـى
وان رأيت نار حرب تلتظـي فاعلم باني مسعر ذاك اللظـى
خير النفوس السائلات جهرة على ظبات المرهفات والقنا ..
(٢) هم الشناخيب المنيفات الـذرى
(٣) هـم البحور زاخر آذيهـا
(٤) الا بقايا من اناس بهم الى سبيل المكرمات يقتدى
(٥) وردته والذئب يعوي حولـه
(٦) وغاض ماء شرقي ، وآض روض اللهو .. وضرم النأي المشت ..
(٧) ان الجديدين اذا مـا استوليـا على جديد ادنياه للبـلى
(٨) . . . . والزمان مولع بشت ملموم وتنكيت قوي
(٩) ارمق العيش على بـرض فـان رمت ارتشافا رمت صعب المنتشى

(١) شجيت لا بل اجرضتني غصـة عنودها اقتل الي من الشجى
ان يحم عن عيني البكا تجلدي فالقلب موقوف على سبل البكا
(٢) فكـل ما لاقيتـه مغتفـر في جنب ما اسأره شحط النوى
(٣) شيـم سحـاب خلب بارقـه وموقف بين ارتجـاء ومنـى
(٤) اذا ذوى الغصن الرطيب فاعلمن ان قصاراه نفـاد ومنبى
(٥) ازاجـع لي الدهر حولا كاملا الى الـذي عـود ؟...
(٦) ولاعبتني غادة وهنانـة تضني وفي ترشافها برء الضنـى
كأنما الصهباء مقطوب بهـا ماء جنى ورد اذا الليل عسا
(٧) يارب ليل جمعت قطريه فـي بنت ثمانين عروسا تجتلى
(٨). . . . « ما زاع قلبي عنهم لا هنا »

اياها سحر الاشياء في العالم (١) .

وعندما نحسن الحياة الحارة يكون الموت فاتحة طبيعية لا يأسف المرء امامه على شيء ، لانه خاتمة المطاف (٢) .

ولكي نستطيع مثل هذه الاستجابة الفنية لنداء الحياة ، نتوسل بالحاسة الانسانية ، ونؤمن بها . وليست الحاسة سبيلا للاستمتاع بالحياة فحسب ، بل هي ايضا فعاليةٌ فذة تنسج لنا الصور المبدعة ، وتصنع ايقاعا عذبا لكل ما في الوجود من اشياء . انها تترجم الالوان والاشكال والاصوات الى عالم رائع من الكلمات والاخيلة والالحان ، هو الشعر . ومن دون الشعر يلبث العالم باهتا جافا لا حياة فيه .

والشعر هو الكلمة . وعلى الرغم من ان التجربة هي التي تنسج خيوط الالهام الشعري ، فان العبارة هي كل ما في الشعر . فالتجربة تضمحل وتزول ، اما العبارة فانها باقية ابدا . شأنها في ذلك شأن كل حقيقة تفرض نفسها على الزمن ، وتقهر الفناء بالاستمرار عبر الاجيال ... ذلك انها ليست للشاعر وحده ، بل لجميع الاخرين : انها جانب من التراث الانساني الذي تحميه الجماعة كما تحمي اقدس الاعراف ..

ولكي تبلغ العبارة هذه المكانة من الصيانة والرسوخ ، يجب ان تحمل شيئا من خلود اللغة التي تصدر عنها ، ان تكون صيغة جديدة متينة السبك جديرة بالبقاء الى جانب جميع الصيغ اللفظية التي يفصح بها الناس عما يريدون ..

والكلمة ــ في حياة العرب بصورة خاصة ــ ليست وسيلة للاداء فحسب ، بل هي ثمرة يانعة للابداع الشعري . ان مصدرها هو الخيال المحسوس ومن ثم فهي تجربة فنية عاشها الشعب خلال اجيال ، فهي صورة اكثر منها رمزا .

وقد كرس ابن دريد حياته لدراسة الكلمة ، ليس كنحوي فحسب عالم في اصول اللغة ، بل كشاعر وجد في حياة الكلمات والصيغ الجديدة التي يمكن ان تصنع (٣) منها ، استمرارا للتجربة الفنية في حياة الشعب. ولعله ان يكون قد تلمس في ذلك سبيلا لما هو ابدي في وجوده الزائل. والصيغة المبدعة التي يمكن ان تضاف الى تراث الامة ، تحمل دائما ما تحمله الكلمات الحية من طابع الابدية . ان قضية الانسان في تجربة ابن دريد ان يقهر الزمن على نحو او آخر ..

ــ ٩ ــ

احيانا يرى الانسان نفسه في موقف حاسم . يطلب الحياة في شغف واصرار ، ويصبو في الوقت نفسه الى التحرر من ربقة الزمن . ولكن تجربة واحدة تضعه جانبا ، وترغمه على الانعطاف بكل حياته في طريق جديدة . ذلك حين يقف فجاة امام المأساة وجها لوجه ، في حادثة غير منتظرة توقظه من غفوة الاستسلام للقدر ، وتضع كل جدارته بالحرية موضع التساؤل : هل يستطيع ان يبدل شيئا ؟ ان يجعل بقية حياته ذات معنى انساني بليغ يتحدى حكمة الاقدار ؟ اذا أهين مثلا او هدده الموت قبل الاوان او فقد شخصا عزيزا او تأججت في صدره شرارة حب عظيم ، او ايمان جارف بحقيقة كبرى .. وقد يصحو في هذا الموقف على الواقع الحزين كما يصحو المغرور على حقيقة نفسه ، كان يظن انه كل شيء فاذا هو ذرة من الرمل تتقاذفها عواصف الرياح ..

ولكن هذه اليقظة لاتعني شيئا ، فقد تكون بداية استغراق جديد في غفلة الحياة ، فرارا من تحدي الزمن ، وخوفا من النهاية . وفي بعض الاحيان تكون هذه اليقظة بداية حياة جديدة ، عندما تنتفض ثمة ارادة صارخة تبعث في كيان الانسان نزعة المقاومة وتفرض عليه قضيتها وقدرها وتشعره بان حكمة الزمن هي مجرد عبث عابر ، وان الحقيقة الراسخة هي مايصنعه الانسان من نفسه ، ومن ثم يكون التمرد رمزا للانعتاق والتحرر ..

ولكنه تمرد يائس مداه هذا الجدار الاصم الذي يقف اخيرا في وجه كل ارادة انسانية : الموت .

فالبداية اذن هي في تحدي الموت الذي يريده الزمن . ولكي يستطيع الانسان ان يختار قضيتين في الحياة ويعلن في جرأة عن معناها الانساني يجب ان يختار موته : ان يصنعه على النحو الذي يريد . ان كل مصير يختاره الانسان الحر يحمل تصميما معينا على موت مبكر . انه برفض الاستسلام والشكوى (١) لان المأساة لم تعد في الرضوخ لقدر دخيل

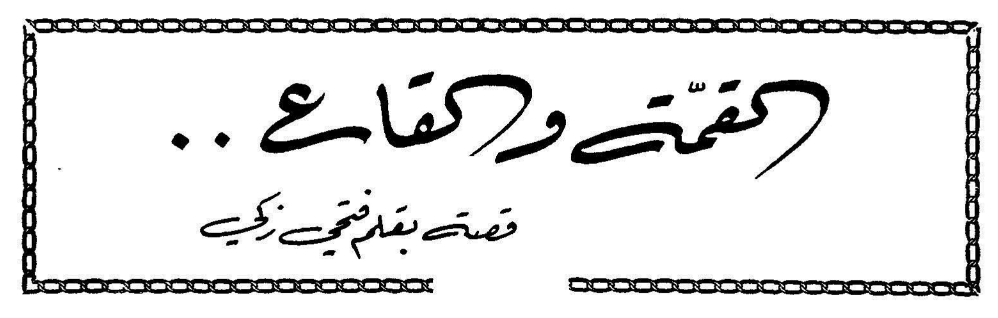
ــ التتمة على الصفحة ٧٨ ــ

(١) لاتحسبن يادهر اني ضارع ..

(١) تحتل اوصاف الطبيعة القسم الاكبر من ابيات المقصورة .

(٢) فان أمت فقد تناهت لذتي وكل شيء بلغ الحد انتهى

(٣) وممن الف الكتب في زماننا فرمي بافتعال العربية وتوليد الالفاظ وادخال ماليس في كلام العرب في كلامها ابو بكر بن دريد صاحب الجمهرة. الازهري ــ مقدمة كتاب التهذيب في اللغة .



اخيرا جاء الصباح . كانت بالنسبة له ليلة قلقة . كم اخذ يتحسس جيبه الايمن في الظلام .. وهو يتقلب على السرير الخشبي الذي يصر المعلم دسوقي صاحب فندق السعادة في شارع كلوت بك ان يغطيه ببطانية كالحة لايهام الزبون انه سرير مريح .. لاتجد مثله في ارقى لوكاندات شارع ابراهيم باشا .

ومع ذلك فلن تكتشف السر الا بعد ان تضطرك الظروف السيئة الى ان تقامر براحتك وتقصد الى لوكاندة السعادة في اخر الليل . هناك ستجد بلية ينتظرك بابتسامته محييا وهو يذوب شوقا الى اللحظة التي تخرج فيها الثمانية قروش .. اجر المبيت . عندئذ فقط ستتحول ابتسامته الكاذبة الى خطوات مهرولة .. يصعد بها السلم الخشبي المتآكل .. ليقودك الى مقرك الاخير .. بعد يومك المتعب .. قبل انتفكر مليا .. وتنظر الى المكان بامعان .. وتوشك ان تخونك الشجاعة .. فتهرب من حيث اتيت . وما ان يفتح باب الحجرة حتى يشير الى احد الاسرة المهجورة وهو يتمنى لك ليلة مريحة في الفراش الوثير .

عندئذ ستندم ندما شديدا على هذه المغامرة الفاشلة .. وعلى الثمانين مليما .. وستكتشف انه كان خير لك ان تمضي الليل في قهوة المحطة .. بواحد شاي .. عند بوسا الجرسون الامير .. مادام النوم متعذرا على اية حال !!

ولكن اغلب زبائن هذه اللوكاندة لايمارسون الملل مثلك .. فقد مضى عهد طويل منذ ان قطعوا صلتهم بهذه العادة المتعبة . انهم تعودوا هذه النومة .. والفوا صوت المعلم دسوقي وهو يصيح في اي منهم في الصباح .. لو انه اطال اغراق رأسه بالماء .. كما اعتادت ابدانهم على قسوة خشب السرير الحنون .. وهكذا يستسلم الواحد منهم الى نوم لاشيء فيه .. ولا احلام ..

ولكن الليلة الماضية كانت بالنسبة لبنيامين .. ليلة قلقة ومبعث قلقه لم يكن الحشرات التي نخرت اخشاب الاسرة ويحلو لها بالليل ان تخرج من الاعشاش .. لتداعب الاماكن الطرية من اجساد الزبائن . لا .. انه كان طول الليل يتقلب على جنبه الايمن والايسر .. وهو ينظر الى حسين ملوخية بارتياب .

نعم .. فان بجيبه مبلغا ماكان يحلم مرة ان يمتلكه في يوم ما . ان بجيبه خمسة وسبعين قرشا كاملة .. اوه يالها من سعادة ان يمتلك الرء مثل هذا المبلغ الكبير .. فماذا لو قلق ملوخية بالليل .. وقام يبحث فيجيبه عن سيجارة كالمعتاد . ولطش المبلغ او شيئا منه ؟

وظل طول الليل يبتسم وهو يتذكر كيف حصل على هذه الثروة من الدكتور ارتين . فالحكاية صدفة . احقا ماحدث ام انه يرى في خياله فيلما سينمائيا لايمت بصلة الى واقع عالمه الذي ظل يحياه خمسين عاما ذاق فيها الكثير .. الكثير ؟! . فانه ماكان يستطيع مهما فعل وجاهد ان يحصل على هذا الرقم القياسي .

كان المساء قد اوشك ان يختم قصة تجواله بالكتب والمجلات القديمة ككل يوم بقروش زهيدة ـ على احسن الفروض ـ يستطيع بالكاد ان يستبقى منها الثمانين مليما اجر المبيت بعد ان يلهف طبق الكشري من عربة الواد ابو سنة .. ويكمل باقي فراغ بطنه بالماء .. ثم يدخن له سيجارتين مع فنجان الشاي بالحليب في قهوة فؤاد الكبرى ..

نعم .. كانت الليلة توشك ان تنتهي كالمعتاد . ولكنه كان يشعر بالاطمئنان نوعا ما .. وبالثقة في انه سيجد اجر المبيت وثمن العشاء . فالليلة ليلة الاحد .. وبيده ثلاث اعداد قديمة من مجلة رومانتسو وبيساروس التي عود الخواجا كارلو ان يشتري منه بعضها مساء كل سبت ..

وهكذا قام في الساعة السابعة ليتجه الى قهوة عماد الدين .. فهناك سيجد الخواجا كارلو كما عوده .. وسيسكت الذئب الجائع في اعماقه طالبا طعاما .

ولكنه لم يجده كما توقع .. وتهشمت آماله وتلاشت وهو يبعثر نظرات مجنونة قلقة في انحاء المقهى . ودار في المكان مرات وهو لايصدق عينيه .. موش معقول ؟!! وسأل عنه الجرسون بلهفة .. فاجابه وهو يسير بالطلبات في يده مسرعا « مجاش كارلو ياخبيبي » ثم سار وراء الجرسون واخذ يرطن معه بلغته اليونانية .. وكأنه يستجدي منه أملا باحتمال مجيء كارلو الليلة .. ولكن الجرسون تركه .. وذهب لحاله يبتسم لزبون جديد ..

ثم ذهب يبحث عنه في المقاهي المجاورة . كان يدخل المقهى بعد الاخر وهو يقول « ربما وجدته هنا » . وتأخذ نظراته وهو عند الباب تجري بين الموائد وتجري ..حتى تعود الى حيث يقف لاهثة .. يائسة ..

واخيرا عاد الى مقهى عماد الدين .. ووجد بعض اصدقاء كارلو هناك .. فتجرأ وسأل احدهم .. فقال له وهو يضحك من ذقنه الطويلة ... وملابسه المتسخة . ان كارلو ذهب الى السينما مع زوجته . وعندئذ ذابت بقية الامل في صدره في بحر من العدم .. واحس انه يغرق .. وخارج المقهى .. جلس على الرصيف يتذوق مأساته الحمقاء . حقا ليست هذه هي المرة الاولى التي لايجد فيها اجر المبيت وثمن العشاء . ولكن .. ان يجد نفسه امام المشكلة بعد ان خدعه امل كبير ..

انه قد خلف من ورائه في الطريق خمسين عاما جائعة شريدة ... لم يشعر في يوم منها بشبع الاستقرار وحلاوته . كم حرفة زاولها في صباه وشبابه .. حتى انتهى به المطاف في كهولته الى الطواف في شوارع القاهرة بالكتب والمجلات القديمة .. كمن يستجدي حظه البخيل .. بعد انعجزت الاثنتا عشرة لغة التي يتكلمها بطلاقة ان توفر له الحياة ..

ان الاتون الذي انصهر فيه جعل منه فيلسوفا .. وانه لمقبل في اوقات فراغه على قراءة المجلات والكتب التي يشتريها من سور الازبكية من عند المعلم زغلول .. قبل ان يبيعها .. لقد اصبح اخيرا بعد هذا المشوار الطويل العقيم كاحدى هذه المجلات القديمة التي يبيعها مجلة

قديمة تساقط فوقها عرق السنين واتربتها .. ولكنها مفتوحة لكل ناظر .. يقرأ فيها خلاصة مأساة دولية .. هو عنوانها المكتوب بالخط العريض . نعم انه ليس الا الطفح الجلدي الظاهر لمأساة تاريخية دفينة بدأت بمطامع حقير من رجال التاريخ يدعونه السلطان عبد الحميد كانت له مآرب في ارمينيا .. انتهت بحرب اتت على قومه .. ومات فيها ابواه وهو رضيع .. ثم تقاذفته موانىء البحر الاسود والاحمر والابيض. حتى رسا اخيرا في مصر منذ ثلاثين عاما دون ان تدري اي سلطة في العالم .. بوجوده على قيد الحياة ..

وازداد صراخ الجوع المفترس في داخله وهو يجلس على الرصيف .. واحس بانيابه تدمي جوفه .. وشعر انه يوشك ان يموت من الجوع . وذكره هذا الاحساس ثانية بابيه وامه . فقد حكى له انهما ماتا من الجوع ايضا في الحرب الاهلية بين ارمينيا والسلطان عبد الحميد مع ان الناس في مصر يقولون على سبيل الاستحالة : هو احد بيموت من الجوع ؟!.

واخيرا قادته خطواته الحيرانة الى سور الازبكية .. للمرة السبعين. فليس امامه الا ان يرجع المجلات للمعلم زغلول .. ويعتذر عن عدم قدرته عن البيع اليوم . معلهش .. سيسمع من المعلم كلمات نارية يقذفها في وجهه في نشوة وهو يهين كرامته .. ولكنه سيذهب بعد ذلك ليبحث عن طريقة اخرى غير بيع المجلات . للحصول على طلبات الليلة .... فاحيانا يكون مع حسين ملوخية مايكفي حاجته ويزيد ..

وهكذا اقدم على تنفيذ الفكرة . وامره لله .. وهو يحاول ان يهيىء نفسه وحواسه لكلمات زغلول ونظراته الوقحة ..

ولكن حدث هناك ما لم يكن يتوقعه .

فان نظراته المتعبة وقعت على عنوان ذلك الكتاب الذي كان الدكتور ارتين قد اوصاه مرارا بالبحث عنه . وكلمة من هنا وكلمة من هناك .. استطاع ان يقتلع الكتاب من المعلم بالثلاثة قروش التي كانت كل ما معه عندئذ .

وحمل الكتاب تحت ابطه مع المجلات .. وهو يحتضنه بحنان امنياته المتواضعة . ان كل امله ان يعطيه الدكتور ارتين خمسة عشر قرشا يحل بها ازمة ليلته .. لقد قال له ارتين كثيرا واوصاه مرارا بالبحث عنه .. فهل خمسة عشر قرشا بالشيء الكثير ؟!

ولا يدري كيف وصل الى الاجزخانة بالظاهر قبل ميعاد غلقها . انه لايذكر . هل ركب الترام ؟.. ام الاوتوبيس ؟.. ام حملته قدماه ؟.. ام طار به امله ؟!.. ذلك مالا يستطيع ان يؤكده .

كل مايذكره انه عندما وصل .. قدم الكتاب للدكتور بابتسامة ... وتلقفه الدكتور منه بابتسامة ايضا بعد ان فتح عينيه من خلف نظارته السميكة .. ونظر اليه كمن لايصدق .. ثم فتح درج البنك واخرج له جنيها كاملا .. فالتقطه بنيامين دون كلام . ولكن ..لماذا كان ارتين اللئيم يبتسم بمكر ؟!.. لابد ان الكتاب يساوي لديه اكثر من جنيه !. على اي حال فان بنيامين اسرع بالهرب خارجا من الاجزخانة .. قبل ان يرجع الرجل البخيل في كلامه ..

وكاد عقله ان يطير .. وهو يضع النقود في جيبه لاول مرة . اهكذا تهبط الثروة كما يحدث في افلام السينما ؟!.

وخرج الى الطريق .. وهو يحس ان الارض تهتز من تحته . كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء .. وكان كل شيء قد تغير في نظره . الهواء خف على صدره والانوار اصبحت تتراقص في عينيه ..

وازدادت حلاوة النساء لدرجة لم يحس بها من قبل وانقلب كل شيء من امامه الى رقصة مرحة .. كم هي سعادة ان يمتلك المرء كل هذا المبلغ حتى لو لم يفعل به شيئا . يكفي ان يضع يده على الورقة الخضراء حتى تعرق في جيبه ويشعر لهذا بامتلاء وثقة !! .

ووضع يديه في جيبي بنطلونه .. وسار على مهل في الشوارع الراقصة الاضواء .. وقد انعكس رقصها في سيره المتباطىء . كان يجود بابتسامته على كل شيء .. فقد كان يحس بالحرية تسري في كيانه . وتوقظ احاسيسها شامخة .. ان بجيبه جنيها كاملا .. يستطيع ان يفعل به مايريد . اذا اراد ان يدخن فلن يضطر ان يبتسم في وجه ملوخية .. ويقول له في كل جملة ياملوخية بيه .. حتى لاينساه وهو يخرج من جيبه علبة الهليود .. ولن يضطر ان يقف ذليلا امام فترينة فؤاد ليعطيه الرجل سيجارتين لورج بالشكك .. فان لديه نقودا .. نقودا اكثر مما يلزمه . وستحقق له الحرية الليلة ..

وسار يمضغ سعادته الجديدة في بطء .. ويشعر لمذاقها بنشوة تتراقص لها كرات الدم في عروقه .

ومرت امامه امراة جميلة ... اخذ يلتهمها في ثقة من يملك في جيبه عشرة جنيهات .. انها جميلة .. وكل قطعة من جسدها تغنى مقطعا من اغنية حب جميلة ...

ولكن المراة اختفت في الطريق .. ابتلعها تيار الناس قبل ان يفيق من سماع كلمات الاغنية .. ولكن لم تنج امراة بعد ذلك من نظراته المتعبدة ..

وخيل اليه ان الجميع يبتسمون له ويضحكون في وجهه .. واحس انه قريب منهم كما لم يكن في حياته من قبل .. الا يملك في جيبه جنيها ؟!... انه متاكد ان بعض الذين يرتدون ثياب الافندية لايملكون مثل هذا المبلغ . فقد مر عليه من قبل افندية مناظر كثيرون .

وتذكر ملوخية مرة اخرى .. انه يستطيع الان ان يمارس احتقاره له دون خوف .. فهو ليس بحاجة اليه .. فان بجيبه نقودا . ولن يضطر الليلة ان يجلس معه في القهوة ليستمع له وهو يحكي .. في غير قليل من الزهو والتظاهر اخبار مغامرات ماضيه العجيبة منذ ان كان مشخصاتي عند منيره المهدية .. يغني على المسرح بملابسه الخضراء .. وكيف انه كان يمارس اخر كل ليلة اللذة مع زميلاته .. ويعيش كهارون الرشيد ..

ومع انهم يعرفون جيدا ان الحال قد انقلب اخيرا مع ملوخية ..فاصبح ياخذ اللذة في ظلام الليل الى بيوت غيره من الراغبين .. ويعود اليهم وفي جيبه ثمن المشوار .. الا انه يستطيع ان يتظاهر امامهم بالفروسية والعظمة .. وكل سلاحه في اخضاعهم هي علبة الهليود التي يمر بها عليهم وهو يجلس ليحكي اسطورة ماضيه التي يستر بها تهتك حاضره .

ولكنه الليلة لن يضطر الى سماع الاكاذيب .

ولم يدر ـ وهو يسير مع خواطره في الطرقات ـ ماذا يفعل بالجنيه . كانت به رغبة في ان يحقق به كل مايمكن من المتعة . انه لم يكن يحلم ان تهبط عليه هذه الثروة .. وقد جاءت على غير انتظار .. فلماذا لاينفقه دون اسف في اي شيء يعود عليه بمتعة لم يكن قد جربها من قبل ؟!.

وسال نفسه وهو يسير مختالا : ماذا يريد ؟!. ولكنه لم يعرف ماذا كان يريد ! لقد تاه في زحمة الاشياء الجميلة التي يراها في الشوارع الضاحكة .. ونفسه تشير الى كل ما حوله : اريد هذا .. اريد هذه ..

ولم يكن قد فقد عقله تماما حتى يظن انه يستطيع ان يلبي كل طلبات نفسه الظامئة بالجنيه . حقا انه مبلغ كبير .. ولكن هناك ما هو اكبر

من الجنيه . فكان عليه‌ان يختار من بين الرغبات اوفقها واحلاها .

وبحث عن الجوع الذي كان يستبد بامعائه منذ ساعة .. ولكنه لم يجده . كان يشعر بامتلاء وزهد في الطعام لم يألفه من قبل . وهكذا ظل يسير ثلاث ساعات دون ان يتحرك الجنيه من موضعه في جيبه !!.

واخيرا وجد نفسه في قهوة فؤاد . واعطى بائع السجاير ما عليه من دين .. واخذ علبة جولد صغيرة .. كما اعطى بائع البسطة التسعة قروش التي كان يدينه بها .. ثم شرب الشاي .. ودخن سيجارتين .. ومع ذلك بقي معه ما يزيد عن الثمانين قرشا وعلبة سجاير بها سبعة سيجارات . واخيرا قادته قدماه .. بحكم العادة .. الى لوكاندة السعادة .. وهناك ظل يتقلب طول الليل من القلق والخوف من ان يقوم ملوخية .. ابن اللئيمة .. بالليل ويسرق شيئا من ثروته الطائلة .

الى ان سمع قبقاب المعلم دسوقي صاحب اللوكندة يزأر في ظلام السلم متجها الى دورة المياه .. فعرف ان الفجر قد اقبل . واحس بكره غامض للمعلم .. الرجل الخسيس .. الذي يصر .. رغم كل شيء ان يفتتح اليوم بالصلاة ... وتمتمة آيات قرآنية .

ثم سمع خشب السلم المتآكل يئن تحت وقع خبطات قبقاب المعلم التي يتحرك معها بدنه الضخم . واحس بنيامين بأنين السلم يؤلمه .. ويهيب به ان يسرع خارجا من هذه المقبرة .. ولا يرى وجه احد .. وقبل ان يسمع صوت دسوقي الكريه وهو يبدأ حملة الزعيق .. وقبل ان يتبادل الشتائم مع الزبائن الساخطين لانه بعد ان يتوضأ يقفل محبس الحنفية حتى لا تنزف الا قطرات .. كأنها دمه يجود عليهم في سخاء حاتمي . فاذا احتد معه احدهم فانه يقول في غطرسة وثقة :

ــ اللي مش عاجبه يوريني عرض كتافه .. وميجيش تاني

فانه متأكد من مجيئتهم ثانيا وثالثا !

ولماذا ينتظر حتى يلتحم مع دسوقي في خناقة قد يستفحل امرها اليوم .. فانه لن يقدر ان يصبر على وقاحة المعلم . ان في جيبه نقودا .. فلماذا يحتمل اهانة هذا الرجل الخسيس ؟! . وهو ايضا يريد ان يهرب بجلده قبل ان تصحو فرقة الذئاب .. وتلتف حوله .. وتبدو عليه مظاهر الثراء .. ولا يستطيع الافلات منهم سالما . وفوق هذا فانه يريد ان يعرف كيف يستقبل الصباح من يملك ثمن افطاره !!

وعندما تمطى الصبح باشعته من خلال النافذة بعد قليل .. صعد بلية الى الغرفة وصاح بصوته الذي يستمد قوته من غطرسة المعلم دسوقي وفظاظته في بقية النائمين .. فاضطروا على مضض الى القيام . وفرك ملوخية عينيه المنتفختين في تثاؤب وهو ينظر بجواره الى فراش بنيامين. فلما لم يجده طار النوم تماما من رأسه وفاق .. فسأل عبده عنه في صوت يختلط فيه القلق بالخوف والرغبة في التدخين. فاجابه عبده في ملل .. ونظراته تلعن الصباح الذي يضطره للقيام :

ــ محدش حس بيه الليلة

ــ يكونشي داسه اتومبيل يا وله ..

ــ واللاخدوه تحري ...

ــ مين عارف ؟!

وعند دورة المياه اصبح بنيامين حديث الكل . انهم لم يحسوا به الليلة الماضية .. والواد بلية يؤكد ان شخيره البركاني كان سيهدم سقف اللوكاندة .. ورجحوا ان يكون عسكري الطوف قد اخذه تحري وهو يعود بالليل الى اللوكاندة ..

ولكن بنيامين عندئذ كان يجلس في مقهى بسوق التوفيقية وهو يمارس احساسه العذب بالفرار من اولئك الفجر .. وينتشي وقد احس بالحرية . فهنا لا احد يعرفه .. ولن يقيد تصرفاته نظرات ملوخية ... ولن تترقب حركاته فقشات الاعرج .

وسبح لحظات في سعادته الجديدة .. لن يذهب اليوم الى السور ليأخذ مجلات من المعلم زغلول .. ليلف بها ويدور على الزبائن في المقاهي .. فانه منح نفسه اليوم اجازة من العمل .. كأحسن موظف .. محدش احسن من حد !

ولما احس بالملل من جلسته قام من المقهى بعد ان دفع ثمن الشاي وترك للجرسون بقشيشا جعله يودعه بنظرات تعجب ... وذهول .

ثم سار في الشوارع مرة اخرى.. واحس بالجوع. ولكنه لم يرد ان يأكل اي شيء يقابله كما كان يفعل من قبل ... فانه كان يسأل نفسه : ماذا يأكل ؟! كان يريدان يأكل شيئا شهيا فان لديه نقودا ... وانه ليستطيع بها ان ينال ما يريد .

واخيرا طرأت له فكرة : لماذا لا يأكل كبابا في افخر مطاعم القاهرة ؟!. فان بجيبه الان ستين قرشا او يزيد .. ولن يساوى غذاؤه في مطعم الشيمي مثلا اكثر من ثلاثين قرشا بعد دفع البقشيش للجرسون .. كأحسن زبون .

ولكنه عاد فاحجم عن الفكرة . فان هذه الاكلة ستقوض ثروته .. وسيعود شحاتا كما كان . وعلى اي حال فان المثل يقول « عشوة ليلة متقومش بهزيل » . ولكن الرغبة المجنونة عادت تعوي من جديد في داخله . فان متعته التي يبحث عنها ليست في الطعام في حد ذاته .. بل في الجلوس في المطعم .. مثل باقي الزبائن المحترمين .. واستنشاق طعم المكان النظيف .. ورؤيته لاصحاب الوجوه النظيفة وهم يأكلون طعامهم في هدوء وهمس .

كان يريد ان يجرب هذه السعادة ولو لمرة واحدة .. والا فما فائدة النقود التي بجيبه والتي حصل عليها دون توقع ؟!. ربما لن تتاح له فرصة اخرى. قد يقولون عنه بعد ان يعود اليهم مفلسا كما كان : افرع ونزهي .. ولكن لا يهم كل هذا بجوار ما سيحصل عليه من متعة التجربة .

ومرت ساعة .. اخذ يناقش فيها المسألة بكل احتمالاتها .. وقيمة الستين قرشا الباقية في جيبه تتضاءل .. وتتلاشى كألسنة البخار بجوار النشوة التي اخذ يتوقعها من ممارسة حقه في دخول المطعم الفاخر .. كأي جنتلمان يصطحب حبيبته او زوجته الى ذلك المكان .. فانه سيصطحب الى هناك حرمان خمسين عاما .. وستذوب مع اللقيمات الدسمة كل مرارة ايامه الممزقة .

واحس قليلا قليلا انه يصعد فوق قمة جبل من النشوة .. تاركا من وراء كل ما كان يعلق بخاطره منذ لحظات من خوف على ضياع بقية ما معه من نقود ليعود شحاتا كما كان . واحس انه قريب من القمة فالمطعم على بعد خطوات من موقعه .. والنقود بجيبه .. وليس امامه الا ان يتقدم خطوة فخطوة .. حتى يجد نفسه جالسا في المطعم يوزع على الجالسين من امامه وبجواره نظرات تعارف يملؤها الاحساس بمشاركة الطعام.. الفة وزمالة واخوة .. والجرسون في ملابسه البيضاء ووجهه الاسمر اللامع ينحني له في احترام ليسأله وهو يبتسم عما يريد من طعام حتى لتظهر اسنانه البيضاء كنجوم منيرة في ليل وجهه الاسمر.

ونقدم .. واخذ يرفع قدميه وهو يملأ صدره بانفاس واثقة .. فقد اصبح قريبا من تحقيق هدفه ، ليس امامه الا ان ينحني يمينا في

الشارع المقبل .. ويسير بضع خطوات حتى يصل الى كشك السجاير الذي هناك .. ويجد نفسه امام المطعم يدعوه في ترحاب .. وما ان يدفع الباب دفعة بسيطة حتى يسرع الجرسون الذي يقف بالخارج ليكمل فتحه له .. ويقوده في ادب واحترام الى احدى الموائد الخالية ... ولن ينسى ان يكافئه ببقشيش لا باس به

وبعد لحظات كان قد وصل الى كشك السجاير .. وظهر المطعم الانيق في الضفة المقابلة من الطريق يزهو باناقته .. وابوابه الزجاجية .. ولم تستطع العربات التي كانت تمرق في انسياب ان تمنع عينيه عن رؤية بعض ما بدا بداخل المطعم.

فعلى المائدة القريبة من النافذة الزجاجية كان يجلس شاب مع حبيبته .. ياكلان في ابتسام . كانت هي تمضغ اللقيمات في تذوق هادئ .. وعيناها تنظران الى الطبق في خجل .. وكانت نظراته هو تمضغ جمالها الخجول في نشوة سعيدة .. كانا فوق قمة الجبل ، لا يشعران الا بسعادتهما .. وتمنى لهما بنيامين مزيدا من السعادة .

واستطاع ايضا ان يرى الجرسون .. بحزامه الاخضر .. يسير بين الموائد كراقص رشيق حاملا الاطباق الشهية للجالسين في انتظار .

ورأى وهو يقف مكانه في الضفة المقابلة .. حارس الباب ينحني لاحد الزبائن وهو يخرج بعد ان يضع في يده ورقة نقدية . وانساب الى اذنيه لحن جميل .. من فتحة الباب . فالموسيقى تعزف اذن داخل المطعم.

ثم بدأ يعبر الطريق . الخطوة الباقية التي تصعد به فوق قمة الجبل .. واللحن الجميل ينساب من اعماقه .

وكانت نظراته مشدودة الى الباب الزجاجي .. وحواسه كلها مركزة في فتحته الصغيرة .. الفتحة التي سيمرق منها بعد لحظات الى النشوة المنتظرة .. وكلما تقدم خطوة ازداد اللحن في اعماقه اضطرابا وصخبا .. فقد بدات تتضح له نظرات الجرسون الاسمر .. وهو يقف بالباب كحارس عنيد للجنة .

وفجاة وجد نفسه فوق الرصيف .. امام المطعم .. واللحن في اعماقه قد بلغ قمة من الصخب توشك على الانفجار ..

اما الحارس .. فقد رمقه بنظرة وقحة .. وشخط فيه .. وهو ينظر الى حذائه المزق الملطخ بالطين :

– متحاسب يا اخينا .. وسخت البلاط .

وفي غمار الصدمة لم يعرف بنيامين كيف يجيب .. شلت احاسيسه كلها .. واحس انه يهوي في بئر من الصمت المظلم . فلما وجده الجرسون يتحرك نحو الباب مد ذراعه ليوقفه :

– حيلك .. مقلنا حاسب .. عاوز ايه ؟!. اتحرك يالوح .

وازداد ارتباك بنيامين . ابعد هذا الاستقبال الكريم يستطيع ان يبوح للجرسون برغبته في دخول المطعم .. وممارسة حقه في الاكل .. كاي زبون من الجالسين في جيبه نقود ؟!.

وود بنيامين في تلك اللحظة لو استطاع ان يجيب على سيل الاسئلة الذي كان يصفعه به الجرسون اللامع الوجه .. فانه في صمته المرتبك اخذ ينظر فيما حوله .. واستطاع ان يرى صورته في زجاج الباب .

لاول مرة منذ وضع النقود بجيبه بالامس ينظر الى مظهره الخارجي .. لحيته الطويلة وبنطلونه الكالح المتسخ .. وحذائه المبرقش بالطين والاتربة .. وابتسامته المزقة تعلو ما على وجهه من صدأ

وبدل ان يصعد فوق قمة الجبل .. احس انه يهوي في قاع البئر المظلم . فقد سمع الجرسون يقول له لما راه صامتا كالجماد :

– انا عارف بتتحدفوا علينا من اين ؟!.

ثم نادى بصوته الحاد على زميل له بالداخل :

– ياعثمان .. شوف لقمة للجدع ده خليه ينجر .

واحس بنيامين بالكلمات القاسية كسكين حادة تذبح كبرياءه . ولم يستطع ان يصبر اكثر من هذا . فصاح في الجرسون .. ولكنه لايعرف ماذا قال ..

ثم انسحب عائدا يتوارى من الخجل المر الذي اخذ يسمم لحظاته المختنقة . واستطاع ان يلمح المرأة الخجولة .. وقد تخلت عن خجلها الان .. تنظر اليه في ابتسامة وقحة . ساخرة من منظره .. وشفتاها تتمتمان خلف زجاج النافذة بكلمات لايسمعها . واحس بالرغبة في ان يبصق على شيء .

وفي طريق العودة ... شعر انه متعب النفس .. وانه ضائع ووحيد. ومنذ الليلة الماضية لم يشعر بهذا الشوق الجارف الى ملوخية وبقية الاصدقاء . فاولئك لن ينظروا في سخرية منه ومن منظره الكالح .. فانهم ينظرون بقلوبهم ..

كان منذ الصباح يهرب منهم ويظن انه يستطيع ان يصعد من نطاقهم الى قمة الجبل ... وها هو يعود الان وقد ادرك شيئا اخر .. لابد ان يصعدوا معا .

وانحنى في الشارع الجانبي القريب من اللوكاندة .. عند مسمط الامراء .. واشترى من البائع مقدارا كبيرا من محمة الراس .. حرص على ان تكون كافية للمجموعة كلها .. فانه سيولم لهم وليمة .. وليمة العودة .

ولما راوه يعود حاملا بين يديه هذه الثروة من الطعام .. استقبلوه بتعاقاتهم الحادة وقال له ملوخية وهو يضربه على كتفه :

– ازيك يا بنيامين ...

ولاحقه عبده :

– يخرب بيتك .. افتكرناهم خدوك تحري زي المرة اللي فاتت ..

ثم قال ملوخية دون ان ينتظر جواب بنيامين :

– ممعاكش سيجارة بقى ؟!.

فاجاب بنيامين كمن يفيق :

– ازيك يا ملوخ .. انا بدور عليك من الصبح .. هوا انا اقدر اعيش من غيرك .. معاي سيجارة ونص .

ولم تؤلمه هذه المرة كلماتهم وقفشاتهم المريرة .. كان يشعر بها كبلسم يحنو على جرح عميق في كبريائه .. على دمل ..

القاهرة — فتحي زكي

الجليد هذي انصهر !..

في الاساطير المصرية ، ان (سيت) شيطان الليل ، قتل (راع) اله الشمس ، وبعثر جثته .. فقامت زوجه (ايزيس) وبعثته من الموت باسم (اوزيريس) بمساعدة بعض الالهة ، وبينهما (هوروس) ، ولدهما ..

تناثري ..! تناثري خصل !(*)
يا كومة مثلوجة من اللهب !!
وللمي القبل ،
والنور والامل،
عن كل عين وشَفه ،
عن سوسن أرهقه ونتفه ،
مخلب الغزل !!!
تناثري .. واساقطي شظايا ،
على دروب كلها جماجم ،
وكلها خطايا ،
وكلها دمُ ،
يلعنها الفم ،
ويبتغيها جاهل وظالم
يتيه في جمودها وعقمها ،
(سيت) اللئيم ألالأم ..
انهمري ..! انهمري ..!
يا زورقا مناقبيا طار بالاهرام صوب شعلة ،
ترعرع النيل على ضفافها ،
وفجر العطاء من جفافها ،

(*) قيلت هذه القصيدة على اثر احراق كتاب لي في الصيف الماضي

فأينعت في حضنها الزنابق ،
ونبتت مزارع الفداء ، والشرانق !!

*

... وناسك مغامر مراهق ،
تلمع فوق جيده ،
تمائم من الخرز
درزها ، درزها ، درز !!
حروفها الفستق والكرز ،
وشدوها الرجز !
له الخلود هيكلُ
تنسفه المعاول
له البقاء تبنةٌ
ترشفها الانامل !..
تهالكي ..!
وكفني السفوحَ بالسأم
وسربلي الاكم
بالليل والصقيع والالم !
ويتمي الجمال والنبوغ في بلادنا .. وحولها
نمجدي .. خالدة انت على الحقب
اسطورة بطلها شيطان !
من فكره الجمود ،

وقلبه الحقود ،
وروحه الجبان ،
نسجها الشيطان !!
يا (سيت) يا خفاش ،
يا عاهل الركود والفراغ والدجى ،
آلمك الضوء ؟
وراعك الدفء ؟!
فسرت في قافلة الاقزام ،
في موكب الضئال والصعالك ،
في موكب اللئام
لتدحروا مملكة الممالك ،
يحدوكم اليباس ،
والعقم والنعاس ،
والهول والرعب
فانعدم الخصب ،
والخير والجمال والحب ،
وذبل الزنبق ،
والفل والنسرين والحبق !
وانتصر الركب
والموت والحقد ،
والليل والبرد !!

*

يلوح لي من البعيد غيمة ،

مهيضة الجناح ،
شاحبة الضلوع والجراح ،
مفروشة على فؤاد شاعر ،
مخمش المحاجر !!
ألمح فيها نغما سلاحفيا
مثقل اللحون بالاسى وبالشرود والنواح
تقول : ـ ها اشراقة العصور ،
وحلم النسور ،
ورائد الاجيال في انطلاقها وزحفها ،
وناشر السناء ،
وباعث الضياء ،
كان .. فلم يداس ، لم تدآس عزته!!؟
تململت (ايزيس) في فراشها ،
فراشها الوثير
يغمرها السوسن والحرير ،
والماس ، والياقوت ، والزمرد !!
تململت واجهشت ..
ـ يا (راع) يا حبيب ،
يا مشعل الحرية الخصيب !
يا امسنا المجبول بالفداء ،
ويومنا المغرق في الابداع ، في العطاء،
يا غدنا المثقل بالرجاء ،
يا (راع) يا الهنا
لنا الغد ، لنا الغد ، لنا الغد !! ـ
ارجوحة الشموس قد ترمدت ،
ونضب العبير والرواء ،
وغاغل الذبول في القمر !
وانطفأ الزهر !
وخيم البكاء !!
وبعثروا جثته .. جثة (راع) بعثروا

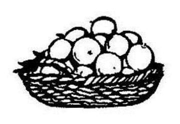
شرائحا .. شرائحا !
فمزقت (ايزيس) ،
فسطانها النفيس ،
ونتفت فراشها .. فراشها الوثير ،
والماس والياقوت والحرير !
وانطلقت ، وانطلقت سلالم الدموع،
مخمورة تلهث في خشوع :
ـ (هوروس) يا (هوروس) !
هوروس يا بني ،
هوروس يا اله ، يا بطل
يا رب ، يا نبي ـ
تطاير الشرر ،
من قلبه الاغر ،
وزمجر الاله وامتثل ،
وامتشق المنجل !!..
وانتشرت مواكب العمالقه
تعدو فرادى وزمر ،
على الذري وفي الحفر ،
على الروابي ، والتلال ، والسواقي ،
والبحار ، والشجر !!
وحصدت سنابل الركود ، والفراغ ، والدجى
والململت ، وضمدت جراح جيفة
مجرورة على الثرى ،
قد رسمت صحائفا واسطرا ،
وحفرت خنادقا .. خنادقا !!
وزحفت مواكب العمالقه
وكسرت منابر العبران ، والمشانقا .
ونفثت طلاسما .. طلاسما !
فانبثق الربيع ،

وانملع الصقيع ،
وانبعث العملاق (أوزيريس) ،
كأنه العريس !
وبعث الضياء والقمر !
وبعث الزهر ،
لانه القضاء والقدر ،
لانه الاله !!!

★

يا (راع) يا اله ،
يا مرضع الحياه !
يا (راع) يا رفيق ، يا رفيقنا
في حومة الرماد
في كل يوم قلم شهيد ،
وجبهة ومعركه !!
والم ، وامل ، جديد ،
ونهضة وفذلكه !!
لنبعث انتصارنا الكبير ،
وفجرنا الكبير ،
في غدنا الكبير !!

نجيب طالب





مثل قطار متآكل الخشب (*).. يحمل صفيره الابح كل رغباتنا ونزوات الشباب في عروقنا .. تنحدر اقاصيص زكريا تامر الى اعماق واقعنا النفسي بكل جوعه الى الطمأنينة المادية والروحية . انه تعبير عن تعبنا وفرارنا الى الحلم اليقظان والحلم المخدر تحت سياط الحاجة اللاهبة الى الخبز والى الحب .. وقد ولد قصاصنا وفي فمه هذا السؤال : « هل يمكن أن نعيش بلا حب ولا خبز؟ »
ذلك ما يجيبنا عليه زكريا في احدى بواكيره « المسرات الصغيرة » :

« اني احب الجلوس في هذا المقهى المنزوي ذي المشروب الرخيص .. فهنا يحلو لي ان اغمض عيني نصف اغماضة ثم انصت الى الصخب المتصاعد من حولي .. رنين الفرد المتدحرج على سطح الخشب الصلد ، صيحات اغنية منسابة من المذياع ، ضحكات ، كلمات تصل الى مسمعي متبعثرة :

ـ اسكت متى اصبحت تفهم في السياسة .

ـ ليتنا نستطيع ان نحيا بدون خبز .

ـ كل النساء مومسات . »

ففي هذا الحوار الذي يصدر عن اشخاص مجهولين تتناثر مشاكل شبابنا : فليس من شيء أكيد في عالم السياسة ، وخبزنا اليومي مهدد بالانقطاع .. أما المرأة فهي علة العلل في حياتنا الصخرية .. نعرفها شبحا في السينما ومومسا في غرفة معتمة .

والحب ؟ انه كآبة العمر !

ان الخبز يرمي البطل في ذل واستسلام :

« ليس هناك ما أشكو منه . اني مستسلم الى طمأنينة تكاد ان تكون بلادة .. فانا احشو معدتي في النهار ثلاث مرات من خبز ابي ... واعتصر من امي النقود التي احتاجها لشراء سجائر . » وفي قصة « الليل في المدينة » يقول : « انني افكر احيانا بنشر اعلان في الصحف بهذا الشكل :

« شاب للبيع ، عمره خمسة وعشرون عاما ، قوي الجسم ، يقوم باي عمل ، والثمن تأمين طعام يومي له ». لكنه لا يستطيع فالاعلان يكلف مالا !

او يتجسد بؤس اسرته في نفسه فيناجي قطته : « كلي يا قطتي .. ان امي تصرخ في وجهك دوما : لا تجوعي معنا يا بلهاء . »

وتترابط في حياته ازمة الشهوة والخبز ، على نحو ما تطرحها قصة « التثاؤب » حيث يدفع لاحدى المومسات اجره الاسبوعي بدافع من الشفقة والشهوة ، فلا يبقى معه ما يدفعه لاهله . وتلك هي المسألة في مجتمعنا . اذا انحلت ازمة العمل برزت ازمة الجنس ، والانسان في بلدنا خاضع على الدوام لهذين الحافزين الفطريين ، وهو لا يفصل الحب عن الجنس ، كما انه لا يستطيع الا ان يحب، فاذا فقد الحبيب المشتهى فليعشق تمثالا من الجص :

« محبوبتي تمثال مصنوع من الشمع او من الجص ، انها فتاة رائعة تقف باستحياء في واجهة محل لبيع الملابس النسائية ، وكم يأسرني في هذا التعبير الغامض الذي يظلل وجهها الشاحب ، والذي هو مزيج من الوداعة والكآبة العميقة » ثم يناجي التمثال :

« ـ انا حزين يا سوزي .

« ـ لا شيء في الحياة يستحق ان تحزن من اجله .

« ـ ان احبك يا سوزي .

« ـ الحب حماقة كبرى ! »

أية سخرية ولهفة ، في أن يحب الانسان تمثالا من الجص ؟ .. ولو تعمقنا السطور ألا نراه يصف أكثر النساء في بلدنا ؟ ألسن تماثيل من الجص ، في وجوههن تعبير غامض هو مزيج من الوداعة والكآبة ؟ ولو انه التقى بالاحياء ، فهل تكون حاله احسن ؟ ذلك ما يعرضه علينا في قصة « الصيف » حيث تستسلم له فتاته في غرفته .. وحين تصحو من غفلتها ، تطالبه بالزواج وتذهب ، حين يبقى وحيدا يتمطى في ذهنه سؤال عطاف : « متى نتزوج ؟

« انا اشعر بالنفور من هذا السؤال ، فقد استسلمت لي ، وها هي تطالب بالثمن : الزواج .

« ان كل ما في مدينتي له ثمن معين .. لا احد يعطي شيئا دون مقابل . »

وهو بعد أن اعطى المومس كل ما في جيبه ، قال لنفسه : « ما اتعس حياتي .. لقد سئمت منها .. وفي يوم ما سأذبح قلبي المعتوه الذي يعشق هذه المدينة البخيلة» فقصته مع المدينة قصة قديمة . وهو يحملها مسئولية جوعه وكآبته .. وقد هرب منها بعد ان ترك المومس تلك وهو خالي الجيوب .. هرب من المدينة ، الى « مدينة شنقت الجوع والكآبة والضجر ... لا تاريخ لها ، وايامها تمر بلا اسماء . » حيث يجد السعادة في الكسل وفي حب امرأة . ومنذ هذه القصة يبدأ العالم الخارجي بالشحوب، وتنمو اعماق البطل وتتخضم ، عارضة علينا كل انطباعاتها تجاه الحوادث . ان الامور تخضع للضغط الذاتي فتبدو من خلال نفسية البطل متلاحمة مقفلة بالرمز . وهو بذلك من أوائل القصاصين العرب الذين يقدمون لنا الوجود ضمن اطار نفسي ، لا مفتعلا في ذلك لغة معقدة ولا هاربا الى مجردات تقحمها ثقافته الى النص ، مثل الذي نراه في

(*) تأخر نشر هذا المقال ، وقد وصلنا قبل مقال الكاتب الذي يودع به الادب ، والذي نشر في العدد الماضي . ونامل ان يعود الكاتب عن موقفه السلبي وان يواصل انتاجه ، فبهذا وحده يزيل كثيرا من عقبات الحياة ـ « الاداب »

سطور مطاع صفدي .

وقد بدأ زكريا اتجاهه هذا بقصة من احسن القصص التي ظهرت منذ ثلاث سنوات ، ان قصة « الرجل الزنجي » رمز الى الشخص الاخر الذي يكمن في نفس كل منا ، الشخص الاخر الذي لا يخضع للقيود الاجتماعية ، الى عرض الحياة الداخلية بلا طلاء في ستة مشاهد تمثل مختلف انواع الحياة اليومية ، في الشارع وفي المقهى ومع امرأة ، وفي المعمل حيث يطرد ويعود الى الشارع منسكعا يرافقه احساس طازج بفورة الحياة في دمه :

« .. وتسري في الهواء نبرة جافة ، فيلتصق وجهي بالتراب الخشن الذي له رائحة جسد انثوي .. ويهتف الرجل الزنجي ..

ـ الارض .. كم احبها .

واتمنى في تلك اللحظة لو تهطل امطار عجيبة تفقدني صلابتي فاتحول الى سائل تتجرعه الارض بشوق .. »

بتلك الامنة تنتهي قصة رجل اخلص لنفسه ، فعاش في مأساة دائمة : ضحك منه عاشقان ، خنقته المقاهي ، اغوى حبيبته بعد ان خطبها غيره ، طرد من عمله وعاش وحيدا يغني انشودة الكآبة . وفي القصة التي تلتها ، ياتي الى المقهى ذات البطل المتعطل ، وقد انفصل عن العالم وانكره الناس حتى استحال اي تفاهم بينه وبينهم :

« قلت : انا ولدت في سنة ١٩٣١ .. امي لم تمت بعد .. العالم كله كئيب ـ قال : آه ما اجمل كلمة فخذ .

ـ قلت : ليتني كنت غرابا . »

ذلك انموذج من حوار يدور بين البطل وصديقه . كل مشغول بنفسه عن صاحبه ، وليس في الحديث فسحة لكلمة عزاء يتبادلها صديقان . وهو حين يترك المقهى ويعود الى « القبو » الذي يسكن فيه يسأل امه :

« ـ هل سأل عني احد ؟

« فأجابت ببرود : لم يسأل عنك احد .

« فامتلكتني خيبة مريرة .. واحسست باني من اشد المخلوقات بؤسا . ولم أستطع البكاء لان عيني امي كانتا تراقبانني بفضول ، فقصدت المرحاض . وهناك اسندت خدي الى جداره الخشن الوسخ وانتحبت طويلا دون خجل . »

انه ادرك الان كم اصبح معزولا عن الاحياء . ومع ذلك فلم يستأنس بامه بل صنفها في عالم الاخرين الذين نسوه ، واصبح قلقها ولهفتها رقابة يفر منها . اما المرحاض فهو رمز لما تردت اليه حياته من العزلة النتنة والبطالة واليأس . وهو قد اسند راسه الى الجدار لانه لم يجد صدرا يستكين له .. لقد بكى مصيره الخالي من اي عزاء . ان وحدته تثقل عليه . لقد صلبه العالم وها هو وحده لا يجد مأوى يخلو به الى نفسه . وهو يعيش بلا امل : « اني اعيش في هذا القبو .. العالم يجثم فوقي .. اني سأظل حتى النهاية في قعر المدينة » ثم يتقيأ ويغشى عليه .. فيحلم بامرأة تثيره برقصها ، لكن الناس يفسدون عليه حتى الحلم ، اذ يشنقونه بتهمة انه قتل اباه .. وتلك نقمة اوديبية .

في القصص الماضية كان الحلم يحمل كل التفاؤل والعالم الجميل الذي يتمناه كل شاب ، وفي القصة الماضية « القبو » بدا اليأس يتسلل الى الحلم . في الحلم كان يشعر بالحب واللذة والكرامة . لقد فقد الحلم متعته .. فأية منجاة له في الارض ؟ واذن فلينتحر . وهو منذ قصته الاولى « المسرات الصغيرة » يقدم بطله مفكرا بالانتحار ، وكلما ازداد عزمه نما احساسه بنفسه حتى ليكاد ان يصيح في الناس ، تأكيدا لاهمية : « اني سأموت .. هل تعرفون معنى هذا ؟ » لكن حقده على العالم ليس اعمى : « اجلت النهاية حتى مقدم الربيع .. اني احب الشتاء واريد ان اتمتع بمباهجه ، ثم بعد ذلك لتأت النهاية الباكية . » اما في قصة « صهيل الجواد الابيض » فانه لا يؤجل المشروع لانه استعرض ماضيه وحاضره وايقن انه بلا مستقبل :

ماضيه « كان لك فتاة ، مدينة افراح ولذة ، سلبت منك ».

حاضره « ها انت الان سكير .. شارع مقفر .. طين متراكم .. وحيد ككلب الاسواق الاجرب .. »

مستقبله « ستنهض في الصباح لحظة معينة .. ستتمطى وتتثاءب بتكاسل . ستغسل وجهك وتمشط شعرك وترتدي ثيابك .. ستبصق بهرم مهترىء ، وانت تسير في شارع مغمور بشمس النهار الجديد .. ثم سيدفنك المعمل في احشائه الشرسة »

واكد عزمه على الانتحار ادراكه لعبثية المطاليب : « لماذا لا اموت ... ماذا سأفعل لو كنت أملك مدنا من ذهب .. لو احبتني اجمل امرأة ... ماذا سأفعل ؟ اظنني ساحدق في لمعة حذائي الجديد واقول بضجر :

ـ اوه كل الاشياء تافهة وغبية . »

وبذلك رفض ما لن يحصل عليه قط . رفض حتى الافتراض ... وفي القصص السابقة كان العالم يلفظه لكن الحياة تحتضنه .. كانت رائحة التراب المندى ، وخيال حبيبة ، او حديث من صديق تعيد اليه الحياة . أما الان فقد رفض الحياة ـ ما عرفه منها ومالم يعرفه ـ ثم غادرها على صهوة جواد ابيض . ويمكن ان نعد هذه القصة وسابقتها نقطتي تحول في اسلوب القصاص وطريقة عرضه . كان عالم الحلم عنده منفصلا بعض الشيء عن عالم اليقظة ، وكنا نحس بانتقال البطل بين العالمين . اما في القصص التالية فاننا نعيش في عالم من الرموز بين الحقيقة والخيال ، مما يذكرنا باسلوب توفيق الحكيم في مسرحية « شهرزاد » ان القصة الماضية مترابطة ومسلسلة وذات بطل واحد وجو واحد ومشاكل متشابهة ومواقف تتطور بتدرج بطيء في مجابهة مطاليب الجنس والخبز والحب ، حتى ليمكننا القول انها فصول من رواية واحدة وان كان لكل فصل فنيته واستقلاله ، ومما يؤكد راينا ان البطل الذي ينتحر في القصة الماضية يبعث من جديد في القصة التي بعدها ، ويبعث من القبر :

« ولقد اطعمت لحمي وذكرياتي واحلامي الهرمة لغربان سوداء حومت فوقي في نهار شمسه باردة هزيلة ، وساعاته كلها مدفونة تحت الرماد المنهمر من جرح رجل بائس مصلوب وسط صخب مدينة كبيرة . وتعاقبت علي الاعوام الكثيرة وانا راقد على ظهري بدون فرح او كآبة .. احملق ببلاهة في عتمة موحشة .. وتسرب الي في احدى الليالي ضياء القمر من ثغرة في سقف قبري . »

ترى اليس هناك صلة بين الانتحار والبعث من القبر

في قصتين متتاليتين ؟ واذا كان هناك صلة ما فهل يكون الانتحار كابوسا من مشاغل الحياة يغيب الوعي تحت وطأته ويعيش الانسان في حالة لا مبالاة ؟ قد يكون هذا التساؤل صحيحا اذا تابعنا بقية قصة « ابتسم يا وجهها المتعب » التي نقلنا مطلعها آنفا .

يعود البطل من قبره الى البيت فتنكره امه واخوته ، صائحين : « اذهب عنا يا مجنون » وفي الشارع يمر باحد المطاعم فينبثق جوعه محملقا في المآكل حتى يسأله احدهم:

« انت جائع ؟

« انا بلا نقود .

« اتبعني »

ولكن هذا المنقذ لا يخلصه من الجوع الا بعد ان يشترط عليه قتل امرأة . وبعد الجريمة يذهب الى المطعم حيث يستطيب الاكل ، ويجري بينه وبين الجرسون هذا الحوار:

« ـ اللحم لذيذ جدا .

« ـ هذا مطعم للاغنياء .. وهو لا يقدم الا افخر الاطعمة ... اللحم الذي اكلته لحم انسان بدين

« فتساءلت بصوت خفيض اجوف :

« ـ لحم انسان ؟

« واندفعت خارج المطعم ، وفي زاوية من زوايا الشارع حاولت ان اتخلص من الغثيان بان اتقيأ فلم انجح .. وسرت بخطى مهتاجة وانا اردد: لحم انسان .. لحم انسان .. »

ومن الواضح انه ليس بامكاننا فهم هذه القصة الا اذا اعتبرناها رمزية وان انبعاثه رمز لخلاصه من كابوس التبلد ، وان الانسان لا يمكن ان ينقذ نفسه في مدينة ليس في قوانينها ضمانات ... لا ينقذ نفسه الا بقتل الاخرين .. اي بمزاحمتهم على خبزهم .. وانه اذا آذى احدا في سبيل عيشه فإن ضميره سوف يظل يؤنبه وينغص عليه حياته .. ويؤكد ذلك ان النادل يقول للبطل : هذا المطعم للاغنياء . ومن المعلوم ان الاغنياء يأكلون من لحوم الناس ولو بشكل غير مباشر . وهو يختم القصة بسيل من الرموز توحي بان المدينة في نظره « مومس عجوز ذات وجه شاحب لا يعرف الابتسام » وبان القمر الذي ابصر شعاعه من خلال القبر ، كان املا ومضى في ذهنه لحظة ثم انطفأ .. « القصة منشورة في عدد فبراير في مجلة الاداب » .. لمن شاء ان يعيد النظر في رموز القصة .

★

« قرنفلة للاسفلت المتعب » .. اخر قصة كتبها زكريا تامر . وهي تدور حول موضوعاته الثلاثة التي يفضلها : « الموت ، الحب ، الخبز » ، وهي اقانيم تلبس لبوسا رمزيا ، بل اسطوري .. تبدأ القصة بتصوير فتاة مراهقة .. ان جوعها لا يرتوي الا بان يختطفها سبعة رجال ويرضي غرورها الانثوي ان يركع كل واحد منهم مبتهلا الى جمال قطعة من جسدها ... اما الحب فينزوي ذليلا في آخر القصة اذا ان الحبيبة قد هجرت وتحولت الى مومس صغيرة . وما بين الحب والتشهي تتصارع الحياة والموت في مشاهد سريعة متلاحقة منفتحة على الحياة .. كانها الحياة . والقصة ـ بل ان انتاج زكريا تامر كله ـ يصور واقع حياتنا الفردية والاجتماعية بكل ما فيها من جوع وبأس وحرمان وكبت وعاطفة ذبيحة وقلق فكري وشعوري. ان شبابنا محاصرون بالف قيد وقيد . وان الفقر والتقاليد وقسوة الحياة تحيل الشاب الى انسان ميت الاحساس ووحش مفترس في ان واحد ، بينما تتحول الفتاة الى مومس تترك من تحب وتبيع جسدها لمن يدفع الثمن مهما عاليا .

ان زكريا هو الفنان الوحيد الذي ينقد واقعنا بقسوة دون ان يتحول نقده الى خطابات وتقارير ... واقول « الفنان الوحيد » في القصة القصيرة بعد ان ظهرت تباشير تحول العجيلي الى كتابة الرواية .. وليس ذنب زكريا ان قصته ، كما تقول نازك الملائكة : « قصة لا شيء فيها غير الرعب والعذاب والشر والجريمة . ما من نبضة طيبة تخفق، ما من ابتسامة ، ما من خفقة حب، فمن اين جاءنا زكريا تامر بكل هذا ؟ واين مثل هذا في حياتنا العربية ؟ »

وانني لاسأل الشاعرة . وما حاجتنا الى الثورة والوحدة لو لم تكن كل هذه الامور موجودة فعلا في واقعنا العربي؟ ان فضح هذا الواقع واجب اخلاقي على كل فنان عربي .. أليس كذلك يا من نظمت « غسلا للعار » ؟

ولعل الشاعرة ارادت ان تفرض موقفا حين كتبت : « والرجل الذي تتحول حبيبته الى مومس لا يمكن ان يبكيها في مقهى ، وانما يغلب ان يقتلها قتلة شنيعة » ان الرجل الذي يقتل هو الرجل المتوحش وليس الرجل الذي يملك ضميرا ولا وعيا . ان وعي البطل لا يدفعه الى الجريمة لانه يعرف الاسباب الاقتصادية والتقاليد الاجتماعية التي حولت حبيبته الى مومس . والمومس هنا كل فتاة تترك من تحب وتتزوج من تكره في سبيل المال .. وهذا ما يجعل زكريا مبشرا باخلاق جديدة في جيل جديد .. اما ان العامل يخاطب الرغيف قائلا له : « يا عاري الكبير » فلان كل فرد في المجتمع ـ وليس العامل وحده ـ يشعر بثقل الاوضاع الاقتصادية وقسوتها ... وليس القاص مسؤولا عن ايضاح اثر الاستعمار في ذلك .

ان الجيل الجديد شديد الوعي لحاجاته الاساسية :الخبز والحب ، وهو يشعر بصعوبة تحصيل الخبز فيحارب على جبهتين : في الخارج ضد الاعداء وفي الداخل عن طريق البؤس ، في سبيل ايجاد ضمانات اجتماعية .. وكل دعوة نقدية الى اسكات الاصوات الفاضحة هي دعوة مكارثية الى كم الافواه .. اما عن الحب فان الجيل يعلم تمام العلم ان التقاليد والتحريم الديني هما اساس هذا الخنق العاطفي ، لذلك يثور ضدهما يصيح « فليسقط ابي ـ لانه رمز التقاليد ـ ولتعش امراة جارنا ـ لان عندها ما نحتاج ـ » . ومثل هذه الصيحة لا تصدر الا عن شبان عاشوا في مجتمع عربي رجعي حرمهم من حقوقهم الطبيعية .. وان علينا ان نناضل في سبيل الحرية الاجتماعية ، بمثل الضراوة التي ناضلنا بها في سبيل الحرية السياسية .

درعا محي الدين صبحي

اليك يا مسافرة!

اليك يا مسافره
اغنية مسافره
ليس لها أرض ولا قرار
الشط ناء .. والمزار يافريدتي مزار !
وغنوتي قصيرة .. وعابره
اليك يا مسافره

***

الحلم أثقل الجفون
فلننم ..
وعششت في المقلتين زغب أمنياتنا الصغار
وديعة الغد الغريق في رحابة العيون ..
والالم ...
والهفتا .. لو أقبل النهار ..!
طارت ..
وزف خافق لدي مستطار
ياليل .. ياحكاية الفراغ والشجون
يا أنت ..
ملتقاي والهموم والصحاب ..
وموعدي مع السراب ..
مازال بين راحتي كتاب ..
أوراقه البيضاء في نقاوة العذراء ..
والاحرف العجماء في سطوره .. شتاء !
كئيبة .. كمقبره ..
والهفتا ..
لم تنخلع لومضة او خاطره !
ولا انتهت الى كليمة تضيء في الضباب
حياتي المهاجره ..
اليك يا مسافره

***

اللفظة التي تموت دون ان تمسها شفه ..
وكان في أعماقها بحار ..
والهمسة التي وراء مقلتين تختنق
وملء صدرها انبهار ..
وغنوة قصيرة وعابره
وسائلي اليك ..
لو يسعف النهار .. !
تهاوت السنون ..
واحترقت عيون ..
وانهار من سقيفتي جدار ..
ياطول ان يلفنا انتظار ..!
اليك يا مسافره

القاهرة

فاروق شوشة



أطفئي الضوء انه يرهق اعصابي ، ويتعب عيني .

قالت ذلك ـ وهي تتحاشى النظر اليه ـ بصوت خفيض ، فيه رقة وفيه عذوبة رغم لهجته الآمــرة .

ودون اي اعتراض ـ شأنه معها دائما ـ وضع الكتاب الــذي كــان يقرأه جانبا ، ومد يدا معروقة طويلة الاصابع ، قد انتثر عليها شعــر اسود ، وأدار زر الكهرباء فعم غرفة النوم الانيقة ظلام حالك ، وسادهــا سكون ثقيل .

وظل هو مستويا على سريره كما كان متجها صوبها . وظلت هي ممدودة على سريرها المقابل لسريره ، مشبكة يديها على صدرها ، متجهة بناظريها نحو السقــف .

لكم تمنى هو في تلك الليلة الباردة ذات العواصف الهوجاء ان يحتوي جسمها اللدن الصغير بين ذراعيه ، فينعم بدفء انفاسها ، وطيب عبقها . ولكنها كانت قد أفهمته وهي تخلع ملابسها ، وترتدي غلالة النوم : انهــا تعبة جدا هذا المساء يرهقها النعاس ، ومنذ اكثر من ساعة وهي تتمنى ان ينصرف عنهم الزوار الذين اطالوا السهرة اكثر مما ينبغي لترتمي فــي سريرها ، وتستسلم الى النوم الذي ألح عليها كما لم يلح ابدا .

قــال في نفسه :

يالهذه الصغيرة الماكرة كم تجيد اختلاق الاعذار ، وكم تتقن التمثيل !

اتراها تكرهني ، وتضيق بي ، حتى تتهرب مني على هذا النحو ؟!..

متى ألح عليها النوم ؟. منذ لحظة فقط كانت تبدو امام الضيوف نشيطة مرحة .. حتى اذا اغلق الباب خلفهم بدأت تتثاءب وتتكاسل وقد فتــر لحظها وتراخت اجفانها ..

ومنذ اكثر من اسبوع وهي تصرفه عنها كل ليلة بعذر من هذا القبيل ، فيخادع نفسه ، ويغالطها ويرغمها على تصديقها ، ويتقبل العذر برحابــة صدر ، كان يفعل ذلك كله وهو لايعي ، ليثبت لنفسه انها لاتكرهه ولا تضيق به ، وان كانت تبدو له غير مندفعة في حبه الاندفاع الذي يتمناه ويتوق اليــه .

وكان منذ تزوجها ـ ولما يمض على زواجهما سوى شهور قليلة ـ قد آلى على نفسه ان يكون معها مثال الوداعة والتسامح والكرم وحســن الخلق . لانه يشك في حبها له ولذا فلن يثقل عليها ابدا ، ولن يفــرض عليها نفسه فرضا .بل سيستميلها اليه وسيستجلبها على مهل ، حتــى يفوز بحبها كما يرغب ويشتهي ، ولو ان الفارق بين عمريهما ثلاثون عاما . فهي لم تتخط العشرين ، وهو قد دلف الى الخمسين ، ولكنه رغــم ذلك مازال يثق بنفسه الى حد بعيد ، فهو لم يتقن شيئا في حياته كاتقانه فن مغازلة النساء . وانه لمؤمن ان لديه من الاساليب التي اكتسبها مــن كثرة معاشرته لهن مايجعلها تتدله في حبه يوما ما ، كما سبق ان تدلــه كثيرات غيرها .. وما قيمة العمر وعدد السنين ؟ مادام يشعر انــه مايزال شابا يتمتع بكل مايتمتع به الشباب من حيوية ونشاط . كمــا انه مايزال محتفظا بوسامة ونضارة تثير استغراب الكثيرين من اصدقائه ومعارفه لاسيما الذين يماثلونه في العمر .

ولكنه في هذه الليلة بالذات بدأ يشعر بخيبة مريرة لايستطيع ابــدا ان ينكرها ، او يموهها ، وتجاه من ؟!.. تجاه المرأة التي انهى عندهامطافه واختارها بعد حين طويل ،وبعد تفكير وروية لتكون شريكة حياته مــدى مابتقى له من العيش . وكان قد أزمع فيما بينه وبين نفسه ان يخلص لها كما لم يخلص لغيرها ابدا .

فأي خيبة مريرة يمنى بها الان ؟!

ولا يدري لم مر في خاطره في زحمة افكاره المضطربة وهو مستو على سريره في جلسته تلك في الظلام الدامس أسماء رجال من معارفه اخذ عليهم انقيادهم الاعمى لزوجاتهم وطغيان هؤلاء الزوجات عليهم حتى اصبحوا هزأة ، وكان هو قبل ان يتزوج اكثر الناس تندرا بهم ، وتنكيتا عليهم .

وينتبه ذهنه فجاة الى نظرة كان تبادلها اثنان من ضيوفه هذه الليلة اثناء السهرة ، والى ضحكة اخفياها عندما غير هو رأيه في قضية تتعلق بالسياسة مسايرة لراي سخيف ابدته زوجته ، كما تذكر ايضا كيف عدل مرة عن مشروع هام كان قد استعد لمباشرة العمل فيه في قرية نائيةعندما لم توافق زوجه عليه ، وما زالت به حتى اقنعته بالعدول عنه لانها لاترغب ابدا في سكنى القرى ولم يسعه الا النزول مستكينا عند رأيها ، ـ شأنه معها دائما ـ رغم تحمسه للمشروع ، وايمانه بنجاحه .

وثبت له انه اصبح دون وعي منه ، واحدا من هؤلاء الرجال المستكينين لزوجاتهم والذين يتندر بحوادثهم الناس ، ويجعلونهم هزأة المجالس .

ولاول مرة منذ تزوجها شعر نحوها بشيء من المقت والكره ، واخــذ يتساءل لماذا تتأبى وتتكبر عليه هذه الصغيرة الحمقاء ؟. انها ليست ذات جمال نادر ، او ذكاء فارط كما تظن نفسها . وهو في الواقع لايهتم بها ، ولا يتألم من اجلها فما اكثر أمثالها في النساء. ولكنه يخشى ان تهــان كرامته ، او تجرح كبرياؤه .

ماله يقف حيران مرتبكا امام هذه الصعلوكة التي هي زوجه ؟! . هــو الذي كان الى حين قريب تياها على نساء يفقنها في كل شيء ، وكــن يتهافتن على وده رغم كهولته وشبابهن ، ورغم ماعرف عن شدته فــي معاملتهن،لا شك انه اخطأ عندما افرط في تدليلها ، حتى اصبحت تستهتر به ، ولا تأبه له ابدا ، ويتذكر حدثا طريفا مر به وهو في عز شبابه فقد صفع مرة خليلة له غالية عليه امام الناس في حفل كبير لانها ابتسمت لرجل كان يكرهه ويغار منه . ثم ندم على مابدر منه من قسوة ، وعــدم لياقة . فقرر ان يعود اليها اذا اصبح الصباح يستغفرها ويسترضيها . فاذا هي تسبقه الى ماعزم عليه وتسعى اليه في الصباح الباكر باكيــة تطلب عطفه ورضاه . كأنها هي المذنبة ، ويعود اليه صلفه وتيهه فــلا يرضى عليها الا بعد جهد طويل . قال في نفسه : بمثل هــذا يجب ان تعامل النساء .. ومالي حدت عــن الطريــق ؟!

اليست هذه واحدة من النساء ؟

والتفت نحوها وهم ان يصيح بها يوقظها من نومها ليناقشها حسابا عسيرا . ولكنه عاد فتراجع وكظم غيظه وارجأ ذلك الى الصباح . وقال في نفسه :

ـ لم كل هذه العجلة والايام بيننا ؟!

وكانت العواصف مازالت تصطرع بشدة . فالرعد يزمجر ، والمطر يهطل . وتوقف سير تفكيره عندما بدت له من النافذة العريضة التي تواجه سريره تماما صفحة السماء الدكناء يرسم عليها البرق اشكالا غريبة رائعة . فراح يتأملها ساهيا لاهيا ، واذا ومضة برق هائلة يقتحم سناها النافذة ، ثم تتبعها ومضات متتالية ، فيلتمع في الغرفة المظلمة نور وهاج. وبنظرة خاطفة يلمح وجهها الذي مايزال متجها نحو سقف الغرفة ، وقد تقلصت قسماته بشكل يدل على انها تبكي فظل في مكانه سادرا يفكر، ثم تناهى الى سمعه عند هدأة الرعد صوت انفاسها مضطربة مبهورة تتخللها شهقات مكبوتة . فتأكد له بكاؤها . واخذت ثورته عليها تهدأ شيئا فشيئا ويحل محلها حنان واشفاق . فما كان ليخفى عليه ـ وهو العليم بطبائع النساء ـ انها تقاسي كثيرا فقلما تبكي المرأة في الخفاء الا اذا بلغ منها الالم كل مبلغ . فماذا يشقيها ويؤلمها ياترى ؟. لاشك انها تخفي عنه امرا هاما . وبحركة لاشعورية اضاء الكهرباء . فاخفت هي مسرعة وجهها بزندها ، وظلت ساكنة لاتأتي بحركة وصدرها يعلو ويهبط كأنها تعاني ضيقا في تنفسها . فقام عن سريره وجلس على حفة سريرها ، وسألها بلهجة تكلف فيها اللامبالاة :

ـ مالـك تبكـين ؟.

ـ أشعر بصداع أليم . قالت ذلك دون ان تتحرك او ترفع زندها عن وجههـا .

ـ ها ها !. ان الصداع لايبكي ... ومالك تتحملينه ولدينا كثير من المسكنات ؟.

ـ اشعر ايضا بضيق يكاد يخنقني .

ـ اجلسي ، اجلسي . ان لي معك حديثا. تعالي نتفاهم بهدوء وصراحة. وأؤكد لك بان الصداع سيزول وبان الضيق سينجلي ..

ـ لاداعي لكل ماتقول . ارجوك ان تتركني الان ، فلا طاقة لي على الحديث معـك !!

ـ لن اتركك ابدا . كأني مالقيت منك . قال ذلك بصوت عال ولهجة قاسية أكسبته السيطرة على الموقف حالا . ثم سحبها من يدها بشدة وقوة . فاستوت جالسة امامه وجها لوجه على حافة السرير . وقد بدا الرعب على وجهها فزادها روعة وجمالا . وراح يحدق اليها النظر فلم يرها ابدا اجمل منها في تلك اللحظة . كانت شاحبة اللون ، وقد اتسعت عيناها السوداوان المخضلتان بالدموع دهشة لما حدث ، ولما سيحدث . وانتثر شعرها الاسود الغزير على كتفيها بلا انتظام ، واحست ان غلالة النوم قد مالت عن عنقها ، وانحسرت عن كتفها البضة المستديرة فسحبتها بعصبية واحكمتها حول عنقها كأنها تحاول ان تستر امامه ماامكنها . ولاحظ هو ذلك فابتسم بمرارة . ومنذ تلك اللحظة شعر كان هوة كبيرة قد انشقت بينهما ففصلتهما عن بعضهما وتركت كل واحد في ناحيـة .

وبعد فترة صمت ثقيلة كان هو يتفرس في وجهها وهي تتحاشى النظر اليه فقال وقد استطاع ان يتغلب على اضطرابه فبدا هادئا :

ـ انني اشعر منذ تزوجتك انك لاتحبينني .. وانك لست سعيدة بالعيش معي . فلم رضيت الزواج بي اذن ؟!.

ـ انا لم ... وبلعت الكلمات . واخذت دموعها تتساقط على خديها قطرات كبيرة . وهي مطرقة بصمت محزن ، وفمها مطبق .

ـ فهمت كل شيء .ولو ان فهمي جاء متأخرا !!.. لقد اجبرت على الزواج بمن لا تحبين. ولكن هذا كله على ما فيه من ظلم لا يبعث على البكاء اردف : انه ابوك الجبي ومن ورائه زوجة ابيك الماكرة التي عرفت كيف تعتني ، وكيف تستغل ضعفك فتسيطر عليك بأمسكينه وتجبرك على الزواج بمن لاتحبين . ولكن هذا كله على مافيه من ظلم لايبعث على البكاء المرير في مثل هذه الساعة من الليل الا اذا كان هناك شخص اخر ترغبين به وتتحرقين على فراقـه .

ـ لا ، لا ، أحلف لك انـه ..

ـ لاتحلفي ابدا . ولا تورطي نفسك في اثم ، ولا تحاولي النكران انه لايجديك نفعا . فلست انا ممن تخفى عنهم مثل هذه الامور . اصدقيني القول ، وثقي انني سأكون معك حتى نهاية الشوط .

وكأنها انست بعض الشيء بلهجته التي تنم عن الصدق فظلت صامتة مطرقة ترتجف من شدة الانفعال دون ان تحاول تبرير نفسها بكلمة واحدة كأنها تقره على ما يقول .

ـ لم لم يزوجوك منه اذن ؟... أفقير هو ؟...

فظلت مطرقة ودموعها تتساقط بغزارة .

فاخذ يتأملها مشفقا ثم قـال :

ـ أو تبكين كثيرا من اجله ؟..

فتنهدت من عمق ثم زفرت زفرة حرة لم تستطع كتمانها . فقال :

ـ لعلك سمعت عنه مايسوءك هذه الليلة ؟..

فهزت رأسها ايجابا دون ان تنظر اليه . وتذكر هو حديثا دار بين ضيوفه قبل انصرافهم بقليل عن طلاب جامعيين ألقي القبض عليهم عندما قاموا بمظاهرة ضد المستعمرين واودعوا السجن ، ويقال انهم يعذبون فيه عذابا منكرا . وتذكر كيف تلقت هي الخبر بشهقة عالية اثارت استغرابه ولفتت نظر الجميع ثم بدا عليها وجوم وشرود ، فقال :

لعله احد هؤلاء الطلاب الذين يعذبون الان في السجن ؟...

وكأنه قد فرغ صبرها فوضعت كفيها على وجهها واجهشت بالبكاء بصوت عال .. فتيقن ان غريمه واحد منهم . ولاحت على فمه ابتسامة مريرة لانه استطاع ان يحزر ولان حدسه جاء في محله . ورغم هذه الحقيقة التي انجلت واضحة امامه ظل صامتا هادئا ، كأن الامر لايعنيه في قليل او كثير ، ثم راح يعجب من نفسه اشد العجب ، ويكاد ينكرها، كيف استطاع ان يطلع على هذا الواقع الفظيع بهدوء وبرود لايعهدهما ابدا في طبعه ، لاسيما في مثل هذه المواقف . أي تغير طرأ عليه فأحاله شخصا اخر كأنه غيره بالامس ؟...

ثم راح يتأملها وهي تبكي وتنشج فبدت له كطفلة صغيرة حيرى مرتبكة مغلوبة على امرها لاحول لها ولا طول ، وأحس ان شعوره نحوها اخذ يتحول بسرعة الى حنان وعطف ، وود من صميمه لو يستطيع أن يهدهد حزنها فيأخذها في حضنه يمسح دموعها . ولكنه لم يجرؤ ابدا ان يمد اليها يدا كأن قوة خفية تصده عنها . وظل جالسا امامها حيران مدة من الزمن لايعلم أطالت ام قصرت ، كان يستمع الى نشيجها المرير فيشعر كأن قلبه يتقطع عليها حسرة ، ثم قام متثاقلا دون ان يفوه بكلمة واحدة ، وخرج من الغرفة وتركها على وضعها الذي هي فيه .

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ



تقوم (*) نظرة فرويد للعلاقة بين الفرد والمجتمع ، على ان هنالك تعارضا بين الاثنين ، كما كان يؤمن بالراي القائل بان الانسان ذو طبيعة شريرة . وان دور المجتمع هو ان يجعل الانسان اليفا ، اذ هو اساسا غير اجتماعي ، ويتم ذلك بالطريقة التالية :

يدخل الفرد المجتمع وهو محمل باحتياجات غريزية معينة يسعى لارضائها ، ولكن التنظيم الاجتماعي يكبح هذه الغرائز ، فيتم ما يسميه فرويد بالاعلاء Sublimation الذي يحول هذه الغرائز المكبوحةالى سلوك حضاري . وكلما ازداد كبح الحضارة لاحتياجات الانسان الغريزية اصبح سلوك الانسان اكثر حضارية .

فهنالك اذن علاقة ثابتة بين الفرد والمجتمع ، تماما كتلك العلاقة القائمة بين الفرد وبين السوق الرأسمالية : الفرد يحمل احتياجات غريزية معينة ، ولما كان ارضاؤها لا يتم الا من خلال الاخرين فهو مضطر ان يقيم علاقات معهم . يتنازل فيها عن بعض غرائزه واحتياجاته البيولوجية ، او يؤجلها ، حتى يستطيع تحقيقها من خلال المجال الاجتماعي الذي يصبح المجال الطبيعي لتبادل احتياجاته مع الاخرين .

وهذه النظرة ، وان تكن قد ادت دورا هاما في دراسة الشخصية الانسانية ، عاجزة عن تفسير العديد من العلاقات الاجتماعية ، وهي تتعارض مع النظرة الديناميه للعلاقات الانسانية ، تلك النظرة التي تنفي كون الانسان ذا طبائع ثابتة ، كما انها لا تعترف بوجود علاقة ثابتة بين الفرد والمجتمع . انها تنطلق من العمل – بمعناه الواسع – ، فعندما يعمل الانسان لارضاء احتياجات طبيعية معينة فهو يقيم علاقات مع الاخرين ، ومن خلال محاولته لتغيير الاشياء – وهي طابع العمل الاساسي – يتغير هو ، ويصبح متميزا بخصائص نفسية وحضارية معينة .

على هذا الاساس نطرح مسألة الحرية الانسانية في العصر الحديث ، على اعتبار انها نتاج العلاقة الديناميه بين الفرد والمجتمع .

لقد بدات المشكلة مع انتهاء العصور الوسطى . كان الانسان يعيش في تلك العهود في عالم مفهوم ومعقول ، بالنسبة له ، تماما ، عالم بسيط ومحدود تبدو فيه قريته او اقطاعيته كأنها مركز العالم كله . كان جزءا من الاخرين ، كما كانت الكنيسة تبرر شقاءه في هذا العالم ، معزية اياه ، بان هذه الحياة ما هي الا مرحلة لدار اخرى ملأى بالنعيم والخيرات .

وكان من الطبيعي في مجتمع كهذا الا تطرح ، بالنسبه للانسان العادي ، قضية معنى الوجود الانساني ، وهدفه والعلاقة مع الاخرين . اذ ما دام هو في وحدة مع الظروف الخارجية فمعنى وجوده وهدفه مستمدان من معنى وجود العالم الخارجي وهدفه .

ويمكننا ان نجد شبيها لهذه العلاقة ، علاقة الطفل بامه ، اذ يظل طيلة سنيه الاولى جزءا من امه – من ناحية وظيفته – فهو يحس بتفرده وانفصاله عنها ، وهذه العلاقة هي مصدر شعوره بالاطمئنان والضمان الوحيد لاستمرار حياته . كما ان المرحلة التي اعقبت العصور الوسطى ، تشبه تطور علاقة الطفل بامه ، اذ ان نمو الطفل العضوي وازدياد قدراته في السيطرة على الاشياء تخلق فيه الشعور بالانفصال عنها . ثم ياتي دور الثقافة التي تشمل خبراته الخاصة ، ورغباته التي كثيرا ما تصطدم بارادة ابويه مما يؤكد شعوره باستقلاله وفرديته .

واخذ نظام العصور الوسطى ينهار بسبب عوامل اقتصادية ، مفسحا المجال امام المجتمع الرأسمالي ، ولقد تم ذلك على يد طبقة مغامرة انهت جميع القيود التي كان يفرضها ذلك النظام على حرية تنقل راس المال . واستمرت هذه الثورة المجيدة عشرات السنين وبعنف واندفاع لم يشهد التاريخ السابق لهما مثيلا حتى حطمت جميع القيود التي كانت تغل الانسان . ولكن اي مجتمع خلقت تلك الثورة ؟ عندما حررت الرأسمالية الانسان اقتصاديا وسياسيا ومنحته حرية ممارسة دوره في المجتمع الجديد ضاربة عرض الحائط بكل الاعتبارات التي تقف في طريق التقدم الانساني كالوضع العائلي والفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها الخ .. حررته في الوقت ذاته من تلك الروابط التي تمنحه الشعور بالاطمئنان والانتماء . اصبح العالم الجديد بالنسبة له واسعا ومترامي الاطراف ، واخذ يحس بعدم وجود اي معنى لحياته ، كما اخذ يشعر بقوة العزلة والوحدة . ان القوى الهائلة التي خلقها ، قوانين السوق الرأسمالية ، اصبحت قدرا لاراد له وجعلته يشعر بانه مهدد من كل النواحي .

لقد استطاعت الطبقة المالية الكبرى أن تجد مهربا من

(*) معظم الخطوط الرئيسية لهذا البحث مأخوذة عن كتاب أريك فروم، « الخوف من الحرية »

هذا الاحساس باتجاهها العدواني نحو جمع المال ، كما كانت تستطيع تحقيق نفسها من خلال قدراتها الاقتصادية الضخمة ، وكذلك الامر ـ لحد ما ـ بالنسبة للفلاحين والفئات الدنيا من السلم الاقتصادي، فقد دفعها احساسها الجديد بعدم الاطمئنان الى ثورات دامية ـ كثورة الفلاحين في المانيا ـ استطاعت بها ان تتغلب على الاحساس بوحدتها .

وكانت الطبقة التي وقعت في المصيدة ، هي البورجوازية الصغيرة ، ففي الوقت الذي تحطمت فيه الضمانات الاقتصادية والنفسية التي كانت تحميها في القرون الوسطى ، اكتشفت انها في الوقت ذاته ، وقد خسرت كل شيء ، لم تربح شيئا .

ان خير تصدير لسيكولوجية هذه الطبقة هو دراسة مذهبي لوثر و كالفن . ان هنالك نقطتين هامتين في مذهب لوثر . الاولى : انه حرر الانسان من سلطة الكنيسة ومنح هذه السلطة للانسان ذاته . والثانية : ان الشر كامن في النفس الانسانية ، مما يجعل من المستحيل على الانسان ان يقوم بعمل صالح من تلقاء نفسه ، ان ذلك ممكن فقط اذا تخلى الانسان عن حريته وارادته واذل نفسه امام الله .

وفي عام ١٥١٨ نزل على لوثر وحي مفاجيء مؤداه ان خلاص الانسان مرهون بالايمان الذي لا يدع ذرة واحدة للتشكك او التساؤل .

ان التفسير السيكولوجي لهذا الموقف المتناقض الذي وقفه لوثر يمكن تفسيره على انه تعبير عن رغبة في الخروج من عزلة نفسية رهيبة واعادة انتمائه للعالم ، كما انه رد فعل لشعور معذب بالحيرة والقلق . ولوثر في هذا يعبر عن التعارض الوجداني Ambivalence الذي كانت تشعر به الطبقة الوسطى ازاء جبروت راس المال وقوانين السوق وكان الحل الذي قدمه لوثر هو الخضوع المطلق لهذا الجبروت ، والاحساس الصوفي بالانتماء اليه .

ان هذا التعارض يبدو اوضح ما يكون ، في رأي هذا الثائر على الكنيسة الكاثوليكية في السلطة الزمنية في عهده، اذ يقول :

ان الرب يفضل وجود سلطة حاكمة مهما كان طغيانها على ان يدع الرعاع يثورون ، مهما كانت ثورتهم عادلة .. ان الامير يجب ان يظل اميرا مهما كان طغيانه ... الرب لا يكره شيئا شيطانيا كالثورة .

اما مذهب كالفن فهو يضيف الى مذهب لوثر نقطتين هامتين: اولا: ان الانسان منذ الولادة قد قدر له ان يصبح شريرا او صالحا . ثانيا : على الانسان ان يظل في حركة دائبة لجمع الرزق ، والنجاح في ذلك دليل على ان الله اختار ان نكون صالحين .

ان هذا المذهب يصور تصويرا دقيقا سيكولوجية الطبقة الوسطى ، فكون الانسان قد تحدد مصيره قبل ان يولد هو نفس احساس هذه الطبقة تجاه قوانين السوق الراسمالية التي تمثل عوامل ضاغطة لا يمكن التحكم فيها .

كما ان الحركة الدائبة هي احد اعراض سيكولوجية المصابين بالحصر العصابي Compulsive neurosis الذي يتسبب عن شعور حاد بالقلق والوحدة . كما ان هؤلاء المرضى يؤمنون بالغيبيات ، اذ قد يحجم احدهم عن القيام بعمل كان قد عزم عليه لمجرد ان نوافذ العمارة المقابلة ، مثلا ، فردية وليست زوجية .

ليس نشوء هذين المذهبين في الفترة هو وحده ذا الدلاله ، ولكن الامر الاشد دلالة هو اقبال الناس المنقطع النظير على تبنيهما في هذه الفترة ، وبالاخص افراد الطبقة الوسطى .

واذا حاولنا تلخيص ما تقدم نقول : ان الانسان حين تحرر من الروابط والعلاقات الاولية التي كانت تسود مجتمع القرون الوسطى ، فهو في الوقت ذاته قد تحرر من تلك الروابط التي تمنحه الاطمئنان والاحساس بالانتماء للعالم وجعلته وحيدا ، ومنعزلا ، وخائفا . ثم جاءت البروتستانتية وحاولت ان تخلصه من شعوره بالقلق بدفعه الى العمل المتواصل ، وان تعيد انتماءه للعالم بالخضوع لقوة جبارة هائلة تستطيع تخليصه من شقائه .

وبدون شك ان هذه العقيدة الجديدة قد مهدت للنمو الهائل للمجتمع الراسمالي ، فهي اذ خلصته من الضغوط الخارجية التي تغل تقدمه ، قد ساعدت على وجود ضغوط داخلية تدفع الانسان للحركة الدائبة ، كما ان دعوته للانتماء والخضوع لقوى خارجه عن ذاته ، والالحاح على تحطيم كبرياء الانسان قد مهدت لقبول الانسان الحديث لوضع يصبح فيه جزءا من جهاز ضخم لا يخدم اهدافه كانسان .

هذا ، بينما نجد ان الراسمالي النموذجي في المجتمع الحديث هو ذاك الذي يجمع المال ليوظفه لينتج مالا جديدا يعيد توظيفه وهكذا ، وعلى الرغم من اهمية هذا الاتجاه لدفع المجتمع الراسمالي للتطور والنمو السريعين فانه ادى لخلق مجتمع ذي اهداف متعارضة معأهداف هذاالمجتمع.

ان الادعاء القائل بان المجتمع الراسمالي يتميز بان كل فرد فيه يحس بالانانية والفهم ، لا ينفي هذه الحقيقة ، بل بالعكس يؤيدها . فالتهم ـ كما تقول اريك فروم ـ هو رد فعل تكيفي Conditionnel Reflex لحماية الذات الانسانية من كره عميق يحس به الشخص نحو نفسه .

وهكذا فان هذا الانسان الضائع المنعزل الذي يعيش تحت وطأة ضغوط نفسية رهيبة لا يمكن احتمالها ، قد أخذ منذ اللحظة يبحث عن مخرج للخلاص من العبء الذي القي عليه ـ وما يسميه البعض عبء حريته ـ ان هذا يضيء جانبا كبيرا من المذاهب الفلسفية والفكرية التي نشات في العصر الحديث ، كالوجودية والسريالية وغيرهما . فهذا الانسان قد وجد تعبيراً رائعا عن ضياعه وتعاسته فيمؤلفات كافكا . ففي روايته « المحاكمة » نجد (ك) قد اعتقل في صباح يوم جميل دون ان يكون قد جنى ذنبا ، وفي نهاية الرواية والسكين تغمد في صدره يصرخ محتجا على نهايته

وعلى كون اخرين قد رضوا ان يعيشوا ليلاقوا مثل هذه النهاية بقوله .. « مثل كلب »

وفي روايته « القلعة » نجد انسانا يحاول جاهدا ان ينال قدرا من الاطمئنان ومكانا تحت الشمس ولكنه يواجه بقوى غامضة لا منطق لها تضغط عليه وتسحقه وهو لا يملك الحق ولا القدرة على مناقشتها وتحديدها .

كما ان « روكانتان » سارتر ، صورة اخرى للعنانة الانسانية ، اذ يواجه الانسان وضعا زائفا لا يستطيع ان يحقق نفسه من خلال علاقة معقولة بالعالم .

والان سنحاول ان نرسم صورة سريعة للاتجاهات التي اندفع اليها الانسان الحديث ليتخلص من عبء وحدته .

١ ـ السادو ـ ماسوكيه

تتميز الشخصية الماسوكية بالرغبة في الخضوع ، والاستمتاع بالايذاء والإهانة التي تقع عليها من الاخرين . ان التحليل النفسي لهذه الشخصية يكشف عن احساس بان الحياة بالنسبة لها قاسية ومعادية الى درجة رهيبة ، وعن شعور حاد بالعجز والضعة ، وان اي وضع يطلب اليه فيه ممارسة حريتهم يثير في نفوسهم هلعا ورعبا لا حد له .

فالسلوك الماسوكي هو تعبير عن التخلص من ذواتهم ، بالتعذيب الجسدي ، وسيكولوجيا بالخضوع المطلق والتلاشي في الاخرين ، او في قوة عليا توحي لهم انها ذات قدرات هائلة وسيطرة مطلقة .

اما الشخصية السادية فهي الوجه الاخر للتعبير عن نفس الموقف تجاه احساس الانسان الحديث بالوحدة والعجز والضياع . فهي تتميز برغبة آسرة في السيطرة والايذاء ـ هذا ليس مقتصرا على الجانب الجنسي وحسب ، وانما ينسحب على سلوك الشخصية بشكل عام ـ كما انها تعتمد اعتمادا كبيرا على موضوع سيطرتها الى حد ـ كما يشير فرويد وفروم واخرون ـ ان فقدان موضوع سيطرتها يجعله شديد التعاسة والحيرة .

ان هذا ملاحظ جدا في العلاقات الزوجية في كثير من المجتمعات ، اذ نجد الرجل الذي يعامل زوجته بقسوة لا حدلها ويردد على مسامعها انه لا يود ان يرى وجهها ، وما يكاد يرى زوجته تحاول مغادرة البيت حتى يتهاوى طالبا اليها انتعود .

ان هذه الشخصية ، كما يقول فروم ، تحاول بسيطرتها وايجاد اتباع خاضعين لها التخلص من الاحساس بالوحدة والعجز .

كما ان هنالك انماطا انسانية مماثلة كذلك الانسان الذي يكرس حياته كلها لتكديس المال ، معوضا بذلك عن احساسه بالعجز. ان سلوكا كهذا لا يلغي الشعور بالعجز والوحدة فحسب ولكنه يلغي الذات الانسانية والحرية الداخلية للفرد .

لقد وجدت هذه الشخصية تعبيرا كلاسيكيا في « اوهام ضائعة » لبلزاك ، اذ يقول على لسان احدى الشخصيات :

« ان هذا الشاب لا علاقة له بالشاعر الذي توفي الان . لقد التقطتك ومنحتك الحياة ، فانا املكك كما يملك الخالق المخلوق ، او كما في قصص الجان الشرقية ، اذ ينتمي العفريت للروح ، او كما ينتسب الجسد للروح . بأيد قوية ساقودك الى طريق النفوذ ، واعدك بحياة ، رغم هذا مليئة بالملذات والامجاد ؟ حياة اعيادها سرمدية . لن تحتاج للنقود ؟ ستضيء ؟ ستصبح لامعا ؟ بينما انا ساغوص في الوحل لاوفر لك النقود ؟ ساضمن لك مركزا مجيدا . انني احب القوة من اجل القوة ذاتها ! ساستمتع بملذاتك على الرغم من اضطراري لاستنكارها وباختصار سنكون شخصا واحدا .. ، سوف احب مخلوقي ، سوف اكيفه ، واسويه لخدمة اغراضي حتى استطيع ان احبه كما يحب الاب طفله . سوف اسومه عربتك يابني العزيز ، وسافرح لمغامراتك النسائية. سوف اقول : انا هو هذا الشاب الجميل . لقد خلقت هذا المركيز دي روبمبري ووضعته بين الارستقراطيين ، ان نجاحه هو نتاج جهدي . انه صامت وينطق بصوتي ، ويتبع نصيحتي في كل شيء . »

٢ ـ الشخصية المتسلطة

ان هذا النمط من الشخصية يمثل السادو ـ ماسوكية في التطبيق ، انها تنبع من ذات الجذور الاجتماعية ، وهو يمثل دوما القاعدة الانسانية التي تسند النظم الفاشية وتدعمها .

وتتميز هذه الشخصية بان اعجابها وحبها وخضوعها يستثار اوتوماتيكيا نحو السلطة اذا كانت قوية ومتماسكة ، كما ان مظاهر الضعف في السلطة والاشخاص تستثير احتقارها ورغبتها في السيطرة والاذلال .

انها تخضع لاية قوة او سلطة مادامت ترضي نزعاتها الماسوكية ، ولكن تثور بعنف ضد كل سلطة اخرى ، حتى تبدو الرغبة في الخضوع التي تتصف بها هذه الشخصية في المؤخرة ، حتى تلك السلطة التي تهدف للمحافظة على مصالحها .

ولهذا كثيرا ما يخلط الدارسون بين الشخصية المتسلطة وشخصية الثوري التي تمثل اعلى مستوى من التماسك ومن ممارسة الانسان لحريته، بينما الشخصية المتسلطة تمثل هرب الانسان من ممارسة حريته بالخضوع لسلطة مطلقة من ناحية ، وباخضاع اخرين من ناحية اخرى .

ومن الملاحظ ان الحركات التي تعتمد على هذا النمط من الشخصية

وترضي نزعاتها تنتقل بسرعة من الحد الاقصى الذي تحارب فيه سلطة معينة بدعوى انها تحد من الحرية الى خلق نظام ؟ او تأييد شكل من اشكال الحكم الذي يقضي على كل اثر للحرية .

كما ان هنالك ظاهرة اخرى تميزها وهو ايمانها المطلق بقدر حتمي يسيطر على الحياة الانسانية ولا يمكن مقاومته او تحديه ؟ وبالرغم من انه يأخذ اشكالا متعددة ، كعبادة الماضي ، او القانون الطبيعي ، او المصير الذي لا مفر منه ، او الزعيم ، او الواجب ، فان له ذات المضمون وهو قوة علياقد قررت مصائر البشر مسبقا .

وهناك صفة اخرى ذات دلالة : وهي ان هذه الشخصية تبدو دوما متحركة ، وثائرة ، ولكن الكشف عن العوامل السيكولوجية الكامنة وراء هذا السلوك يثبت ان هذه الشخصية تفتقد صفة الابداع وان هذه الحركة لاتختلف عن تشنجات العصابي وهوسه اللذين يخفيان مشاعر العزلة والعجز .

٣ ـ الرغبة في التحطيم

ان الرغبة في التحطيم هي رد فعل للشعور بالعجز والوحدة وعدم القدرة على تحقيق طاقاتنا الحسية والانفعالية في المجال الاجتماعي ،فهي تنتج عن نفس الدوافع التي تقود الشخصية السادو ـ ماسوكية . الا انها تختلف عنه بانها لاتقود صاحبها الى الاتحاد بالاخرين ليصبح جزءا منهم وانما الى تدمير القوى التي تشعره بالعجز والضعة ، اي انه يهرب من عزلته عن العالم الخارجي ومن تهديده بتدميره .

وغالبا ماتكون هذه الرغبة والتعبير عنها مبررين اجتماعيا ، بل ان التدمير يكاد يكون طابع مدنيتنا متخفيا تحت اقنعة زائفة من دعاوي الحب والواجب ، والدفاع عن المدنية .. الخ ..

وهناك سببان يدعوان الانسان الذي يعيش في عزلة نفسية الى مثل هذا الاتجاه . الاول : القلق الذي ينتج عن الشعور بخطر خارجي يتهدد الذات : جسديا وانفعاليا ، فيهاجم تلك القوى التي تهدده .

السبب الثاني : انه عند افتقار الاطمئنان الداخلي والعفوية اللذين يتيحان له تحقيق طاقاته الانفعالية والحسية في الخارج فان شعوره بالعجز والوحدة يرتدي طابعا عنيفا حادا . كما ان حجز الطاقات الانسانية يزداد فعالية نتيجة للحجز الاجتماعي على المتعة بكل انواعها . فالرغبة في التدمير اذا هي نتاج تلك الحياة التي لم نعشها .

٤ ـ التلاؤم

الملاحظ ـ ظاهريا على الاقل ـ ان تبني التقاليد الاجتماعية والمحافظة عليها يزيل قدرا كبيرا من التصادم والخلاف مع الاخرين ، كما انه يكسب الانسان رضا المجتمع واحترامه .

ولذا اصبح التلاؤم الاجتماعي خير الوسائل واكثرها شيوعا لخروج الانسان من وحدته . اذ ان تبني الالوان الثقافية السائدة والعادات الاجتماعية المتعارف عليها يزيل ـ ظاهريا ـ التعارض بيننا وبين المجتمع، اذ مادمنا نقول ونتصرف ونستمتع ونعقد الصفقات ونتزوج بالطريقة التي ترضي الاخرين فنحن قد ازلنا الى حد كبير اتجاهاتهم العدوانية نحونا .
كما ان النجاح الاجتماعي مرتبط بفعل ماينتظره الاخرون ، فنحن ننتظر من الطبيب ان يكون مطمئنا ، واثقا من نفسه ، لطيفا وان يدلنا على مرضنا ؟ وان اي نقص فيما ننتظره من الطبيب يجعله يصبح في نظرنا غير صالح . وهكذا يتحول الناس الى اناس في السوق ، ينتظر منهم ماينتظر من السلعة ـ غير مغشوشة وصالحة للاستعمال ـ او على حد تعبير بيراندللو « انا ماتنتظرني ان اكون . »

كما ان الاهداف التي نسعى لتحقيقها ليست الاهداف النابعة من رغباتنا والتي يمكن ان تحقق طاقاتنا في المجال الاجتماعي ؟ بل هي اهداف محددة اجتماعيا وهي في الغالب ماتكون مخالفة لكل رغبة حقيقية نحس بها ، فالجهد الذي لا مبرر له لتكديس المال ـ مثلا ـ والذي يأخذ بخناق جميع الافراد لايمكن ان يكون تحقيقا لاية طاقة انسانية اصيلة .

ولكن ماذا يحدث خلال عملية التلاؤم الاجتماعي ؟ ان الانسان خلال هذه العملية يفقد ذاته وتفرده ، ويستبدل بهما ذاتا اجتماعية ذات ردود فعل ميكانيكية مرضية . ان العصابيين هم وحدهم ، ومن خلال اعراضهم المرضية ، الذين يعبرون عن رفضهم لعملية التلاؤم وفقدان الذات . ولكن كيف نعالج هؤلاء ؟ انه يعالجون بسيكولوجية التكيف ـ وهي اكثر انواع العلاج شيوعا في اوروبا وامريكا ـ التي يتم على اساسها ازالة جميع الاعتراضات النفسية على تلاشي الذات واحلال ذات اجتماعية بدلا منها .

ان النتاج النهائي لهذه العملية ، عملية تاليف الانسان وجعله اجتماعيا، هو الغاء تفكيره وارادته . ان التفكير يصبح مجرد عملية تبرير ، والارادة تتحول التي تبني اهداف محددة اجتماعيا .

سيكولوجية النازية

لقد قدمت النازية نموذجا ممتازا لتطبيق التخطيطات النظرية السابقة. وسنكتفي بدراسة النازية من زاويتين : الاولى التركيب السيكولوجي للاشخاص الذين اعتنقوا النازية ، والثانية ، العناصر المميزة في الايدلوجية النازية التي جعلت انصارها يقبلون عليها ، ان الطبقة التي اقبلت على الايدلوجية النازية واعتنقتها بحماس ، هي الطبقة البورجوازية الصغيرة . كانت الطبقة العاملة تقف موقف المعارضة الشكلية ، اذ ان خيبة املها بعد الحرب وما رافقها من ازمات وعدم استقرار جعلها منهكة ويائسة من جدوى اي كفاح . كما ان البورجوازية الصناعية كانت على استعداد لقبول اي وضع فيه حد ادنى من الاستقرار . اما البورجوازية الصغيرة فلقد وجدت فيها الحل الامثل لجميع مايصادفها من ازمات ومشاكل وذلك لاسباب عديدة اهمها :

١ ـ ان الهجوم الذي كانت تشنه النازية ضد الاقليات ، ورغبتها في السيطرة على الامم الاخرى ، قد كان فيه ارضاء لنزعاتها السادو ـ ماسوكية.

٢ ـ لقد كان سقوط القيصرية الالمانية انتهاء لقوة عظمى كانت تتقمصها فتبعث فيها شعور التفوق على الطبقة العاملة .

٣ ـ ان ظروف ما بعد الحرب قد رفع من اهمية الطبقة العاملة ،ففقدت البورجوازية الصغيرة الاحساس بان هنالك طبقة ادنى منها في المستوى الاجتماعي الامر الذي كان يرضي حبها في السيطرة والتعالي .

٤ ـ لقد ضاعت هيبة الدولة من النفوس ، اذ مادامت هذه الدولة لاتستطيع ان تحافظ على قيمة النقد الذي يحمل توقيعها ، فهي بالفعل لاتستحق الاحترام . ومن المعلوم ان سعر المارك تدنى في المانيا بعد الحرب تدنيا رهيبا حتى اصبح الدولار الامريكي الواحد يساوي بليونين ونصف البليون من الماركات ، وهكذا فقد اصبحت تحويشة العمر لاقيمة لها على الاطلاق ولم يعد هنالك اي فارق بين هذه الطبقة والطبقة العاملة.

٥ ـ كانت العائلة بالنسبة للبورجوازي الصغير هي المجال الذي يستطيع فيه ان يثبت سلطته ، كما انها كانت تعطيه بتماسكها وخضوعها له الاحساس بالاتحاد مع الاخرين . ولكن الحرب واضطراب الاحوال المعيشية في المانيا دفعت جميع افراد الاسرة للعمل مما ادى الى تحطيم الوضع الابوي للعائلة ، كما ان الشبان الذين كانوا اشد تلاؤما للظروف

الجديدة وقدرة على التكيف خلقوا فيهم الشعور بان الحياة تخطتهم .

لهذه الاسباب مجتمعة كانت تحس هذه الطبقة بالوحدة والعجز وترغب في ايجاد وضع ابوي كذلك الذي كان سائدا ايام القيصرية .

اما النازية فيجب ان تفهم اساسا على انها حركة انتهازية ؟ واصدق دليل على ذلك هو موقفها من الاحتكار المالي . انها في الوقت الذي كانت تعد فيه الجماهير بتحطيم سيطرة الاحتكار والبنوك ؟ لم تفعل شيئا سوى انها عززت سلطة الاحتكار واشركت الطبقة البورجوازية الصغيرة في الحكم وخلقت وضعا تستطيع هذه الاخيرة من خلال خضوعها ان تستريح فيه من عناء وحدتها .

كما ان النازية اعادت تربية الشعب الالماني بحيث يصبح خادما مطيعا للاحتكار ، تماما كما قام لوثر بخلق انماط انسانية اصبحت فيما بعد الدعامة الاساسية للتوسع الالماني .

ان نزعات هتلر والنازية السادية قد اصبحت مجرد مكاسب للاحتكار الالماني ، هذه النزعات التي تبدو خلال كتابه « كفاحي » ؟ فهو يصف الشعب الالماني .. « كالمرأة .. التي تفضل الخضوع الرجل القوي على ان تسيطر على الرجل الضعيف .. ان الجماهير تميل الى عقيدة لاتقبل النقاش ، ويفضلون مثل هذه العقيدة على الحريات الديمقراطية التي غالبا مايشعرون بعدم جدواها ؟ والتي تؤدي الى احساسهم بالوحدة. »

وفي مكان اخريتحدث هتلر ان خير توقيتلعقد الاجتماعات الجماهيرية هو في المساء حيث يكون الانسان متعبا ويائسا ومستعدا للخضوع ، « انهم في المساء اكثر استعدادا للخضوع لارادة متفوقة » .

ويشعر هتلر ان الجماهير التي ارضى رغبتها في الخضوع ، عليه ايضا ان يرضي رغبتها في السيطرة ، ان زعيم الجبهة العمالية في عهد هتلر يقول :

« نود ان يمتلكوا ارادة القائد ، وان يكونوا سادة ، وبكلمة مختصرة لان يحكموا .. نود ا ن نسيطر وان نستمتع بذلك .. سنعلم هؤلاء الرجال ركوب الخيل .. حتى نخلق فيهم شعور السيطرة المطلقة على كل كائن حي .. »

ولا يحاول هتلر ان يخفي مايشعر به من احتقار للشعوب المتخلفة :«ان بعض الفقراء الاسيويين ، او امثالهم ممن لايهمني امرهم قط ، بعض الهنود الحقيقيين ، المكافحين من اجل الحرية ! » كانوا يجوبون اوروبا هادفين تجنيد بعض الاذكياء لتبني الرأي القائل بان الامبراطوريةالبريطانية على حافة الانهيارفي الهند ،التي تسمي درة التاج البريطاني. ان المتمردين الهنود لن يحققوا شيئا من هذا ... اذ يستحيل ان تستطيع جبهة من الكسحاء ان تعصف بدولة قوية .. انني لعلمي الاكيد بانحطاطهم العرقي لن اربط مصير امتي بمصير من يسمون انفسهم بالشعوب المضطهدة . » كما ان هتلر ذاته كان يعتقد انه خاضع لقوة عليا تأمره وتسيره الى الاهداف التي نذر نفسه لتحقيقها ؟ « ان المهمة الملقاة على عاتق الامة الالمانية هي ارادة الرب » ؟ كما يقول في كتابه كفاحي .

الخروج من العزلة

لقد اصبحت في اذهان الكثيرين كلمة ديموقراطية مرادفة لكلمة فردية ، واصبح المجتمع الفردي هو ذاك المجتمع الذي يتمتع فيه الفرد بحرية كبيرة في ان يعبر عن نفسه ، وفي ان يختار الطريق الذي يتلاءم مع طبيعته ، ولكن لاشيء ينقص مجتمعنا كما تنقصه الحرية .

ان الانسان يشعر دوما بوضاعته وعجزه ، فهو يواجه بالعمارات الهائلة ، المنظمات السياسية الضخمة ، القوة الجبارة التي تستطيع ان تغني الالاف في رمشة عين ؟ وعشرات المظاهر التي تبدو له انها اهم من اي انسان بالذات .. ان المجتمع يمتص منه كل طاقة على التفكير وكل شعور بالكبرياء .. انه بدلا من ان يعطي منهجا للتفكير يفرض عليه ركاما هائلا من الحقائق يسحقه ويجعله في حيرة ويأس من ان يصدر حكما على اي شيء . انه يذكر كل يوم ان الحقائق نسبية وان لا فائدة من البحث والوصول الى نتيجة لانها ستكون صحيحة بالنسبة له فقط .. ان اية محاولة لابداء الرأي مضحكة وضارة فهنالك المتخصصون وعليه ان اراد ان يحكم على اي مظهر من مظاهر الحياة ان ينتظر حتى يفرغ من دراسة الموضوع من جميع نواحيه ، لكل فرع ، بل لكل جزء من فرعاختصاصيون يفنون اعمارهم لاتقان هذا الجزء ، فكيف للانسان العادي البسيط ان يصدر حكما او حتى ان يجد في نفسه الثقة للحظة واحدة ان يفكر باصدار حكم ؟

ويعود هذا الانسان ليدير جهاز الراديو فيسمع المذيع بصوته الامر القوي يذكراخبار فيضانات ومذابح راح ضحيتها مئات الالوف ، وعن طبق طائر ، وعن مزايا الصابون المعطر ، ورجال الملايين الذين وصلوا الى ملايينهم لانهم يدخنون احد اصناف السجاير .. وكل ذلك بنفس الصوت الامر المليء بالثقة .. وفي الشارع يواجه باعلانات ضخمة عن مسرحية لارثر ميللر ، وعن الكوكاكولا ، وعن كتاب عن الصواريخ يشيد بجمال حسناوات المريخ ..

ويقنعه العليمون ببواطن الامور ان الانسان المتحضر هو ذلك الذي يفكر دون انفعال ، يقال ان التفكير عملية باردة كمجموعة ارقام ، وتقوم فلسفات كاملة ينشرها فلاسفة ينوءون بعدد ضخم من الجوائز الرسمية تحت اسم الوضعية والتجريبية وغيرها من الاسماء لتأكيد هذه الفكرة ؟ ولتأكيد رأي اخر اكثر خطورة وضررا وهو ان كل الاشياء مجموعة ظواهر متفرقة لارابط بينها ، ولا علاقة .. ان الذين يفكرون وينفعلون بافكارهم هم مثيرو الفتن . وهكذا يبدو المفكرون الذين غيروا وجه التاريخ والذين كانوا يتحمسون لافكارهم حتى التضحية بانفسهم ، يبدو سقراط وجاليلو ولافوازييه ، وروسو ، وفولتير وتوماس بين مجرد اناس ذوي ذقون طويلة ومضحكون .. ان الحماس والانفعال - يقال له - هما طابع الافلام المثيرة ، وموسيقى الجاز ، والاغاني السخيفة ..

ولا تكتفي المدنية الحديثة بان تملأ الانسان بكل هذه الروائع فهي تضع له المثال الذي عليه ان يحتذيه .. انسان يحركه الشعور بخطيئة غامضة يندفع ليل نهار باحثا عن النجاح .. يدفعه القلق والخوف من غضب المجتمع عليه، والشعور بالوحدة ، وانهاك داخلي ..

ان انسانا تخلقه هذه الحضارة هو الانسان المتكيف والمحدد اجتماعيا وحسب ، انسان لم يتفاعل مع المجتمع بل جعل

من ذاته معرضا لجميع القيم الاجتماعية دون نقاش ،ان مثل هذا الانسان وان يكن حيا بيولوجيا ، ولكنه يعتبر ميتا عقليا وانفعاليـــا .

ولكن هل يعني هذا ان كل تطور زائف ؟ وان الحل هـو ماينادي به رجعيون امثال ت.س. اليوت وهو الرجوع لحياة القرون الوسطى ولسلطان الكنيسة الكاثوليكية ؟ هل هـي الخطيئة الاصلية التي لازمت ادم وحواء مذ اكلا من شجرة معرفة الخير والشر ، فاكتشفا فجأة العناء والعذاب والالام والصراع الذي يرافق المعرفة والحرية ؟ ان التوراة تقـول لنا ان باب الجنة قد اغلق دوننا ، كما ان الكروبيم يحمـل سيفاذا لهيب متقلب لحراسة طريق الجنة حتى يمنـع الانسان من العودة .

وليس عدم امكانية الرجوع الى حياة القرون الوسطى هو مستحيل وحسب ولكنه ضار ايضا ؟ فان التحرر مـن قيود الحياة الاقطاعية ، والتخلص من العلاقات الاولية التي كانت تغل حرية الانسان هو خطوة ذات اهمية بالغة ، ومـا علينا الا ان نخطو الخطوة الاخرى وهي تحقيق المعنـى الايجابي للحرية .

ان الخطوط العريضة لهذا الحل في المجال الاقتصادي، هو التخطيط والتوجيه الاقتصادي ، حيث تصبح القـوى الاقتصادية وبالتالي القوى الاجتماعية خاضعة لسيطـرة الانسان ومفهومه له تماما . ان هذا ينقل معركة الانسان من مرحلة التخبط والضياع داخل صراع اجتماعي لا مبرر له الى مستوى معركة الانسان ضد الطبيعة مباشرة .

ان فهم العالم وقوانينه في المستوى الاول للمعركة يقود للثورة ، ولهذا السبب يجهد فلاسفة المجتمـع الحديـث لتمييع وعي الانسان بالعالم ، وان الانفعال الذي يرافـق الفكرة يقود الانسان الى تحقيق هذه الفكرة في العالـم الخارجي . اننا ننتقل بالانسان من مرحلة المتحرر الـى مرحلة الثوري ، ونعيد انتماءه الى العالم وللاخرين .

ان العفوية تصبح طابع فعل الانسان الجديد تقوم بـه الشخصية ككل متكامل حيث لاتفصل بين الانفعال والتفكير . ويمكن ان نضرب لذلك مثالا بالعمل الفني الممتاز حيـث يلتحم الفكر والانفعال والحدث في كل عضوي موحد ، ان الفعل لايعود محددا بقيم النجاح الاجتماعي والتفوق علـى الاخرين ، ولا يعود دافعه الخوف من الوحدة ،او عـدم الاطمئنان للمستقبل ، ان الفرد يصبح هو ذاته ، وينتقل من مرحلة التاجر المضارب الى مرحلة الانسان .

ولكن قد يعترض البعض بان مثل هذا المجتمع سـدى يكون طابعه الفوضى . الواقع ان العكس هو الصحيح ، ان الفوضى التي تعم المجتمع الحديث هي نتـاج الفوضى الاقتصادية والرغبة في التحطيم وحب السيطرة التي تنبع كلها من جذر واحد وهو رغبة الانسان في الربح ، التـي اخذت مكان هدف اخر هو ان نعيش حياتنا بعمق وسعة .

الانسان العربي في المأزق

ان التخطيطات السالفة لاتنطبق على مجتمعنا العربي تماما بسبب اختلاف المرحلة التي يمر بها العالم العربـي وبسبب اختلاف الظروف التي تواجهه . فالمجتمع العربي مازال تسيطر ـ بشكل عام ـ عليه العلاقات الاقطاعية التى نمت في داخلها بعض علاقات واشكال الصناعة المتقدمة التي غالبا ماتنمو وتتأكد خلال صراعها مع العلاقات الاقطاعيـة، ولقد استطاعت ان تحقق انتصارات هامة من مظاهرها النمو السريع للمدن في العالم العربي والتحول التدريجي الـذي طرأ على اسلوب استغلال الارض : من المحاصصة الـى العمل المأجور .

الا ان الاسلوب الذي يتم به هذا التغير تجعل الانسان داخل هذا المجتمع متوترا وخائفا . ان الشاب او الفتاة اللذين يغادران القرية ليصبحوا طلبة ، او عمالا ، او موظفين صغارا يواجهون بعالم يرفضهم ويخلق فيهم احساسا مريرا بالغربة . ويشعرون دوما بانهم مهددون . وبكلمة مختصرة انهم يواجهون عالما قد تخلص من جميع العلاقات الابويـة والاولية التي كانت طابع قريته .

ووضعت حلول كثيرة لمعالجة هذا الموقف ، ولكن ، حتى الى وقت قريب ، كان أكثر هذه الحلول شيوعا هو الدعوة للرجوع الى العلاقات الاولية . فخلقت منظمات ضخمة ذات طابع ديني متطرف لاقت اقبالا منقطع النظير يؤكد هـذه الدعوة للرجوع للعلاقات الابوية والحق ان سبب الانتشـار السريع لهذه الدعوة لم يكن سببه غربة الانسان في المدينة وحسب ، وانما هنالك سبب يفوقه اهمية وخطورة وهـو انه حتى الان مايزال طابع الافكار السائدة هو طابع المجتمع الاقطاعي .

ولتأكيد هذه الفكرة ساضرب مثلا مطولا بعض الشيء . في كل يوم تتلقى معظم المجلات في العالم العربي وغيرها من وسائل النشر مئات الرسائل التي تحمل هموما ومشاكـل

شخصية وتطالب بالحل . ولو أننا القينا نظرة على الحلول التي تذاع لتأكدت لدينا هذه الفكرة .

فمثلا هذه مشكلة لاتكاد تخلو منها مجلة : فتاة تحب شخصا اسلمت له نفسها في لحظة ضعف وهو لم يعتزم على الزواج او يؤجل هذا الزواج بسبب ظروف معينة .. فما هو الحل ؟ ساختار بعض الحلول من عدد من المجلات ، فهذه مجلة تعتذر لعدم احتواء قاموس اللغة على نعوت كافية لتصف مدى انحطاط هذه الفتاة .. وعلى كل حال فالذنب ذنبها .. وترد مجلة اخرى : انها تستنكر انتماء هذه الفتاة الى بنات حواء الطاهرات الذيول الخ .. وتجمع هذه المجلات ان اخلاص الفتى - وهو غالبا مايطلق عليه اسم الذئب - مرهون بالذهاب الى والد الفتاة وعصر يديه طالبا القرب . اي ان هذه المجلات ترى ان الطريق للعلاقة بين الفتى والفتاة يجب ان يمر اولا خلال الاب - وتحمد الله لجهل هؤلاء السادة والسيدات اذ هم لايعلمون ان هنالك مجتمعات ليست طريق الاب فيها سهلة يسيرة الى هذا الحد ، ففيها على طالب القرب ، قبل ان يتوجه للاب ، انيحمل على راس رمحه رؤوس عدد من الرجال والاسود والنمرة .

وعندما يطرح الشاب مشكلة قلقه من عالم غير مفهوم وغير حنون ،ينصح بان ينضم الى احد الجمعيات الخيرية وان يشد على وجهه ابتسامة لكل من يلقاه . فهذا شاب قد طرح المشكلة التالية : انه يحس ان العلاقات الانسانية اصبحت مجرد علاقات تبادل ، وان مدى الاحترام والحب الذي يناله الانسان مرهون بالمركز والجاه والقدرة ؟ وان الابتسامة لها دلالتها النفعية قبل ان يكون لها دلالتها الانسانية ... ترى بماذا جوزي هذا الشاب على حساسيته وفهمه الممتاز للعلاقات الاجتماعية ؟

كان الرد بان ماعليه الا ان يتخطى عتبة احد النوادي حتى يفتح الله ويزيل مابنفسه من الوساوس والاوهام .

وعندما يختار الشاب فتاة اقل منه في المركز الاجتماعي وخلافا لرغبة الوالدين ، فهنا الطامة الكبرى ، فما عليه الا ان يفيق من نشوة فسوقه لينال جزاء فعلته النكراء .

وتتساءل احدى المجلات باستمرار : كيف تعرفت به ؟ واي جنون دفعك الى الخلوة به ؟ الم تعرفي بعد قسوة الذئاب البشرية ؟ وتبدو المسألة كانه من المستحيل ان تتعرف فتاة على فتى في مجتمعنا وان تخلو به ؟ وكان حدوث ذلك امر مخالف لكل نواميس الطبيعة . واذا عزم اثنان من دينين مختلفين على الزواج فينصحان بان السكرة ستذهب غدا وتأتي الفكرة او شيء كهذا !

ان اخطر مافي المسألة ان يكون طالبو النصح هؤلاء ممن تنقصهم روح الفكاهة فيحملون كل مايقال محمل الجد ، وهم لايدركون ان معظم هؤلاء الذين يسدون لهم النصح هم احرى الناس بملء عشرات الصفحات شكاوي من جور الزمان ومصائب الدهر .

هذه عينات قليلة ، وهي في رأيي ، ذات دلالة على نمط الافكار السائدة في مجتمعنا ، ونحن بالطبع لانستطيع ان نناقشها بمعزل عن الظروف الاجتماعية ، فالتصنيع والمدن الكبيرة تتيح للجنسين فرصا كبيرة للتلاقي والتعارف وتفرض علاقات معينة بين الجنسين ، فعندما نحاول ان نتجاهل هذه الحقيقة ونصر على ان العلاقات ذات الطابع الانفصالي هي التي يجب ان تسود بين الجنسين فاما ان يؤدي ذلك الى تجاهل هذه الافكار كلية ، او الى ان يحيا الانسان حياتين مختلفتين ، فمثلا الفتاة تمثل دور الخجل والبراءة في الظاهر ، وتخفي ، من ناحية اخرى ، علاقاتها التي لايرضى عنها المجتمع والتي لاتستطيع تحقيقها من خلال مجال اجتماعي معترف به . ومن الواضح ان شخصية تعيش مثل هذا الانفصال لايمكن ان تكون منتجة ومفيدة .

اننا عندما نمنعها من ممارسة حريتها فنحن نسلبها احترامها لنفسها واحترامها لكل قيمة اجتماعية . اننا نخلق زوجات يخن ازواجهن ، ونساء ضيقات الافق ومتعبات نفسيا . وهكذا فان دور الافكار هنا هو دور معكوس ، لايعجل بتحطيم العلاقات الاقطاعية ولكنه يؤكدها ، ولايساعد على تطوير مجتمعنا ولكنه يشده الى الوراء .

ان ماتقدم يطرح مسألة في غاية الاهمية : وهي ماهو موقفنا من تراثنا الاجتماعي ؟ هنالك فكرة شائعة - للاسف - وهي اننا مادمنا امتدادا لاجيال سبقتنا لها تراث وثقافة معينة فان علينا ان نحافظ على ذلك ونتبناه . ويضيفون ، في العادة ،كلمات لايعنونها كأن نحافظ على الجوانب المتقدمة في تراثنا ونأخذها لنا مثالا نحتذيه ، وعندما ينسحب هذا الرأي على التطبيق ترى أنه يقتصر على احياء ذكرى بعض الادباء العرب ، وذكر امجاد الخلافة العباسية ، مما يدل دلالة قاطعة على ان هؤلاء الناس لايدركون معنى التراث ولا سبل تطويره .

وسأضرب مثالا لمشكلة في تراثنا تواجهنا ، ان الذين نشأوا في بيئة الفلاحين او اختلطوا بهم الاختلاط الكافي يدركون الحقيقة التالية جيدا : وهي ايمان الفلاح المطلق بالقدر وبعدم جدوى مقاومة اي سلطة تبدو له انها ذات طابع حتمي . ويأخذ هذا الاعتقاد في نفسه طابعا دينيا . هذه بالطبع ظاهرة مبررة في ظروف الفلاح نفسه ، فهو

يعتمد في زراعة ارضه على المطر الذي قد يجيء وقد لايجيء ؟ وحياته تنتهي لاسباب لايعرفها وهو غالباما يرجعها الى اسباب خلقية ؟ وهو يرى من الحكومة ذلك الجانب الذي يرغمه على دفع الضرائب ويسوقه للسجن بسبب قوانين لايفهمها . كما ان جميع ثوراته كانت تمني بالفشل، وهكذا يبدو العالم له وكأنه مفروض عليه ولا حيلة له فيه.

وعندما ينتقل هذا الفلاح الى المدينة كعامل او كموظف صغير فهو لاينسى هذا الجانب من تراثه ، ففي اماكن كثيرة من العالم التي اتيحت لي زيارتها كنت أشاهد السيارات تعلق على واجهاتها تمائم وحجبا وخرزا ازرق كما تكتب عليها شعارات كالتالية : وما توكلي الا على الله ، او ، سيري فعين الله ترعاك ، عين الحسود فيها عود يارضا الوالدين ... الخ ... والظروف التي تدعوه لهذا الاعتقاد لاتختلف عن الظروف التي تدفع الفلاح للايمان المطلق بالقدر . انني ساطرح هنا خطوطا عريضة تشكل في رأيي الاساس لتطور مجتمعنا ولمعالجة مشكلة التراث :

١ ـ ان الملاحظ ان المنظمات ذات الطابع الديني المتطرف التي كانت تقوم في العالم العربي ، والتي كان تنظيمها يقوم على اذابة كل اثر للحرية الفردية وخلق علاقات ابوية تشبه الى حد كبير العلاقات الابوية التي كانت سائدة في القرية كانت تتلاشى بسرعة عجيبة بمجرد ان تواجهها ازمة من الازمات . ان دلالة هذا هو استحالة الرجوع الى العلاقات الاولية التي كانت تنظم حياة القرية فيما مضى . يضاف الى ذلك ان محاولة الرجوع الى تلك العلاقات فيه قضاء على الحرية الفردية وتعطيل لكل القدرات الانسانية المبدعة ولكل ما احققناه وضحينا في سبيله من مكاسب . ان تأكيد هذه العلاقات من خلال المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية يعني تعميق الاستغلال الاقتصادي ، والرجعية السياسية ، والتأخر الاجتماعي .

٢ ـ التصنيع لكل المرافق وادوات الانتاج ووسائله اذ هو يشكل العامل الاساسي للقضاء على هذه العلاقات ولخلق مجتمع جديد متقدم . ولكن هذه الخطوة ، اذا اقتصر عليها ، ستصبح عديمة الجدوى لانها ستؤدي في النهاية الى خلق انسان مفرغ ، ضائع ، هدف لكل دعاية رجعية لان تسوقه وتتحكم فيه . ان انسانا متحررا من العلاقات الاقطاعية والابدية ، يفتقد في الوقت ذاته الاطمئنان على مستقبله ، معطل الطاقات والقوى ، يفتقد حريته ، والفرص لتحقيق طاقاته الحسية والانفعالية خلال اطاره الاجتماعي هو اسوأ نتاج لاي مجتمع ، انه انسان من الناحية البيولوجية وحسب .

٣ ـ أن هذا يستلزم خطوة ملازمة لعملية التصنيع وهي تنظيم اقتصاد المجتمع بشكل يتيح للاكثرية من الناس ان تشارك في الثروات الاقتصادية والثقافية للمجتمع ، كما تتيح له السيطرة على هذا المجتمع وتوجيهه حتى يصبح مفهوما وخاضعا لارادته ومصلحته .

غالب هلسا

القاهرة

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

★

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

★

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان

او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

★

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

★

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣



« استيقظت صباحا مستريح الخاطر ، هادىء البال . كأنما ولدت نفسي من السديم من جديد .

ورغم الصداع الذي كنت اشكو منه ، فقد كنت اشعر براحة نفسية غريبة عميقة .

ولكن .. وبكل أسف لم يدم ذلك الشعور وتلك الراحة زمنا طويلا، فسرعان ماهاجمتني افكاري اليومية التي كنت ارددها دوما حتى اعتدتها واصبحت اشعر بالحنين اليها كلما شغلت عنها ، وافرح بلقاها كلما طال بعادها .

ولكنني في هذه المرة شعرت بنفسي بيضاء نظيفة جديدة ، واضطربت عندما عادت افكاري المعتادة الي ، فاستقبلتها بفتور !

كان علي مساء ان اذهب للاستماع الى محاضرة الاستاذ « هـ » ولقد قررت الذهاب الى « الجمعية الادبية » وليس ذلك حبا بالاستاذ واعجابا به ، فهو رتيب كئيب ، انما كي اشعر بنفسي كلما وجدت في مجتمع اكاد ان اجهله بكليته .

وهكذا كان .. وفي المساء ذهبت الى مقر الجمعية الفاخر وقبل الساعة المضروبة بنصف ساعة ، فلم اجد هناك سوى فئة قليلة من اعضاء الجمعية ، بالبستهم الانيقة ، ووجوههم « اللماعة » الهادئة ، ومنها تطل الرفاهية والدعة ، والراحة .. والحقارة ايضا ..

واقبلت عليهم مسلما .. فردوا التحية بفتور ، ثم نظروا الي شزرا، وبأزدراء !

فضحكت بهدوء ، ثم بعنف شديد . وكنت اريد ان ابين لهم حقارتهم فقلت : « سادتي .. انه ليشرفني ان ازور جمعيتكم الموقرة . وان استمع الى المحاضرة القيمة التي اسهمتم في تقديمها »

فأجابني احدهم ، وهو رجل قد جاوز العقد الرابع من عمره ، وعلى انفه الدقيق نظارة سميكة ، وكان رأسه كرأس عصفور . اجابني بقوله وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مصطنعة : شكرا ... عال .. حسنا .

فضحكت في قرارة نفسي . وقلت : ياللسخف ، والتناقض ! اين الكرم وحب الضيافة ؟

وهززت كتفي استخفافا ومضيت الى اول مقعد فالقيت بنفسي فيه .

وبدأ الناس بالتوافد ، وامتلات القاعة تقريبا .

وفجأة لمحت وجه صديقي « ك » الذي تشاجرت معه البارحة بسبب قصة عادية . فاقبلت بنظراتي عليه مسلما ، فلم يعرني التفاتا .

فعذرته وقلت : لعله لايزال على غضبه !

فنهضت وذهبت اليه توا ، وكان رأس العصفور في ذلك الحين يتكلم معه وقد بدأ منشرح الصدر !

قت لصديقي « ك » وكأنني اتابع حديثا سابقا :

ــ لست اسفا عى ماحصل ! المهم ان ترضى وارضى ثم ننسى .

فالتفت « ك » الي كالمصعوق وقال :

ــ شكرا .

واحسست بهذه الكلمة كالقذيفة .

والتفت الي رأس العصفور متابعا حديثه .. ولكنني لم اياس ولم انزعج وداخلني شعور التلميذ امام عتبة الامتحان فقلت لنفسي : ساجتاز هذا الامتحان بنجاح . فاستقمت ، واصلحت من وضع ربطة عنقي . وتنحنحت وهمست :

ــ لا شك ان القدر قد داعبنا بخشونة ! أليس كذلك ؟

فالتفتت عيناه نحوي ثم عادتا الى مكانهما السابق ..

وتابع الحديث ..

وهممت بالمثابرة حتى النجاح ، ولكنني وجدت ان هذا عمل لا جدوى منه ، وان « ك » سخيف تماما .. وبعد فالحياة هكذا ..

فابتسمت طويلا،طويلا ؟! ولبثت في مكاني محملقا في الرجلين اتابع كلامهما بعيني . وكانما شعرا بوطاة نظراتي « الذكية » فابتعدا .. فرفعت يدي ، لاضع وجه « ك » ، بالقفا ، كما يجب ، وكما كان من حقي ان افعل لابرهن على حريتي في الوجود .. كنت اريدها صفعة مدوية لتوقظ حواسي .. وارتفعت يدي بالفعل .. ولكن حانت منه التفاتة فسقطت يدي الى جانبي ..

وصعد الاستاذ « هـ » الى المنصة ، وانهال علينا بكلام . فحدقت فيه وقد لمعت نظارته الذهبية فوق انفه الضخم . تخيلت انه ابكم ، وانه يحرك يديه ، ويفتح فاه .. بدون صوت . فضحكت بسرور لهذه الفكرة .. اللذيذة .. واستدارت الرؤوس ، وصوبت النظرات علي . وعلمت ان ضحكتي جاءت بعد حملة مليئة بالعواطف الحزينة ، والمرارة الاكيدة عن حبيب هاجر لئيم ، وصفه احد الشعراء !

فتركت المحاضر ونظارته ، وتحولت الى الاخرين . وراعني مشهد الرؤوس من الخلف ، وقد استدارت كمكرات البطيخ ورحت اعدها مرارا وتكرارا . وفجأة وقعت على شخص غريب في الطرف المقابل .. أبيض

الوجه ، أزرق العينين .. زرقة باهتة سخيفة بلون دخان السيجارة .
وانتابني شعور قوي بكراهية العيون الزرقاء وعجبت لألوان العيون !
كان الرجل قد جلس بهدوء واطمئنان صفيق ، واضعا رجلا فوق رجل ،
ووضع امامه : كرشا صغيرا مكورا .

كان ينظر الى الامام برقاعة ! وما لبث أن اخرج من جيبه غليونا غليظا ،
فوضعه في زاوية من فمه وراح يدخن بغطرسة !.. فتألمت لذلك الحال
وقلت : يا له من مسكين لو كان مكاني لادرك انه لا شيء .. لا شيء على
الاطلاق.

ولكنه ـ الصفيق ـ كان يبدو مغتبطا بوصفه اذ كان يحدق بثـــقة
واطمئنان فاسفت لكوني مرتبطا بشعوري مع الاخرين . وبأن حريتــي
مرتبطة بذلك الشعور . وقلت : آه . لو كانت لي حريتي المطلقة الكاملة
اذا لقذفت بوجه هذا المتكبر المتغطرس بشيء ما ... بحذائي مثلا ؟!..
ولالقن هذا المغرور درسا في الوجود العادي .. العادي جدا لهذا الجدار.
ولكنه لو ادرك نفسه هذه المشكلة لداخله الشعور بالحقارة .. الحقــارة
لنفسه وللجميع ، ولعدل من جلسته هذه حالا وبسرعة . ولدخل فــي
طور جديد مثلما دخلت انا .

وتركته ، بنظراتي ، رغم شعوري الشديد بالانجذاب نحوه . واسترقت
النظر ، كطائر ، الى قدمي الاستاذ المحاضر ، فراعني انهما ضــخمان !
وتخيلته حافي الاقدام .. فابتسمت ، ثم ضحكت فالتفتت الرؤوس
(ككرات البطيخ) ونظرت الي .. فزاد ضحكي .. وحانت منـي التفاتـة
الى جاري فرأيت الدموع تطفر من عينيه ، وعلمت فيما بعد ان المحاضر كان
قد استرسل في حديثه عن نفس الشاعر والحبيب الهاجر !.. عجبا .

قلت : فلنقلب الصفحة ولنغير الموضوع عمدا .

ونظرت الى اليمين فرأيت امرأة في الثلاثين من عمرها ، وقد استقرت
على كرسيها بهدوء واحتشام . وضعت يديها على ركبتيها منبسطة ،
والصقت ساقيها الواحدة جانب الاخرى . واستكانت تقاطيع وجهها ، كوجه
لعبة ، لا تنطق بشيء .

ولمعت ، فجاة ، عيناها الخضراوان بنور غريب ، بينما التصقت شفتاها
الصغيرتان ببعضهما دون حراك . وخيل الي بغتة انها قطة ، ذات عينين
خضراوين براقتين ، وقد القت على مؤخرتها ، واتكـأت على طرفيهــا
الاساسيين ! وعدت بسرعة ، بعد ذلك ، الى المرأة نفسها احمـدّق فيها .
وقلت لنفسي : انها قطة حتما .. وككل قطة فهي تحب اكل اللحوم .
وشعرت بان هذا الاستقراء ذو حقيقة . ورغبت ، أسفا ، لو اننــي
استطعت بعد المحاضرة ان اتاكد من ذلك بصراحة ... ولكن هيهات !

ويظهر ان المحاضرة قد انتهت ، او هكذا خيل الي ، لست ادري ،
وصفق الناس ، فنهضت لانني شعرت بالتعب والضيق وافسحت لنفسي
طريقا بين الحاضرين وخرجت .. واذا بجاري « العاطفي » يخرج ثـم
يستدير نحوي ويقول باسما :

ـ لم تنته المحاضرة بعد .. فلماذا خرجت ؟

فاجبت :

ـ لقد انتهى كل شيء ، بالنسبة لي .. انه العدم !

ضحك فقال :

ـ لقد ضقت ذرعا بكلامه آخر امري ، وادركت عقدة نفسه الحقيقية ،
ونقطة الارتكاز !

قلت :

ـ ما هذا ؟ ماذا تقول ؟ بل ماذا تريد ؟ قل ، افصح !..

ضحك .. وتنهد ، ثم قال :

ـ فلننهض .

ووددت ان اقف لاصيح به مستغربا :

ـ اين تريد الذهاب ؟ ومن انت ؟ انا لا اعرفك !

ولكنني لم انبس ببنت شفة وتابعت المسير . بينما وضع يديـه فـي
بنطاله وانطلق بخطى وئيدة حثيثة !

قال :

ـ لعلك من عشاق الادب ؟

فقلت ببرود :

ـ كلا .

قال :

ـ اذا فانت من اولئك المدعين الذيـن يدافعون عن اغرب النظريات في
الادب بغية الشهرة !

فقلت :

ـ وما هي الوجودية هذه ؟

وهنا توقف عن مسيره وحدق في وقال بهدوء رهيب :

ـ هل انت موجود ؟

ففكرت لحظة بجد ووقار واجبت :

ـ لست ادري !

وارتسم العجب على وجهه، وجحظت عيناه حتى كادتا ان تتركا محجريهما

وقفل راجعا وقال :

ـ سأعود .

فقلت ، وكأنني في غيبوبة

ـ وداعا !

ورفعت يدي الى اعلى ثم سقطت الى جانبي .

تنفست الصعداء بعد لحظة ، كأنما أزيح ثقلا كان يرزح على كاهلي.
وقلت لنفسي : يا للحماقة !.. بل يا للجهل .. ولكن فلادعه مع الشاعر
وحبيبته .. والمحاضر والقطة .. فلسوف يصل الى نفس النتيجة ..

وظللت بضع دقائق وانا انظر يمنة ويسرة ، فلم يكن لي وجهة معينة،
والوقت مبكر ، ولم اكن اشعر برغبة في النوم . ورحت افكر في وسيلة
لتمضية الوقت والسهرة ! ورغبت في زيارة مكان لم أزره منذ زمن بعيد .
ولكنني بعد ان استعرضت الاماكن التي اعتدتها وجدت انني قد زرتهــا
منذ امد قريب .

وهنا ، جاءتني فكرة جديدة (وشد ما احب في نفسي هذه الطبيعة
ايجاد الافكار السريعة والحلول العملية ؟!) ان اذهب فازور طبيبا مــا
واقص عليه قصة طويلة عني ، فقد مضى زمن طويل لم أر فيه طبيبا . وقد
اقع على ما يسليني ويربطني بوجود الاخرين .

مشيت وانا اقول : سأدخل الى ثالث طبيب اصادفه في طريقي.
وبدأت اعد وانا اتصفح لافتات الاطباء : واحد .. اثنــــان .. ثلاثة
وصعدت السلم بسرعة ودخلت .. واذا بغرفة الانتظار ، وشاب (يظهر
انه الممرض) يستقبلني بابتسامة ترحاب ، ورجاني ان انتظر لحظة ففعلت.
وعندما استدرت وجدت نفسي امام وجهي .. في المرآة .. فاقتربــت
وصحت :

ـ يا الله لشد ما تغيرت حتى لم اعد اشابه نفسي القديمة مطلقا . ما
اصعب تحمل الحقيقة والاعتراف بها !

شعرت بسرور عميق ، سحيق في قرارة نفسي .. لان شيئا ما قــد

تغير ! ورحت احدق من جديد واتفحص التفاصيل والدقائق ، ووجدت ان عددا من الجزيرات قد بدأت في الظهور في رأسي بسبب سقوط شعري مع تقدمي في السن ، وازدادت تجاعيد وجهي عددا وزادت عمقا وحدة . وراعني ، خاصة ، هزالي وشحوبي. فاصابني ما يشبه الذهول.

وجاء الممرض يدعوني لدخول غرفة الفحص .. وفعلت . فوجدت الطبيب وقد انتصب وراء منضدته مرحبا !

وجلست بعد ان دعاني وقال :

ـ ما بـك ؟

واستدركت شجاعتي فجمعت اطرافها وحملقت في الجدار امامي هنيهة وقلت :

ـ انني اشكو .. اشكو من كل شيء.

فقال :

ـ حسنا ولكن اليس هناك من موضع يؤلمك اكثر من غيره ؟

قلت :

ـ هذا بالضبط ما عنيت !

قال :

ـ عال .. اين ؟

ـ هنا

واشرت بسبابتي الى صدري . قال :

ـ هنـــا ؟

قلت :

ـ نعم انني اشعر بنخرة هنا .

قال :

ـ هل تسعل ؟

قلت :

ـ احيانا ، واضفت :

ـ ثم انني معدوم القابلية والنوم ، ولقد فقدت من وزني الكثير .

وبدا الجد والصرامة على وجهه . وتناول ادواته وبدأ يفحصني بدقة وعناية . فقلت لنفسي: لقد نجحت وها هو مهتم بالامر جديا .. ستكون هناك مفاجأة !

ولم يلبث الطبيب ان قطب حاجبيه وتوقف هنيهة ثم قال :

ـ من المستحسن ان ارى رئتيك خلال الاشعة . فاحنيت رأسي موافقا. واطفأ النور ، ووقفت وراء الجهاز. وعدت ارتدي ثيابي بينما جلس خلف منضدته وتمهل ، ثم سعل .. وحدق في قدميه قليلا وما لبث ان رفع انظاره وثبتها في وقال :

ـ يؤسفني ايها السيد ان اخبرك بنبأ غير سعيد .. ولكن لا تخف .

فقلت ببساطة :

ـ لست خائفا .

قال :

ـ امتزوج انت ؟

قلت :

ـ لا

قال :

ـ اتعيـل احدا ؟

قلت :

ـ لا ، انني وحيد

فقال :

ـ اذا ليس علي الا ان اصارحك بحقيقة الامر .

ونهض ثم ادار لي ظهره ، ونظر خلال النافذة الى بعيد ، وما لبث ان استدار الي ، بحركة مسرحية ، وقال :

ـ انك مصاب بسرطان الرئة !

.. تابعت ارتداء ملابسي بهدوء. وظل الطبيب منتصبا يحدق في بذهول . ثم جلست على المقعد واخرجت سيكارة وقلت له :

ـ اتدخن ؟

فهز برأسه ان لا . قال :

ـ هل تعلم ماذا يعني : سرطان الرئة ؟

قلت او بالاحرى تساقطت الكلمات من فمي بهدوء ورتابة كأوراق الخريف :

ـ نعم . انه الداء القتال ... العضال . اليس كذلك ؟

فبدا عليه العجب والغم وصاح :

ـ الا يحزنك ذلك ؟

قلت :

ـ لا .. ما دام هذا السرطان لا يشعرني بوجوده ، فانا لا اهتم به ولا اقيم له وزنا فكلانا مستقل عن الاخر ذاتيا .

فتمتم بكلام غير مفهوم ، وهز رأسه بهدوء .

والقيت على المنضدة بورقة مالية وانصرفت .

★

عدت الىغرفتي توا.واويت الى الفراش فيالحال وانا افكر فيالمحاضرة وفي الوجوه التي رأيتها هناك . ثم نمت نوما عميقا لم اسعد بمثله من قبـل .

في اليوم التالي عندما ذهبت الى المكتب في دار البريد حيث اعمل وجلست خلف الكرسي العتيد القديم وراء منضدتي . وبينما كنت اقلب الاوراق تذكرت ما قالـــه الطبيب « انك مصـــاب بسرطان الرئة » فضحكت غبطة وسرورا ، والتفت الى زملائي وهم منهمكون في الحديث عن السهرة التي امضوها ليلة البارحة .

فوقفت ، بغتة ، وحدقت فيهم طويلا .. فالتفتوا وقد استرعت اذانهم الضجة التي حدثت عندما دفعت الكرسي الى الخلف لانهض واقفا .. اتخذت وضعية الجد والرزانة وقلت برنة رهيبة :

ـ ايها السادة الزملاء .. انني مصاب بسرطان الرئة ؟

فوجموا كالمصعوقين ، امام هذا النبأ .

فخامرني شعور غريب ولكنه لذيذ . قلت لنفسي : لقد القيت بتلك الجملة مثل « يوسف وهبي » او احسن منه . لقد استطعت ان اوقف ثرثرتهم التي لا تنتهي ، لقد تمكنت من صعقهم بقصة عن ذاتي وكياني . لقد ربطت مصيرهم بمصيري ولو لبضع دقائق صغار .

قال احدهم :

ـ كيف ؟ هل هذا صحيح ؟

قلت بلذة وغبطة :

ـ نعم . لعلكم لاحظتم شحوبي ونحولي في الايام الاخيرة .

فأجاب اخر :

ـ هذا صحيح ، ولقد لفتنا نظرك الى ذلك مرارا دون جدوى .

قلت :

ـ لقد ذهبت البارحة الى طبيب اخصائي بامراض الصدر ! وبعد الفحص الدقيق على الاشعة تبين له ذلك .

فوجموا من جديد . وزاد شعوري باللذة الغريبة عمقا .

ثم قال اخر :

ـ لا تصدق . لعله مخطىء ... اذهب واستشر غيره .

قلت :

ـ انه واثق من ذلك .

ثم تهالكت على الكرسي ، ووضعت رأسي على جبهتي كانني اريد البكاء .

وسمعت احدهم يقول :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. يا للمسكين !

فوددت لو شتمت هذا الخبيث الذي كان لا يكف كل يوم عن الحديث عن النساء ومعاكسته لهن . وقلت لنفسي : لعل ذلك يذكره بالموت فيتعظ .

واقبل البعض حولي ليبعثوا في الامل ، عارضين خدماتهم ، مقترحين اسماء اطباء اخرين في دمشق وبيروت والقاهرة ... بل حتى عرضوا علي المساعدات المادية . ولكني كنت واجما لا اجيب وفجاة ، نهضت وقلت :

ـ زملائي ، اخواني . اشكركم جدا على تصرفكم هذا . ولكن دعوني وشأني ، دعوني وهمي فانا رجل مسكين !

فقال احدهم :

ـ يا للمصيبة . يكاد الرجل ان يفقد وعيه .

فانفجرت صائحا :

ـ انتم سبب علتي ، انكم تنظرون الي دوما كهذه الطاولة ، كهذه الطاولة ، كهذه الطاولة .

وضربت بقبضة يدي على المنضدة ثلاث مرات . والحقيقة انني احب جدا رقم ثلاثة . ولست ادري لماذا ؟ ولكن في تلك اللحظة بالذات وعندما سمعت هذه الضربات الثلاث تذكرت الضربات التي تسبق رفع الستار في المسارح !

عندئذ دفعت زملائي بعيدا عني بخشونة وانطلقت خارجا بسرعة . وسمعت اثناء ذلك ، احدهم يقول :

ـ دعوه . لا باس عليه . فليذهب للراحة هذا اليوم وسنتدبر الامر.

مضيت حتى الشارع الكبير ... الشارع المعتاد حيث كنت كل مساء اقوم بنزهتي اليومية ، فاصعد الطريق واعود مرارا وتكرارا حتى تكل قدماي فاعود الى الغرفة .... وانطلقت افتش عن تلك الوجوه التي اعتدت مصافحتها بانظاري كل يوم .. ولكني في ذلك الصباح لم اجد احدا ... لعلهم في اعمالهم فما كنت اراهم الا في المساء . كنت اريد رؤيتهم لاقول بطريقتي الخاصة اي بايحاء دون كلام : انني مصاب بسرطان الرئة !

اقتربت من المقهى المعتاد قائلا : لعلهم فيه . ودفعت الباب الزجاجي ودخلت انظر مستطلعا يمنة ويسرة ، واتصفح الوجوه بدقة ... دون جدوى . لم تكن هناك تلك الوجوه التي كنت احس نحوها بالاخوة ، والمحبة .

اجتزت الشارع وذهبت نحو المقهى الاخر ولم ادخله انما اكتفيت بالتطلع خلال الباب الزجاجي : فلم اجد احدا . ولمحت صورتي منعكسة على الزجاج فراعني منظرها : لقد وجدت فيها نشاطا وحيوية لم اعهدهما من قبل . وحدقت في عيني : يا الله . ما هذا التالق والاشتعال .. ما هذه النظرات ؟!

وجدت في تقاطيعي علامات الغبطة العميقة ، والحياة المتفجرة ... والمرح ! كدت لا اصدق الزجاج ورحت اتلمسه باصابعي قطعة قطعة لاتأكد من انني انا نفسي .

دام الامر بضع لحظات . حتى جاء احد الزبائن يريد الدخول فتوقف هنيهة محملقا في عجبا ثم دفعني بخشونة ودخل !

مشيت وانا اشعر بنفسي خفة ورشاقة وحيوية لم اعهدها من قبل. بل احسست برغبة في الغناء (مع انني لم احاول ذلك مطلقا بل انني اكرهه) .... فاقتنعت بالتصفير .

وفجاة : لمحت المراة القطة . . آكلة اللحوم .

كانت ترتدي معطفا انيقا جدا يكشف عن عنق طويل ناعم رقيق ، وقد نسقت شعرها على شكل حلقات ودوائر ، وازداد وجهها جمالا وبهاء ، كانت تمشي بهدوء وثقة واعتزاز .

فاتجهت نحوها مسرعا وقلت : ساقدم لها نفسي ، وسأسالها اذا ما كانت فعلا تحب اكل اللحوم ؟

ولما اقتربت منها توقفت لحظة كأنما فاجأتها فكرة طارئة ثم انعطفت ودخلت محلا لبيع الملابس النسائية .

فوقفت امام واجهة المحل اتامل معروضاته ، مترددا في الدخول ! ولكن العنفوان الجديد الذي كنت اشعر به آنذاك دفعني الى الدخول . فقلت ..

كانت القطة تقلب بعض المعروضات من البسة واقمشة وتناقش البائع الشاب الذي اقبل عليها وقد ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة .

والقى الشاب علي نظرة سريعة ، وعاد يكلمها كأنما أفهمني ان انتظر حتى يلبي طلبها .

ولكنني تقدمت منها ، فالتفتت الي، فقلت متلعثما :

ـ سيدتي ... هل لك ان تجيبي رجائي ؟

فقالت لي بعينها : لماذا ؟ ثم القت نظرة فاحصة ، وركزت نظرها في

عيني ، وانتظرت .. فقلت :

ــ سيدتي انني لا اجد العبارة المناسبة انما ..

وكأنما تأثرت بمنظري الشعث البسيط ، فابتسمت برقة مشجعة ، وعيناها قلقتان خائفتان . اردفت فجأة كأنما اريد ان اتخلص من كابوس مخيف :

ــ انني مصاب بالسرطان ..

فتقلص وجهها الرقيق هنيهة . ففرحت بذلك فرحا شديدا ، كدت القي بنفسي عليها ... ولكن ... ولكنها ما لبثت ان مدت لي يدها . وفيها قطعة نقود !! وقالت :

ــ شفاك الله !

صعقت لهذه الحركة الغير المنتظرة . واعتبرت الامر اهانة لا تغتفر . قلت بحدة :

ــ سيدتي ، انني لست شحاذا .. انني ابتها القط (وكدت اقول القطة) السيدة المحترمة أرفع من ذلك . اريد ان تجيبيني على سؤال ..؛ هل تحبين اكل اللحوم ؟

فبدا على وجهها الاستغراب والدهشة مع شيء من التقزز .

فعرفت الجواب : انها حتما لا تحب اللحوم !

واستدارت نحو الشاب بانظارها كأنما تطلب النجدة . فقال لي هذا بغلظة :

ــ اذهب من هنا ايها الحقير ، ايها الشحاذ الغبي ...

فاجبت ، وقد سررت ضمنا لان الامر تطور حتى هذا الحد ، وشعرت باعماقي بمرح كطفل يلعب .

ــ لا .. لا لن اذهب حتى انال ما اريد ..

فاقترب مني مهددا وقال :

ــ يا للصفاقة . اخرج .

ودفعني بيده . ولكنني صممت على المقاومة حتى النهاية . قلت :

ــ مهلا ... الا فاعلم من انا ؟

ورفعت راسي فلاحت مني التفاتة عبر الباب ، فرأيت صديقي «ك» في الطريق :

تركت البائع مع القطة واسرعت نحو « ك » .

اقتربت منه ، فالتفت الي باسما . فقلت له بسرور :

ــ صباح الخير .

استغرب موقفي . لكنه قال :

ــ مرحبا . كيف حالك ؟

قلت :

ــ سيء للغاية .

قال :

ــ كيف ؟

فوقفت عن المسير ، وقلت وانا الفظ كل كلمة اثر اخرى بهدوء :

ــ انني .. مصاب .. بسرطان .. الرئة .

ففغر فاه عجبا . وقال بعد هنيهة :

ــ كيف ؟. سرطان ؟ هذا عجيب .

قلت :

ــ وما وجه العجب ؟ الست بشرا كالاخرين ؟..

ولاحظت ان الالم قد رسم على وجهه خطوطا عميقة ... ففرحت وقلت في نفسي : سانتقم منك ايها الحقير ... من اهاناتك المتكررة لي .. ويوم المحاضرة ، يوم أستكبرت فهربت مني . فاردفت :

ــ نعم انه السرطان ذلك الداء الخبيث

فقال :

ــ هلم ... اريد ان أساعدك بكل ما يمكنني . من هو الطبيب الذي قال ذلك ؟ وكيف جرى الامر ؟ هيا .. قص علي كل شيء .

وامسك بذراعي يجرني . فسحبته منه قائلا :

ــ كلا ... دعني وشاني فانا رجل مسكين .. مسكين .

وتركته وهربت مسرعا .

دخلت غرفتي الرمادية ، وذهبت الى النافذة ففتحتها على مصراعيها فوجدت امامي وفي العمارة المقابلة « نوال » بنت الجيران .

كانت نوال فتاة شابة من عائلة بسيطة ، تمتاز بالحيوية والانوثة الناضجة .

كنت احب عينيها العسليتين وقدها المياس .

وطالما عشت معها ساعات جميلة ولذيذة وانا وحدي . ولم افكر ان اعترض طريق حياتها يوما ما . ولماذا ؟

انها حتما ، ككل النساء ، تعتقد انه يجب على الرجل ان يحب فيتزوج فينجب الاطفال ... يا للتفاهة ! ان المرأة تجعل الرجل يحتقر نفسه الى درجة لا تطاق .. فوق درجة الاحتمال .

رنت نوال الي بانظارها من الشرفة وراحت تغني :

« الغرام اصله نظرة » ! فهززت كتفي استخفافا : نظرة .. نظرة .. يا لها من نظرية ؟!.

كنت كثيرا ما اراها فاتخيلها عارية في الطريق .. فاضحك لهذه الفكرة . والغريب انني ما كنت ادرك وجود المرأة الا من خلال الجسد . فكلما صادفت احداهن قارنتها بالرغبة التي تثيرها في وحكمت عليها كليا من خلال ذلك .

واحسست انني اريد ان اتكلم «نوال» لاقول لها انني مريض!وبالسرطان! ولكنني طرحت الفكرة قائلا : لعلها ستظن انني واقع في غرامها وانني ساطلب يدها ثم .. وشعرت بالغثيان الشديد .

كنت دوما اشعر بالفشل والقنوط وبالحيرة .. ولكن اليوم وجدت هدفا : انني مصاب بالسرطان !

والغريب انني اشعر بسعادة لم احلم بها في حياتي وعلمت ان القناعة كنز السعادة الذي لا يفنى .

وفي ذلك اليوم تناولت طعامي بشهية لاعهد لي بها . ونمت في المساء نوما عميقا .

واستيقظت في صباح اليوم التالي على قرع شديد على الباب . فقفزت من السرير بسرعة وانا في غاية الانزعاج . لان تلك اللحظة الصباحية التي كنت اشعر فيها بالصفاء والنظامية الروحية قد ضاعت..

فتحت الباب واذا باخي الاكبر امامي .. انه هو بالذات بقامته المديدة واكتافه العريضة .

كنت اقدر فيه رجولته ، ولكني اتضايق منها في ذات الوقت . وكنت كلما جالسته شعرت بالضيق لقوة شخصيته وجبروتها .

ودخل اخي الغرفة والقى بنفسه في احضان الكرسي الخشبي المربض. وقال :

ـ لقد جئت لنجدتك !

فقلت ببرود :

ـ لست بحاجة الى احد .

قـال :

ـ بلـى .

قلت :

ـ كيف ؟

قـال :

ـ لقـد علمت انك مصاب بسرطان الرئة ؟

فصحت فيه :

ـ ومن قـال لك هذا ؟

فضحـك وقـال :

ـ انـه صديقك « ك » لقد اتصل بي هاتفيا واخبرني بالامر ،فاسرعت اليـك .

قلـت محتجـا :

ـ ولكني لست بحاجة الى نجدة ... دعني وشاني بالله عليك . كنت طيلة ذلك الحديث اتحاشى النظر اليه وفي عينيه لانني اخاف نظراتـه، وكان الخبيث يعرف ذلك تماما .

نهض واقفا واقترب مني ، وحدق في عيني وقال بصوته الاجـش ولهجـة آمـرة :

ـ هيا . ارتد ثيابك سنذهب معا وسنجد للامر حلا .

قلـت :

ـ دعني ارجـوك .

وكانني اقـول :

ـ امـرك مطـاع.

... وخرجنا من الغرفة . وذهبنا الى الطبيب « غ » امهر طبيب فـي البلد ، والاخصائي في امراض الصدر .

لاستطيع ان اصف ألمي وحزني واكتئابي خلال تلك اللحظات التـي قضيتها مع اخي لدى الطبيب . وبعد فحص دقيق ، وفحوص مخبريـة وشعاعية .. .انتهى الطبيب الى حكم قاطع حاسم فقال :

ـ « ليس هناك اية علامة لاي مرض كان ! »

فصحت فيه حانقا وبكراهية :

ـ لن تخدعنا ياهذا واولى بك ان لاتنسى الضمير والواجب .

فوجم الطبيب واحمر وجهه غيظا .

وغضب اخي غضبا شديدا ، وكاد ان يلتهمني بنظراته ، ولكنه احتفظ بهدوئه ، واعتذر بلطف .. .ثم امرني بالخروج .

وفي لطريق كانت مشاجرة عنيفة كدنا نصل بها الى الايدي .

وتركني اخي والغضب ينهش فؤاده .

عدت الى غرفتي فجلست على سريري واجما انظر كمشدوه في الحائط الرمادي . وشعرت بحرقة وغصة . فانكببت على وجهي فوق السريرابكي بالم ومرارة واقول :

ـ لقد فقدت معنى الحياة ... كنت حيا فقتلوني .. المجرمون !

سلمان قطاية

عنكبوت

وطنـي اخـاف عليـك حين أراكـا
تمتد للجانـي الاثيم يـداكـا

شركاته شـرك وكـل عهـوده
خـدع فحاذر طامعا أفاكـا

مـا ان تلوح لـه المغانم ساعة
حتـى يبالـغ فـي بلـوغ رضاكـا

كالعنكبـوت متى تقـارب صيـدها
شرهـت وسـال لعابهـا اسلاكا

نصبت علـى خيط الضيـاء شباكهـا
مـن حيث يلتمس الاسيـر فكاكـا

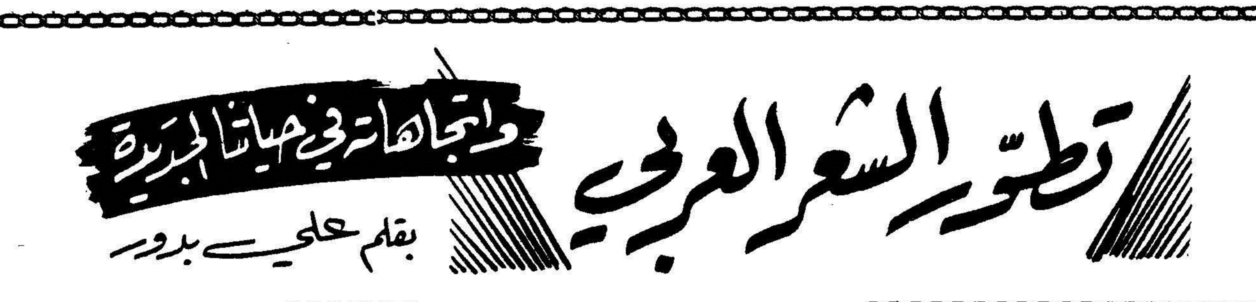
لايخدعنـك « مغـرب » فـي وده
او « مشـرق » امـا شكا وتباكى

للاجنبـي مطامـع معـروفـة
سيـان هـذا فـي الـدهـاء وذاكا

النصـح ان لاتستعـين بناصـح
آذى الـوف الابريـاء سـواكا

مـن لايفيـد مـن التجارب عبـرة
جـرت تجاربـه عليـه هـلاكـا

وديـع ديب



الشعر في حياة الانسان ظاهرة قد لا نجد دليلها العلمي في اللغة بقدر ما نجده في طبيعة الانسان وامتزاجه بالحياة من خلال الزمان والمكان . والشعرلدى الامم قديمهاوحديثها انما هو وجدانها المعبر عن اعمق احاسيسها وعواطفها وافكارها في ملاحم البقاء ، وتبيان اغوار النفس الانسانية وما هي هذه الاغوار من حالات قد لا يصفها مجهر العالم المدقق ، بقدر ما يصفها خيال الشاعر المبدع .

والشعر قبل ان يكون ابحرا وعروضا وقوافي ، هو الهام ومقدرة على ضبط عنان الفكر والقلب البشري ذي العواطف للتعبير عما يتجمع في عين الشاعر من مناظر وحوادث وخواطر واوصاف . فهو الموسيقى حينا ، وهو الالهام حينا اخر .. وهو اولا واخرا ، مقدرة على اتيان الخارف والغوص على الاعماق ، وجلو ما يعتري الانسان وحياته من خلال تجربته للعيش وخضوعه لسطوة المصير . ونظرته الى الحياة والكون واصطراع البشر فيهما ، نظرة تضيق كلما اتسعت ، وتعمق كلما تبسطت ، وتشف كلما بعد مجال رؤيتها ، فهي انسجام بين ما يراه الشاعر ويحسه قلبه البشري ، ويحاكمه منطق الانسان فيه ، فاذا المزيج افكار متناسقة ، ومشاعر مرسومة ، وحالة شعورية سامية تحيط باذرع رحيمة ، تلك الافكار والمشاعر ، في قصيدة شعرية ، هي في اللغة خلق ، وفي الفن دلالة على مجاراة الطبيعة في عملية الابداع الفطري ، فاذا تداول البشر هذه القصيدة باللغة التي يفهمونها ، ولدت فيهم حالة شعورية وعاطفية وفكرية . تدفعهم للتجرد من مظاهر تعارفوا عليها في حياتهم ، والتحلل من موروث الطعام والشراب ، للتحليق في عالم خاص ، يخلقه الشعر الجيد في النفس والفكر النيرين .

في هذا المفهوم للشعر والشاعر ، خطا الزمان خطواته الفسيحة ، فنقل الشعر العربي بعامة ، من مضارب الخيام في الصحراء الى حياة المدن المزدحمة بناسها ودخان معاملها وضجيج الاتها . وبعد ان كان الشاعر الفحل من كانت له حنجرة قوية ليسمع الصحراء بوديانها وكثبانها ، إضحى الشاعر الحق من ملك وترا ناعما كوتر الحمامة الصادية ، يخاطب به الانفس المتعبة ، والقلوب المرهقة ، ويحرك الافكار التي اتعبتها العواطف ، والعواطف التي اتعبتها الافكار ، ليسمو بالفكر المثقف الى سوية تحليل النفس الانسانية وكشف مشاعرها وعواطفها وافكارها ، عندما تعاني تجربة مصير الانسان ، ومأساة حياته ، وعذاب ضميره ، وقلقه وخوفه من تعاقب الجديدين ، بلغة شعرية يفهمها البشر على اختلاف لغاتهم ووسائل تعبيرهم .

والشعر الحق ما كان ترجمانا لحياة العصر . فشعرنا في العصر الجاهلي ، والاسلامي والعباسي ، وعصور الانحطاط ، كان مرآة للعصر ، من حيث صدق التعبير عن نوازع البيئة ، وشيوع الثقافة ، واتجاه المجتمع نحو التطور ، ومفهوم الجماعات آنذاك للقيم الفكرية والجمالية والتعبيرية والبلاغية . فمن شعر البساطة وتمثل الحياة في بطاح الحجاز ، الى شعر التساؤل في العصر الاسلامي الى شعر العقل في مدرسة ابي تمام ، الى شعر الصنعة في عصور الانحطاط ، كانت كل هذه الخطوات مرسومة بحكم واقع الحياة الفكرية ، وتطورها وامتزاج العرب بغيرهم من الامم والشعوب ، ومساهمتهم في الحضارة الانسانية .

واليوم ، والشعر العربي بعد ان استعاد ديباجته العربية على يد شوقي ، وصفاءه على يد الاخطل الصغير ، ومعانيه على يد ابي ريشة ، ورقته على يد شعراء المهجر ، اوشك ان يدخل منعطفا جديدا ، تفرضه طبيعة التطور لحياتنا العربية الجديدة ، ومحاولتنا خلق ثقافة عربية تسهم في الثقافة العالمية وايجاد شعر عربي ، لا يعبر عن حياتنا العربية الجديدة ، بقدر ما يبنيها ولا ينفخ روح الحماسة في الاكف المصفقة بقدر ما يزودنا بالهدوء الذي نراه في عين الاعصار الثقيل .

فاذا تساءلنا عن ملامح هذا المنعطف الجديد لشعرنا العربي ليستطيع التعبير عن حياتنا العربية الجديدة وجدنا ان ثقافة العرب عندما امتزجت بثقافات الامم والشعوب الاخرى في الماضي ، قدمت للانسانية ابا العلاء المعري ، كشاعر عربي اصيل ، عبر عن قلق الانسان ومأساة البشرية من خلال تمثله الحق لتجربة الوجود التي عاشها بقلبه وفنه . واليوم ، والعرب ، على ابواب فجر جديد ، تتمثل فيه مطامحهم وامالهم ورغبتهم في التحرر من ربقة عصور الظلام ، وقحط العقول التي انطفأت في دنياها شعلة الفكر المتوهجة ، تنظر طليعتهم المثقفة الى الشعر نظرة خاصة . تلتقي عندها آمالهم في ان تكون الثقافة العربية ، معبرة عن الحياة العربية والتجربة العربية التي قدمت المعري ذات يوم، ومستوحية خطى التطور الفكري، والتحررالعقلي

الذي شهده بلاط المأمون ، ليكون من مخاض هذه الثقافة التي ينسج خيوطها المثقفون العرب ، ثوبا لمجتمعهم العربي العتيد ، شعر يعبر عن حياتنا الجديدة ، وحضارتنا الجديدة . اذ ما دام الشعر لا ينفصل عن الثقافة ، والثقافة لا تنفصل عن المجتمع وما دام المجتمع يبدع حياة جديدة بحكم واقع اتصاله بالحضارة الحديثة ، فان الشعر الذي تفرضه حياتنا الجديدة ، هو الشعر الذي لا يحفل كثيرا بالالفاظ الضخمة الفخمة ، وان لا يكون الهدير الذي فيه ، هدير نفس فارغة تهوى الضجيج ، وتحب اثارة الغبار ، وان لا يخاطب العواطف البدائية والمشاعر الباهتة ، والعقول الساذجة ، بقصد الاثارة والتهييج ، لان طبيعة المجتمع ، وطبيعة الثقافة المعبرة عن تطوره ، تريد شعرا عميقا في صفاء ، جليلا في بساطة ، بعيدا ولكن في متناول العين التي تلمس جماله ، والقلب الذي يستعذب صدق التعبير فيه ، فيخاطب الضمائر والعقول والانفس التي هذبتها ساعات التأمل في هذه الحياة ، ويزيد من وقدة الجمرة الملتهبة في القلب ، بحب الشعب والوطن والانسانية ، وينمي فينا حاسة تذوق الجمال ، ومحبة الفضيلة ، وتعشق الحرية ، ويفتح لعقولنا كوى على جنة الفكر ، ويبني لارواحنا محاريب لعبادة المثل العليا في الحياة . ولا يعقل ان ينجح شاعر من الشعراء بله شاعرة من الشاعرات في رصف طريق تطورنا بالشعر ، المعبر عن حياتنا ، الا اذا كان الشاعر على درجة كبيرة من الوعي والفهم والتذوق ، والثقافة ، والنظرة البعيدة الى اعماق الانسان واحياة ،

ليستطيع ان يبدع من خلال تأمله وانصهاره في بوتقة الابداع ، شعرا تتمثل فيه نهضتنا الاجتماعية ، وثقافتنا القومية وحسنا الانساني ، وحياتنا ومطامحنا وآمالنا وآلامنا ، فنقدم للانسانية الجديدة المعاصرة ، شاعرنا المبدع، كما قدمنا في تاريخنا القديم ابا العلاء ، اما ما على مبصري زمانه ومشعلا هاديا لمن ضلوا الطريق .

لقد جعلت الحياة الجديدة من النفس الانسانية ، نفسا معقدة قد لا تذيب جمودهاقصيدة من الشعر ، لها موسيقاها ووزنها ، وانتظام طولها وعرضها .. ولكن ليس فيها تلك الروح الملتهبة التي تصهر آلامنا لتجعل منها افراحا وصمودا في وجه خطوب الحياة . والثقافة التي نمت في رؤوس المثقفين وقلوبهم ، اضحت بحاجة الى شعر ، له توتره الخاص ، وحساسيته الخاصة ، وتركيزه للافكار والعواطف، ليكون الطرب نابعا من صميم واقعنا ومجتمعنا وحياتنا ، وان لا يكون همنا ان تصطفق الاجنحة فحسب ، دون ان نهتم بمقدرتها على التحليق في الفضاء .

ولعلها ظاهرة جديرة بالانتباه ، تلك التي تشير الى التزام هذا المنهج الشعري ، وفق ما اسموه بالشعر الحديث . يلتزم التوطيد له شاعرات وشعراء ، محاولين بذلك تجديد شعرنا العربي ، بتجديد طريقة التعبير نفسها واصطناع الابحر الشعرية التي تناسبها . هذه المدرسة الشعرية الحديثة ـ وسلمى الخضراء الجيوسي من روادها ـ لا تنظر الى الشكل التقليدي للشعر ، نظرة عداء كما يصور ذلك بعض انصار الشعر التقليدي ، بقدر ما تنظر الى طريقة التعبير نفسها ، تلك التي لا تتلاءم معها الى حد بعيد ، الابحر التقليدية المعروفة . لان الشكل في الاساس لا يقدم ولا يؤخر في عملية الخلق الفني للشعر الجيد اذا كانت معانيه على غرار المعاني التي اتى عليها شعرنا القديم . والسليقة العربية التي ابدعت وطرقت دروبا واشكالا للتعبير جديدة في الاندلس بحكم التطور ، لن تعجز اليوم بحكم داعي التطور ايضا ، عن اصطناع اساليب جديدة في الشكل والمضمون الشعريين . ذلك ان الموسيقى باقية ،اذ لا شعر بلا موسيقى ... ولكن التوزيع الموسيقي هو الذي يتغير . واذا كانت الموسيقى في الشعر التقليدي قائمة على اساس من ملاءمة الكلمات كالفاظ للعرض الشعري ، فان الموسيقى في شعر المدرسة الحديثة ، قائمة على اساس من ملاءمة المعاني قبل الالفاظ للسلم الموسيقي . والنماذج الجيدة من شعر هذه المدرسة ، تثبت ذلك بعد دراستها، لانها في الاساس تقوم على امتزاج التاليف الموسيقي ،باللغة، كمعان اولا . والفاظ ثانيا .. وليس العكس كما هو متبع في اكثر شعرنا التقليدي ، وفي اكثر النماذج الجيدة منه على التخصيص .

والنقاد القدامى واكثر النقاد المحدثين اذا كانوا قد درسوا الشعر العربي كله على اساس من فصل الشكل عن المضمون ، فقد آن الاوان لدراسة شعرنا العربي القديم والحديث معا على اساس من عدم الفصل بين الشكل

والمضمون . لان الشكل في الفن - اي فن - مرتبط بالمضمون ، في القصة والمسرحيه والرواية ، والموسيقى والرسم .. وحتى في الشعر .. والذين يفصلون الشكل عن المضمون انما يجردون القضية من جوهر وجودها ولا ينتهون الى شيء جدي .

وتقييمنا لظاهرة المدرسة الشعرية الحديثة ، تقودنا الى ان الشعراء الجدد تاثروا بالثقافة الجديدة التي نمت في المجتمع العربي ، بعد امتزاجه بثقافات الامم المعاصره . فلما فاضت نفوسهم بالحس الشعري وارادوا التعبير ، وجدوا ان الشكل القديم لا يسعفهم للتعبير عن احساسهم الجديد ، الذي هو من نتاج الحياة الجديده . فحاولوا الاستفادة من الابحر القديمة لتوليد ابحر شعريه جديده منها ، تتلاءم مع المعاني الجديدة والافكار الجديده . ولو افرغنا المعاني التي عبر عنها الشعراء الجدد باشكالهم الجديدة في القوالب القديمه لفاضت . وكذلك لو حاولنا ان ننقل المعاني التي حوتها القوالب القديمة الى الاساليب الجديدة لما بقي منها شيء . والذات العربيه لا يضيرها ان تجرب الشعر الحديث وأن تمنحه الفرصة كي يثبت جدارته بصدق التعبير عنها ، وبخاصة اذا كان بعض من هذا الشعر الحديث ، تعبيرا عن واقع الثقافة التي نمت في رحاب المجتمع العربي ، ومحاولة مخلصة لوضع الانسان العربي على حدود واجبه الذي فرضته الحياة العربية عليه .

فاذا درسنا شعر الشاعرة السيدة سلمى الخضراء الجيوسي ، حسب مفهومنا للشعر والشاعر ، وتطور الشعر العربي وانعطافه الجديد ، ومتطلبات الحياة العربية الجديدة والثقافة الجديدة ، وامتزاج ثقافتنا بثقافات الامم والشعوب المعاصرة ، وحاجة الذات العربية ، لشعر يعبر عن انتفاضتها ويبني اسس نهضتها الفكرية ، وحسها الوجداني والجمالي ، فان القصائد التي نشرتها الشاعرة في مختلف المجلات العربية وجمعتها في ديوان « العودة من النبع الحالم » تعطي الدليل على انها شاعرة انشق شعرها من خضم حياتنا الصاعدة ، التزمت فيه صدق التعبيرات عما يخالج ضمير امتها العربية من آلام وامال . وهي اذا كانت قد جددت في الشكل والمضمون الشعريين الا ان شعرها ظل يصدح بملاحم العروبة وتجارب امتها العربية وسط بحران الحياة المعاصرة ومحاولتها التزود بكل جديد ومفيد دون ان تفقد اصالتها او تمحي شخصيتها . وهي واحدة من شاعرات العرب التي ولدت وعاشت في مهد النكبة القومية بفلسطين ، ثم جالت في ديار العروبة والعالم الخارجي . واستقر بها المطاف اخيرا في دمشق ، ترنو الى الثرى المقدس فتصدح وتنشد ، معبرة بشعرها عن حياتها وحياة الملايين من امة العرب من اجل غد حافل بالرفعة والسمو ، لادبنا العربي وحياتنا العربية ومجد العروبة الظافرة .

حمص — علي بدور



الصورة بين الشعر القديم والشعر المعاصر

بقلم ايليا الحاوي

لا شك انه لم يقدر للشعر العربي انطلاقة حية ، الا في مطلع هـذا القرن ، وبخاصة في شعرشوقي وحافظ ومطران . الا ان طبيعة الصورة في شعر هؤلاء ، لم تكد تختلف عن طبيعة الصورة في الشعر القديم ، من حيث اعتمادها على الاطراف الواضحة ، والحدود الظاهرة ، كما ان معاني شعرهم ظلت ، تعتمد الافكار او الشعور الواعي المدرك ، الشبيه بالافكار لجموده ووضوحه . لهذا ، فان شعرهم يختلف عن الشعرالمعاصر في مفهوم الصورة ، أكانت وصفا خارجيا لمظهر حسي ، ام كانت تعبيرا وجدانيا عن حالة داخلية . ولعل هذا الاختلاف في مفهوم الصورة يعود الى اختلاف جذري في مفهوم التجربة ، بين الشعر القديم والشعر المعاصر . لقد كانت التجربة في الشعر القديم ، فضلا عن شعر النهضة، شبيهة بالافكار النثرية ، لوضوحها واستقامة حدودها . فهي تشخص امام النظر بصفة دائمة ، لاتتغير ، او تغشاها الظلال . فالشاعر يعبر عما يفهمه ، مترجما شعوره الى معان ، واشكال عامة مستقرة ، متسلطا عليها من الخارج . وذلك ادى الى اضعاف التجربة ، وتغيير طبيعتها ، وربما اماتتها . فالشعور الذي نعانيه ، يشتمل على حرارة تختلف بين الكثافة والشفافية ، لكننا ، فيما نحاول ان نعيه ، فانه يفتقد كثيرا من عمقه وحيويته ، ويغدو شلوا تافها لحالة متوهجة . ان التجربة الشعرية لاتصفو الا في الذهول ، اي في تلك الحالة التي يتخدر بها الوعي المحدق ، المتشبث بالوضوح ، حتى تطفر النفس في الرؤيا . لهذا ، فان الشعراء المعاصرين ، يميلون الى نقل التجربة نقلا حدسيا ، دون ترجمة او تأويل، او تفكك . وقد جعل هؤلاء يعتقدون ، انه لايتيسر للشاعر ان ينقل التجربة بصورة كلية ، الا اذا توسل بالصورة ، لان الصورة لاتجزىء التجربة وتحيلها الى اشلاء من الافكار بل تعكسها بما تنطوي عليه من ظلال وتموجات تندثر وتزول ، عندما يتسلط عليها الادراك الذهني . هذا هو ظاهر التطور بين واقع الشعر القديم وواقع الشعر المعاصر . الا ان الحقيقة تبدو اشد عمقا وتوغلا ، مما تتخايل ظاهرا . فالصورة قد تبدو جلية مستقيمة على طرفين واضحين ينبوان عن التجربة ، كأنهما فكرتان ذهنيتان ، لاذهول يغشاهما ولا ترنح . ماقيمة الصورة في قول امرىء القيس « له ايطلا ظبي ، وساقا نعامة » . هذه الصورة اكثر ذهنيا وجفافا من المعاني والافكار الشائعة المحددة . ولا فضيلة لها من فضائل الذهول الشعري بل ، على العكس ، فانها ترهقه بتلك المقابلة المنطقية الواعية . والواقع ، ان الصورة التي تقوم على التشبيه ، تخالف ، في الغالب ، طبيعة التجربة الشعرية ، لان التقاط الشبه بين ظاهرتين مختلفتين يقوم اصلا ، على نهج منطقي ينفذ من المقدمات الى النتائج بالتفكير والادراك من دون الشعور والمعاناة . ولعل التشبيه ليس سوى وجه من وجوه السيلوجيسم المنطقي . لهذا فان الشعراء المعاصرين طفقوا يتنكبون عنه، لما يشخص فيه من تحديق وتفرس ، وتوسلوا ، حينا بالتشبيه ذي الطرفين البعيدين ، وحينا اخر بالاستعارة والرمز .

التشبيه ذو الطرفين البعيدين .

ان آفة التشبيه اذن هي في الوضوح والتفسير اللذين يتولدان منه، فيحيلان ذهول الشعر الى وضوح النثر . الا ان التشبيه قد يغدو اقل اضعافا للتجربة ، اذا تباعد طرفاه ، والتبس وجه الشبه ، فلا يعود فكرة تفهم وتستنتج في الذهن ، بل يغدو حالة تعانيها النفس ، تتقبلها وتتأثر بها ، دون ان تفهمها . وهكذا ، فان آفة الوضوح في الشعر ، قد تتضاءل ، او تنعدم دون التعليل والتفكير . ولقد تردد الشعراء المعاصرون على هذا النوع من الشعر ، اذ باعدوا بين طرفيه وجعلوا وجه الشبه يستقيم على الشعور والاحوال النفسية . ولعل القارىء الذي يتلوه لايفهم معنى معينا ، مقررا ، كالمعنى الذي نراه في تشابيه امرىء القيس بل يعاني منه حالة نفسية ويختلج بشعور لايدري كنهه ، يجعله اكثر تآلفا مع نفسه واعمق نشوة ورضى . فصلاح لبكي يعمد الى التشبيه في كثير من قصائده ، الا ان تشبيهه ، قلما يكون حسيا ، منقولا عن واقع العين والنظر ، بل يغلب ان ينقل عن واقع النفس والظلال الشعورية . فهو يقول خلال وصفه لليل :

انا اهواك ، في الربيع رقيق البث ، حلو المنى ، كوجه بلادي

ان التشبيه هنا كالتشبيه الكلاسيكي ، له طرفان واداة . ولكن الاختلاف الجوهري ، هو في وجه الشبه ، لانه ليس نتيجة منطقية واضحة لمقدمتين ، بل ايحاء غامض ، ذاهل للحظة نفسية خاطفة . والقارىء ، مهما حدق وتفرس ، لا يمكنه ان يخلص الى فكرة واضحة . الا انه بالرغم من ذلك ، اعمق تأثيرا من التشبيه الكلاسيكي المحدود ، لانه يعبر خلال هالة من الغموض التي تدع التجربة شعورا ، ولا تترجمها الى افكار جامدة ومعان شاخصة . وهكذا ، فان الاختلاف بين هذين النوعين من التشبيه يتأتى عن الوضوح والغموض . الا اننا اذ نتمعن بهـذا الاختلاف ، يتحقق لنا انه اختلاف في قدرة الشاعر على التقاط اللحظات النفسية ، وتجريد الشعور ، وتجسيده بشكل حسي ملموس . ان البلاد ليس لها وجه يرى بام العين ، وليس لها ايضا حدود في الذهن تصور كما تصور الحدود الطبيعة ، بل تنتسب الى حالة غامضة ، ارتفع اليها الشاعر وجردها من العواطف المختلفة التي سبق له ان عاناها . وهكذا، فان الصور ، هنا اختلفت تمام الاختلاف عن الصورة القديمة التي كانت صنوا للمعنى او للفكرة ، واصبحت نقلا للخاطرة النفسية التي يباشرها الشاعر بحدسه ، قبل ان يصنفها المنطق بوضوحه والعقل بادراكه . فاية نسبة بين رقة الليل وحلاوة بثه ، ووجه لبنان ، لا شك انه مهما عنونا واجتهدنا في ضبط تلك النسبة ، فاننا نشعر دائما، بان ثمة شيئا بارحا ،

وان ما قبضناه هو الجزء الاقل ، وان الجوهري الهام بقي مبهما . وعلى العكس ، فان النسبة بين ساقي الفرس ، وساقي النعامة ، هي نسبة علمية رقمية ، لا ظلال لها ولا تموجات هاربة دونها ، نعيها ونفهمها ، لكننا لا نتأثر بها . هذا يعطينا فكرة ، وذاك يبعث فينا حالة .

وهذا النوع من التشبيه يختلف غموضا بالنسبة لابتعاد العلاقة او قربها بين طرفيه . فهناك تشابيه ظلالية ، شفافة شديدة الصلة بالواقع النفسي . وثمة تشابيه كثيفة لان العلاقة التي تربط بين طرفيها تشتمل على غموض ، يكاد ان يدنو من المستحيل او الغرابة والذهنية اللتين تعنيان باثارة الدهشة . وهذا ما نشهده في بعض القصائد المعاصرة ، حيث تصبح الصورة غاية بحد ذاتها ، ومجالا لاظهار البراعة في اكتشاف الاشكال الغريبة . من ذلك ما تراه في قول سعيد عقل ، واصفا لبنان من خلال اغاني البحارة العائدين :

الى البلد الحلو ، حيث الغمام بلون هديل الحمام

اجد بياضا واحلى افتراضا

وادنى صلاه الى مسمع الله

انت ترى ان الشاعر يشبه لون الغمام بلون هديل الحمام . والواقع ان هذا التشبيه ينطوي في ظاهره على المستحيل ، لان الهديل نغم تتولاه الاذن ، من دون النظر ، بينما يشخص الغمام في النظر من دون الاذن . وهكذا فان التشبيه قد تناقض واختل ، ومهما اجتهدنا في تقصي حقيقة وجه الشبه ، فان ذلك يتعذر علينا . لا شك ان للصورة تاويلا . وذلك ان حواس الشاعر قد اختلطت بين تحسس الشعور في النفس ، وادراكه في الذهن ، فاصبح الشاعر يرى الهديل كما يسمعه . الا ان هذه الصورة بالرغم من ذلك ، قد افتقدت العفوية والتعبير الحي المباشر عن التجربة ، ولم يعد الشاعر يعنى بالتعبير عما يعانيه بل اصبح همه ، ان يبتدع صورة تثير القارىء وتدهشه بغرابتها واستحالتها . ولعله لا فرق بين هذه الصورة والصور البديعة التي كنا نطالعها في شعر ابي تمام ومسلم بن الوليد ، حيث تضاءل الصدق ، وتعاظمت البراعة في التعبير ، حتى طغى ذلك الحذق الخارجي على التوغل في المضاعفات النفسية . بيد ان سعيدا ذو قدرة خارقة على تداول المعاني ، لانه اعمق ثقافة ذهنية . فهو ينظّم ما يعرفه او يحفظه في ذهنه من نظريات عن تداعي الافكار واختلاط الحواس وما اشبه .

وهكذا ، فان الصور مهما تعقدت وتباعد طرفاها ، فان قيمتها ليست في ذلك ، جميعا ، بل في تعبيرها الحي المباشر عما يعانيه الشاعر . فالصورتان اللتان شخصتا في شعر سعيد عقل وصلاح لبكي تنطلقان من مبدأ واحد ، وتعتمدان الحالة النفسية ، الا ان الصورة الاولى كانت اقرب الى النفس لانها حدست حدسا ، بينما تزورت الثانية ، وابتعدت عن التاثير ، لانها وليدة الكد والحيل الذهنية . الاولى تبث فينا نشوة وليدة ، اما الثانية فانها تضعنا امام معجزة جعلتنا ندهش ونصعق ، بعون ان نشارك بالنشوة الانسانية . وهذا النوع من التصوير يمكن ان ندعوه تصويرا ذهنيا حيث يسرف الشاعر بصقل المعنى وتزويقه، كان له جمالا خاصا به او كانه غاية بذاته . ولا مجال للاطالة بالتمثل على هذه النزعة في شعر سعيد ، لان ذلك يقتضي ابحاثا متعددة ، وانما نجتزىء بعد ، بهذا المثل الاخير ، وهو البيت الاول من القصيدة الاولى من مجموعة رندلى :

العينيك ، تانى وخطر يفرش الضوء على التل القمر

هذا البيت يبدو جديدا للوهلة الاولى ، لكننا عندما نتفرس به ، لا نعتم ان تطالعنا وراءه ملامح الصور القديمة . ذلك انه ليس للشاعر في هذا البيت سوى فضيلة التصاعد على المعاني وتجريدها ، بعد ان كساها من الخارج بحلة ذهنية ، او بزي عبارة جديدة . فهو يقول ان القمر مغرم بل متيم بحبيبته ، حتى انه لا يطلع ولا يفرش ضوءه على التل ، الا لعينيها . ان تتيم القمر بحبيبة سعيد عقل ، هو نقل ذهني تجريدي لصور الشعر القديم . فقد طالما تداول الشعراء العرب الكواكب، كالقمر والشمس ، في تشبيه جمال المرأة والق وجهها . والمعنى الذي الم به سعيد لا يختلف عن هذه المعاني ، كما ان سنة اسلوبه لا تختلف عن سنة التقليد في عمود الشعر العربي ، وفضيلة التجديد لديه ، لا تختلف عن طبيعة التجديد التي كان يدعي فضيلتها الشعراء العرب . ان القمر الذي تتيم بحبيبة سعيد ، هو امتداد او تطور من القمر والشمس اللذين شابها وجوه حبيبات النابغة وطرفة وابي نواس وابن الرومي وسواهم. فالتتيم ، هنا ، ليس سوى وجه اخر لمعنى التشابه القديم . انه بعث له يوهم بالجدة والابتكار . فسعيد لم يكتف باثبات الشبه ، مساويا بين الحبيبة والقمر ، بل جعل الحبيبة اجمل من القمر ، واكثر تاثيرا منه ، حتى انه هام وتيم بها . وهكذا ، فان آية هذه الصورة ليست في كونها تعبيرا عن واقع نفس الشاعر ، ووجده ومعاناته ، وانما في التاويل والتعليل اللذين لاذ بهما ليستر الصورة القديمة ويبز سائر الشعراء . والافة في هذا النوع من الشعر ، ان المعنى يكون فيه غاية بذاته ، بينما ينبغي ان يكون وسيلة للتعبير عن النفس . والواقع ان حبيبة سعيد عقل بقيت حبيبة وصفية ، اذا جاز التعبير . لقد بقي الشاعر ينظر اليها ويشاهدها من الخارج ، كما نظر اليها وشاهدها شعراء الغزل التقليدي.

ان الشعر كالانسان ، لا يخلد الا بالروح ولا يصفو الا صلاة في النفس. والشاعر الذي يعنى بالمعنى للمعنى وبالصورة للصورة ، لا يعود ، ثمة فرق بينه وبين ادباء التقليد كالحريري واليازجي . ذلك لاعبان على حبال الالفاظ ، بينما يكون هو لاعبا على حبال المعاني . فالمعنى والصورة لا قيمة ، ولا جمال لهما بذاتهما ، وليس في الشعر معنى مطلق الجمال واخر مطلق القبح ، وانما هو يحمل او يقبح بالنسبة لتعبيره المباشر عن واقع النفس وما يستبد به من هذيان الشعور الذي قد تخالف طبيعته طبيعة الصورة والمعنى الصقيلين المحدودين .

ويقيني ان الشعر العربي ، لا يمكن ان يلحق بركب الشعر العالمي ، حتى يتحرر من هذا المركب الذهني الذي تقوم فضيلته على الكد والبهرجة والاصباغ الخارجية . واذا لم يتحرر من وطاة المعاني القديمة الموروثة ، ولبث يتماصفها ويعبث بها ، فسوف يبقى جدارا من الفسيفساء في متحف الدمى والتماثيل . ما هو سر الخلود في شعر شكسبير وراسين وبودلير ومن اليهم ؟ هل كان في تزويق المعاني وتنميتها ، ام في التعبير عن الجذور الغائرة في اعماق العتمة عبر النفس ؟ هؤلاء كانوا يبثون سمفونية النفس الوئيدة ، التلفعة بعصب المأساة والوجود ، بينما كان الشعراء من بهلوانيي المعاني والصور يتلهون برسم الدمى ومزج الالوان والاصباغ التي لا حس فيها ، ولا انسانية لها . وذلك ، جميعا ، بشعرنا بعظم الخطب والفجيعة بموت اديب مظهر المبكر . فقد كان اديب اول من حطم وثنية التقليد ، وعمود الشعر التناسخي ، عندما تصدى لمشكلة الوجود ، لتنازع الانسان وتخبطه بمصيره . فمنذ الربع الثاني من هذا القرن ، عندما كان بشارة الخوري يتغزل بعرش الجمال والورد الذي يقتل نفسه في وجنة الحبيبة ، كان اديب مظهر يهتف بصيحة الانسان الموطوء ، المنسحق اثر الحرب الاولى ، اذ يقول :

اعد علی سمعي نشید السکون — واستبقني بالله یا منشدي
واستبدل الانات بالادمع — واسمع عزيف الياس في اضلعي
فان تجواب عزیف النون — حلو كمر النسم الاسود
الليل سكران وانفاسه — تلفح اجفاني واحلامي
تمر دوني ، زفرة زفرة — حاملة اكفان ايامي
بالله ! هلا نغم قاتم — على بقايا الوتر الدامي
فان في اعماق نفسي صدى — مثل دبيب الموت عبر الجفون
اعد على سمعي نشيد السكون — واستبقني بالله يا منشدي
فان تجواب عزيف النون — حلو كمر النسم الاسود

ارايت الى ما يقوله اديب ؟ ان اليوم الذي يمر يصبح كفا . فاين هذا الصدى الوجودي والحس العدمي المباشر ، ولتلمس الحي لمأساة الوجود ، من تلك الحذلقة الموات التي شهدناها لدى شعراء الصور والمعاني ؟؟

لقد اختلفت اوتار الشعر ، جميعا ، هنا .. ونكاد لا نبصر فيه الملامح القديمة الهرمة . ذلك ان المظهر الخارجي اصبح نقلا لاطياف الشعور الداخلي . انه مظهر للحلولية بين ذات الشعر وذات الكون . فانفاس الليل ليست سوى احلامه الحرى الملتهبة ، كما ان جحافل السواد ليست سوى مواكب عمره التي تحمل اكفان ايامه الماضية . ولعل الابعاد النفسية اصبحت قصية ، خلال ذلك الوصف ، كما ان الحواس توحدت ، عبر الحدس العفوي، فجعل الشاعر يبصر انفاس الليل تمر حوله ، الا انها في الواقع تعبر في ضميره وذهوله ، في حسه العدمي المتشائم الذي حول النفس الى كفن . هذا النوع من التصوير بلغ صفاء التجربة الشعرية ، لانه لم يعد نقلا لما تبصره الحدقة ، وتلهيا باكتشاف الصور والتشابيه الخارقة الروعة ، وعبثا بتوليد المعاني وزخرفتها بل تجسيدا لاطياف الوحشة الغريبة ، والشعور الوجودي المتهالك ، والفجر الانساني تحت وطأة الحياة . انها الغيبوبة المطبقة ، اي التجربة الشعرية الصافية ، التي تخلصت من الادراك وما يشمل عليه من معان معدة سابقا في الذهن . ولا بد لنامن التنبه الى ان اديبا تخلص ، احيانا ، من التشبيه في حدوده الكلاسكية . فبدلا من ان يشبه اليوم الذي يمر بالكفن ، نراه قد خطف مباشرة الى رؤية اليوم كفنا بصورة ذاهلة مفاضة عن التجربة . ذلك انه ، خلال وصفه ، كان يعاني التجربة ، ولا يفتكر بها او يفسرها بالمنطق والنظريات . وهذه الغنائية الذاهلة تغلب على وصفه ، جميعا . فهو يصف عالم الطبيعة الذي يحلم به بقوله :

هنالك حيث تحل الاماني غدائرها وتنام الطيوب

ولا نحسبن ان اديبا تخلص من التشبيه في شكله الظاهر ، جميعا ،بل نراه يتوسل به كسائر الشعراء ولكن دون اسراف وذهنية ، كما ان التشبيه لا يضعف الذهول لديه ، لانه ينبعث ويفيض من قلب التجربة. ولشدة توغل الشاعر بتشبيهه ، وانخطافه في التعبير عنه ، فانه يبثفينا حالة كالموسيقى ، توقظ في ضميرنا مشاركة وجدانية ، وحالة من التالف تتضوع تضوعا عبر النفس . من ذلك قوله :

اعد على سمعي نشيد السكون — حلوا كمر النسم الاسود

لا شك ان هذا التشبيه لا يجري في تيار التشابيه العادية . وقد لا نكون له وجه من وجوه التصوير ، لكنه لا قبل لنا بالتجاوز عنه ، لان المقابلة التي شخصت فيه ، تمثل ثورة في طبيعة الصورة الفنية التي تلازم ، غالبا ، اسلوب الشعر العادي . فهي تقوم اصلا على تداعي الحواس وتوحدها ، بحيث يرى الشاعر ما يلمسه ، او يسمعه . والواقع ان النسم لا لون له ، واذا ما تخيل لنا بشكل من الاشكال ، فانه اقرب الى الزهو منه الى الاسوداد . ولعل هذه الصورة تشتمل على ظاهرة المستحيل التي اسلفنا الحديث عنها في صورة الغمام الذي له لون هديل الحمام . الا ان الفرق بين الصورتين ، هو فرق داخلي ، لان تشبيه لون الغمام بلون الهديل ، هو تشبيه ذهني ، نتج عن المعرفة النظرية ، اما تشبيه مرور النغم بمرور النسم الاسود ، فهو تشبيه نفسي ، يعبر عن الاسوداد والبؤس اللذين يعانيهما الشاعر تحت وطأة الاسى . ان الغمام وهديل الحمام ، كانا معنيين خارجيين ، اما النسم الاسود ، فانه نسم وجداني عبر الشاعر عن نفسه من خلاله . ومهما يكن ، فان واقع هذه الصورة ينبري امامنا كالمفاجأة ، لانه لم تتيسر له مقدمات ، ولم تمهد له سنة سابقة في الادب العربي ، وان كان شديد التأثر بالرمزية والسريالية اللتين كانتا شائعتين في الادب الغربي . والواقع انه لا يمكن ان نتحدث عن علاقة الشعر المعاصر بالشعر القديم بقدر ما يمكن ان نتحدث عن علاقته بالشعر الغربي . فمنذ سنة ١٩٢٥ ، طفق الشعراء يتقصون الثقافة الغربية ، ويحاولون ان يحذوا حذوها . وكان اديب مظهر اول من راد هذا التيار الفجائي الذي اوشكت ان تنقطع صلته بعمود الادب العربي. وقد غلبت على هذا التيار النزعة الرمزية .

الصورة في الشعر الرمزي

ذكرنا ان جماعة الشعر الحديث يعتقدون ان التجربة الشعرية لا تتيسر للافكار والتعبير بالصور الواضحة البينة الحدود ، وان الغموض يوافق طبيعة الشعور الغامض القلق المتطور . وقد خلصنا ايضا الى ان التشبيه في تقريره المنطقي للشبه بين حالتين او مظهرين ، لا يبقى الا على اشلاء التجربة . لهذا فان الشعراء نزعوا الى نوع من التشبيه المبتور ، الذي سقط احد طرفيه ، او الذي توحد طرفاه ، فانتقل المعنى او الصورة ، من كونهما نتيجة للمقابلة بين مقدمتين ، واصبحا يتولدان من النسبة ، وهي اقرب الى الرؤيا المباشرة من التشبيه . قال سعيد عقل في وصفه لنظرة الاغواء التي رانت بها المجدلية عندما التقت المسيح :

فجرت في سماء جبهتها الحام وارخت في ناظريها الصفاء !

ان قوله « سماء الجبهة » اكثر تعبيرا عن واقع التجربة من قوله ، ان الجبهة رحبة كالسماء . ذلك ان نسبة السماء الى الجبهة بهذا الاسلوب المباشر متجاوزا عن اداة التشبيه ، انما يضفي على العبارة بعض التمويه الذي يغشى المعنى بكثير من الشفافية والظلال . والواقع ان رؤية الشبه مباشرة تضعف من اثر المنطق او تخفيه ، دون ان تزيله، فيظل مستترا يبث الواقعية واليقين دون ان يبدد ما يشيع من التموجات والاطياف العاطفية التي تتسرب الى النفس وتؤثر فيها ، بقدر ما ينفذ الوضوح الى الذهن ويدرك فيه . لهذا ، فان الاستعارة اكثر استيفاء للتجربة لانها اقرب الى طبيعتها . الاانها لاتبلغ الصفاء الفني والوجداني، ولا تنفذ الى الاعماق ، لانها تظل مقيدة بحدود ، تفصل بين المستعار والمستعار له . وقد كان طبيعيا ان تنزع التجربة الشعرية الى الرمز ، لانه يؤدي الى الحلولية التي توحد بين الاشياء وتنزع عنها حدود المنطق والتحاديد العلمية الشائعة . ولعل الرمز هو اصفى الاساليب الشعرية وارقاها ، ولا قبل للبدائي به ، لانه يقتضي قدرة على التوغل بالاشياء يعجز عنها عقله الذي يغشى ظاهر الاشياء . فالشاعر، خلال الشعر الرمزي ينكر المظهر المعاين ويعبر منه الى التاويل والتلميح ، اللذين يكشفان له عوالم الطبيعة والناس . ولئن كان امرؤ القيس جاهليا ، فقد

الم بفلتة من التصوير الرمزي حيث التبست عليه صورة الليل مع صورة الجمل ، فتحدث عن الثاني كانه يتحدث عن الاول ، وباسلوب مباشر، متجاوزا عن المشابهة ، موحدا بين ذاتيهما في حلولية مطبقة :

فقلت له لما تمطي بصلبه وأردف اعجازا وناء بكلكل

انت ترى ان الشاعر لا يميز بين الليل والجمل ، فيذكر تمطيه وارداف اعجازه ، وانحناءه بكلكله ، دون ان يقابل بين الاثنين او ينسب للواحد ما يشخص للاخر ، بل نراه يوحد بين الاثنين ، كانما خطر بلحظة من الثورة على واقع الشعر المنطقي التشبيهي المتردد .

الا ان هذه الفلتة عابرة ، مما لا يعول عليه في ذلك الشعر المسرف بالمادية والذهنية والتقليد . ولعل الصورة الرمزية لم تظهر بوضوح الا في الشعر المعاصر ، مع اختلاف بين الشعراء في الصفاء والعمق . فصلاح لبكي لم يتخيل ان الليل لطيف ولم يستعر له اللطف (1) من شيء اخر بل جعله متحدا به، او كائنا فيه ، يشخص عبره بالنسبة للشاعر ، كما يشخص الظلام بالنسبة لسائر الناس . ولا نحسبن ان آية هذا الاسلوب في تجاوز الشاعر عن اداة التشبيه ، والمقابلة ، لان هذه الامور هي امور خارجية . اما الفرق الجوهري الداخلي فهو في ان الرمز حالة ذاهلة ، اما التشبيه ، فهو حالة واعية مدركة ونحن نعلم ان الشعر ليس تقنينا او تفسيرا او ابتداعا ، وانما فيض ليقين لحظة من اللحظات النفسية وبذلك يتنقض مفهوم الصورة ، وفقا لتحديده القديم ، فلا يبقى نقلا للاشياء ، وتعبيرا عن مظاهرها ، لان هذه الاشياء تفتقد حدودها ومعانيها ، وتمتزج او تتوحد مع ذات الشاعر وتصبح المظاهر وسيلة خارجية مادية للتعبير عن الحالات النفسية ، كما ان الحالات النفسية تغدو وسيلة لاحياء المظاهر الطبيعية الموات ، وبعثها عبر وحدة عامة تشتمل على الكون والناس جميعا . اين الحدود بين المظهر الخارجي ، والحالة الداخلية ، في قول اديب مظهر :

الليل محموم وانفاسه تلفح اجفاني واحلامي
بالله ، هلا نغم قاتم على بقايا الوتر الدامي

هل النغم الذي يتحدث عنه ، هو النغم الذي تسمعه الاذن ام النغم الذي يفيض من اعماق الوحشة في ظلمة النفس ؟ والوتر هل هو الوتر الذي نضربه ونوقع عليه ، ام هو وتر القلب الذي يسيل دمه . هذان النغم والوتر تعبير حسي عن حالات نفسية ، ونداءات مبهمة ، فيها من الشدة والحرارة ، ما تعجز عنه الاساليب الواضحة .

وهكذا ، فان النزعة الرمزية تنقض وظيفة الصورة الوصفية لانه ليس ثمة ، فرق بالنسبة للشاعر الرمزي بين العالم الحسي ، والعالم النفسي .

الصورة في الشعر السريالي

لئن كانت الاستعارة والرمز تطورا من الاسلوب المنطقي ، فان السريالية هي نقض له وثورة عليه . وقد جعل هؤلاء يرون بنتائج علم النفس ، ان الحالات الوجدانية كثيرة التحول والتعقيد ، وانها تكاد لا تعرف الشخوص والاستقرار . فاللحظة النفسية التي نطلق عليها احد الاسماء انما هي تعبير مخادع ، يكاد لا يلم بشيء من حقيقة المعاناة النفسية . والواقع ، ان اللحظة النفسية التي تشخص امامنا ، هي مؤلفة تأليفا معقدا من ذرات اللحظات الاخرى التي تتلمح تلمحا ، او تخطف خطفا، وهي لشدة تحولها ، وسرعة هروبها ، توهم الذهن بخط واضح ، يغشى الفلذات الغامضة الواهمة . لهذا ، فان السرياليين يعتقدون ان التعبير الواضح الذي تستقيم فيه حدود المنطق ، او الذي يتيسر للمقابلة والتقرير ، لا يوحي بحقيقة التجربة ، لانه لا يقبض الا على مظهرها الزائف . وقد طفق هؤلاء يحاولون ان يقبضوا على اللحظة النفسية فيما هي تخطف ، وقبل ان يقبضها الادراك ويجزئها الى معان . فاللحظة التي نعانيها تشتمل على تناقض ولمع وهذيان ، لا يمكن ان يحلل تحليلا منطقيا . لهذا فان الصورة السريالية هي، غالبا ، مجموعة من الفلذات التي تغلب عليها الفوضى والتفكك . الا انها في مجملها تبث حالة كثيرة الذهول ، عميقة الاغوار . وبذلك تكون السريالية تطورا من الرمزية واسرافا بها . كما ان تسميتها بما فوق الواقعية لا نفي بدلالتها. فالمافوق واقعية لا تعني انها ثورة على الواقع ، بقدر ما هي ثورة على المنطق الواضح الذي يستبد به ويسيره .

وقد تمثلت هذه النزعة ، غالبا بشعر البياتي والسياب والحاوي . الا ان البياتي اسرف بها واعتراها بواو العطف وكاف التشبيه ، اللتين حولتا الصورة الى معادلة مفككة متراكمة . وذلك يدل على يسر التجربة ، غالبا لديه وقبوله بالوهلة الاولى ، دون ان يعمد الى التكنية العميقة القائمة التي لا ترد الصورة من قلبها بالقساط وبلغ بل تفيض فيضا بوحدة حية . الا ان فضيلته كانت في سبقه الى تحطيم القوالب القديمة، وقيامه بمحاولات جديدة لتجارب جديدة . وفيما يلي نبذة من قصيدة

---

(1) اي رب يا ليل انت رؤوف بتجني الورى ورجس العباد
ما كسوت الوجود لطفك الا خجل الشوك بالرؤوس الحداد

يصف بها سوق القرية :

الشمس والحمر الهزيلة والذباب ـ وحذاء جندي قديم ـ يتداول الايدي ـ وفلاح يحدق في الفراغ ـ « في مطلع العام الجديد ـ يداي تمتلئان حتما بالنقود ـ وساشتري هذا الحذاء » ـ وصياح ديك فر من قفص ، وقديس صغير ـ ما حك جلدك مثل ظفرك ـ والطريق الى الجحيم ـ من جنة الفردوس اقرب والذباب ـ ـ والحاصدون المتعبون ..

انت ترى ان الشاعر يلم باللمع التي تخطف خطفا امام حدقته ، كما انه يسجل الاصوات التي تنفذ الى سمعه ، دون ان يعنى بالترابط المنطقي في صيغ العبارة . فهو لم يتخط بطء العبارة العادية ، ويلتفت الى الاصداء المتناثرة في نفسه . وهذا النوع من الشعر اختلف في طبيعته عن عمود الشعر القديم ونسج على غرار الشعر الغربي ، خاصة اليوت وازرابوند وابولينير ولتريامون .

ولعل المحاولات التي قام السياب كانت اقرب الى الصفاء الشعري من محاولات البياتي، لان تجربته كانت اكثر عمقا ، وقدرته على التعبير اشد احكاما ، الا انه يسرف بكاف التشبيه ، كما اسرف البياتي بواو العطف مما اعترى القصيدة ، احيانا ببعض اليسر والزعزعة . عاكه يصف عرسا في القرية بقوله :

مثلما تنفض الريح ذات النضار
عن جناح الفراشة مات النهار
النهار الطويل
فاحصدوا يا رفاقي ، فلم يبق الا القليل
كان نقر الدرابك منذ الاصيل
يتساقط مثل الثمار
من رياح تهوم بين النخيل
يتساقط مثل الدموع او كمثل الشرار
انها ليلة العرس بعد انتظار

ان ادوات التشبيه تتردد في هذه الابيات ، وتعترض ،الا انه بالرغم من ذلك ، استطاع ان يدخل على الشعر العربي رعشة جديدة .

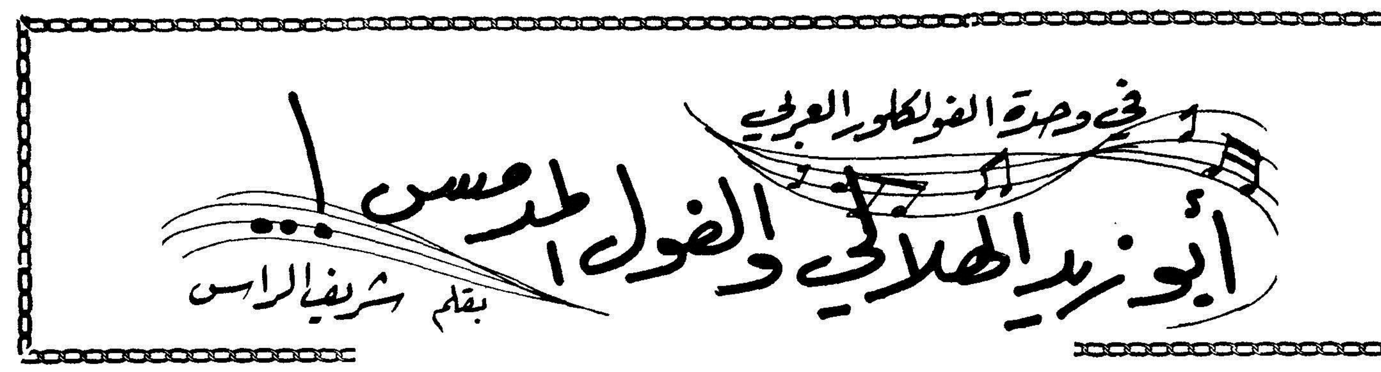
ولعل خليل الحاوي قد ادرك كيف يتخلص من وطأة هذه الحروف، متوسلا عنها بالافعال الخاطفة المتحركة من الداخل ، اسمعه يصف خراب سدوم بقوله :

هي ذكرى ذلك الصبح اللعين ،
كان صبحا شاحبا اتعس من ليل حزين ،
كان في القرية ضيق ،
ومخاض نساء بالغصات مكتوم الانين
كان في الافاق والارض سكون .
ثم صاحت بومة ، هاجت خفافيش ،
دجا الافق ، اكفهرا ،
ودوت جلجلة الرعد فشقت سحبا حمراء حرى
امطرت ملحا وكبريتا وجمرا ،
وجرى السيل جحيما مستحرا
احرق القرية ، عراها ،

طوى القتلى ومرا .
عبرتنا محنة النار ،
عبرنا هولها قبرا فقيرا ،
وتلفتنا الى مطرح ما كان لنا
بيت وسمار وذكرى ،
فاذا اصلعنا صمت صخور ،
وفراغ ميت الافاق ، صحرا ..
واذا نحن عواميد من الملح ،
مسوخ من بلاهات السنين ،
ان تذكر عابر الدرب بحال الميتين .
فهي لا تذكر ، جوفاء ،
بلا يوم ، بلا امس ، وذكرى .

ومما يكن ، فان محاولات الشعر المعاصر تنقض التصوير في مفهومه الشائع ، لانها اوشكت انتعدم الحدود بين عالمي المادة والنفس . فهي لا تشخص امام الظواهر لتنقلها ، بل تفل الى قلبها لتنحل وتذوب فيه .

ايليا الحاوي



الفنون الشعبية تعبير جمالي صادق عن روح عامة هي روح الجماعة ، وهو تعبير عفوي مباشر يعطي الصورة الصادقة الاولى عن الجماعة التي تبدعه ، وهذا سر استمراره ..

واذا كانت مظاهر هذا التعبير ـ كفنون الانشاء ورواية الملاحم والقصص الشعبي والرسم والزخرفة والصناعات الشعبية والرقص وكافة الفنون الشعبية الاخرى ـ واحدة لدى فئات الشعب العربي في جميع اقطاره ، فان الروح الجماعية التي ابتدعت هذا التعبير روح شعبية واحدة ، لانه ـ كما قلنا ـ تعبير صادق عفوي مباشر ، بريء عن الزيف.. ومعنى هذا ان ثمة دعامة واقعية جبارة تؤكد وحدة الشعب العربي ، هي وحدة فولكلوره . وهي كواقع حي ، أقوى سندا واعرق جذورا من كافة الدعوات السياسية او الفكرية التي « تؤمن » بالوحدة العربية .

وبمعزل عن الدوافع القومية جميعا ، انا ادعي بان الفولكلور العربي يكون كلا واحدا ، من المحيط ، الى الخليج ، وحتى في مناطق عربستان التي تسيطر عليها ايران اليوم ، وفي كيليكية ولواء اسكندرون الخاضعين للحكم التركي اليوم ، في كافة اقطار الوطن العربي وقراه ، يعيش ويستمر فولكلور واحد ، وتسود في الحياة عقلية واحدة ووجهة نظر واحدة ، وتتبدى سبل في التعبير الفني ـ على المستوى الشعبي ـ واحدة ايضا . ولا اعتبار لاختلاف الايقاع التعبيري للفنون الشعبية العربية بين قطر وقطر وتنوع مظاهره ، بل ان هذا الاختلاف ولتنوع وتعدد التلونات المظهرية في الفولكلور العربي ـ على مدى اتساع رقعة الوطن وتنوع بيئاته الجغرافية ـ انما كل ذلك مظهر غنى تكاملي رائع لهذا الفولكلور الذي ادعي بانه يصدر عن نبع واحد ، وعن ايديولوجية تكوينية عامة واحدة.

وهذا الادعاء ، او هذه الدعوة ، لم تتمكن لدي بسبب من اتصالي المباشر بعدد كبير من الفنانين الشعبيين العرب ، او بسبب من اهتمامي بمتابعة اشكال الفولكلور في اكثر الاقطار العربية وتذوقها ومحاولة درسها ومقارنتها بمثيلاتها ، فحسب ، وانما تمكنت لدي الدعوة ـ او الادعاء ـ لوحدة الفولكلور بفضل دعاة الاقليمية بهذا الخصوص ، وما اكثرهم . كما ان المحاولات المماثلة التي اصبحت عريقة ناجزة ليوم لدى شعوب عديدة، كالالمان والفنلنديين ، والتي دفعت بعض الفولكلوريين الالمان ـ مثلا ـ لان يلاحقوا مظاهر فنونهم الشعبية القومية في غابات الهند ، كل ذلك اثر في دعواي .

وأنا لا ازال الح على كلمة « دعوى » في دعوتي للكشف عن اصول ومظاهر وحدة الفولكلور العربي لان دعاة الاقليمية الفنية بريدون ذلك ، وبالحاح ايضا ، كما ورد في القدمة التي وضعها الاستاذ الجليل امين الخولي بين يدي كتاب الدكتور عبد الحميد يونس : « الهلالية في التاريخ



والادب الشعبي » ، قال :

« ان فهم البيئة أشد ما يكون لزوما للفهم الادبي والدس الادبي ... وتلك واحدة من الدعائم التي يقوم عليها منهج الامناء في الدرس ، ويكون له ما بعده من تقرير اقليمية الادب منهجا مصححا ، قد نافحت ـ يا عبد الحميد ـ عنه ، بحديثك عن مصطنعي البحث عندنا ، ممن لا يعنيهم الوعي الصحيح على فهم هذه الاقليمية الادبية ، وضرورة اتخاذها اصلا علميا للفهم الادبي والدرس الادبي ، فذكرت انهم لا يزالون يمضون على منهجهم القديم الساذج في النظر الى رقعة المتكلمين بالعربية على انها وطن واحد متجانس الخصائص والصفات ، وان الناس الذين يضطربون في هذه الرقعة مقيمين ومتنقلين ، وان تبلبلت السنتهم وتباينت منازعهم وطبقاتهم ، واختلفت قسماتهم وملامحهم ، تضمهم ارومة واحدة . الى نهاية تلك الدعوة الخاطئة .. فكانت دراستك هذه متممة لطريقك في التمكين لهذه الفكرة الاقيمية .»

ولا يهمنا ، ونحن نبغي البحث عن الحقيقة ، ان يكون قائل هذا القول « كبير الامناء » او احد تلاميذه « الامناء » ، وانما يهمنا ان نتحرى الدقة والموضوعية لندرأ عن انفسنا غضب الكبار .. كما لن نتزلف الدكتور عبد الحميد يونس ـ حسب الطريقة اللئيمة الدارجة اليوم ـ وانما سنكشف له عن خطاه صراحة ودون مواربة ، فهو رجل سيكون له اثر كبير في

مصير الفولكلور العربي بعد ان حصل على كرسي خاص لتدريس هذه المادة في جامعة القاهرة . وهو قد كان جريئا وصريحا حين قال : « ... للاسف الشديد راينا فريقا من الباحثين عندنا لا يزالون على منهجهم القديم في النظر الى رقعة المتكلمين بالعربية على انها وطن واحد متجانس الخصائص والصفات ، وان الناس الذين يضطربون في هذه الرقعة ، مقيمين ومتنقلين ، وان تبلبلت السنتهم ، وتباينت منازعهم وطبقاتهم ، واختلفت قسماتهم وملامحهم ، تضمهم ارومة واحدة ، ولم يصبهم في طرائق الفكر والشعور تبدل او تحوير خلال العصور والاجيال ، فآثرنا ان نتابع طريقنا في التمكين لهذه الفكرة الاقليمية من ناحية ، والعمل على مسايرة النهضة القومية الديمقراطية من ناحية اخرى » .

ولهذا الغرض درس الدكتور يونس « تغريبة بني هلال » ، احدى اهم ذخائر الفولكلور العربي ، وبذل جهودا واسعة لتأكيد اقليميتها وتبيان « مصريتها » ، وليطلب الينا ان نسلم بان « بقاء الخطوط البارزة في السيرة الهلالية على حالها انما يعني مسايرة هذه الخطوط للروح القومي المصري من ناحية ، ولفلسفة الحياة التي درج عليها المصريون في جميع عصورهم من ناحيةثانية ، وملاءمتها للتقاليد القصصية المتوارثة في هذه البيئة من ناحية ثالثة » .

ويتساءل الدكتور يونس احيانا في عروبة المساكين ابطال سيرة بني هلال فيقول : « وان كانت البيئة المصرية قد احتفظت لاشخاص هذه السيرة باسمائهم وكناهم وبعض ملامحهم ، فانها مصرتهم ، وقد مر بنا ان الاحتفاظ بازيائهم العربية سمة من سمات الشعور بالذاتية المصرية المستعربة المغايرة للترك ومن لف لفهم من الحكام » .

وقبل ان نضع يد الدكتور يونس على الاراء العفوية ـ ولذلك كانت سليمة ـ التي وردت في كتابه والتي تعد حجة لدعاة وحدة الفولكلور العربي ، لا حجة عليهم ، احب ان اذكر بان ، بعد البحث الطويل ، استطاع ان يربط السيرة الهلالية بما يسميه العقلية المصرية لان السيرة « تحدد العدد في الافراد والمجموع بمضاعفات الرقم تسعة . فتذكر ان خليفة الزناتي قتل من امراء الهلالية تسعين فارسا ، وان جيش الهلالية كان اربع تسعينات الوف » ، وهكذا . والرقم تسعة كما هو معروف من الارقام المستقرة في اخلاد المصريين منذ عهد جد قديم » .

هذه اقوى حجج الكاتب على مصرية سيرة بني هلال .. وهي حجة قد تذكرنا بذلك الكاتب الذي اراد ان يبين « خصائص الشعب المصري » فقال مما قال : الشعب المصري يحب السلام .. آسلام » . سامحه الله ، وسامح ايضا الكاتب الاخر الذي كشف عن « القومية المصرية » في قدر الفول « لانهم جميعا ياكلون الفول المدمس » ..الخ

*

لا خلاف في ان الادب الشعبي عموما ، والمأثورات القصصية المتداولة خصوصا ، من اهم اعمدة الفولكلور وافصحها بيانا عن عقلية الشعب ومعتقداته وابعدها اثرا في ذوقه وتصوراته الجمالية والاخلاقية . ومعروف عن المجتمع العربي انه من اغنى المجتمعات بالثروة الفولكلورية القيمة ، ومعروف ايضا ان ادبنا الشعبي من اغنى الاداب المماثلة واشدها تميزا وافصاحا عن روحه المبدعة الفذة ، ـ وهذا سر انتشاره عالميا ـ، اذ ان ادبنا الشعبي فيه« من الحرية والمرونة والقدرة على الاخذ والعطاء ما يجعله يتحدى الخلاف الديني والخصام الحربي والمغايرة العنصرية . ومن الملاحظ ان تيار الادب الشعبي العربي كان قوي التاثير في اقاليم البحر الابيض المتوسط من ايطاليا واسبانيا وجنوبي فرنسا ، بحيث ادخل عنصرا جديدا يستطيع ان يقف الى جانب العنصر اللاتيني ، بل يغلبه في بعض الاحيان » .. اما في العصور الحديثة فقد اصبح الفولكلور العربي مصدر الهام سخي لعدد كبير من فناني العالم .. ولا نأتي بجديد اذا قلنا ان ابرز محفوظات الادب الشعبي العربي هي السيرة الهلالية بفصولها اجزائها العديدة والسير ـ او الملاحم ان شئتم ـ : سيف ابن ذي يزن ، والظاهر بيبرس « المصري الشركسي الذي حوله الشعب الى عربي قح ثم آمن به » .

وقد يصح الخلاف في عروبة اي من هذه السير او الملاحم الاالسيرة الهلالية فهي تستعصي على اي خلاف من هذا النوع وتتمنع على الانسحاب نحو الاقليمية تمنع استحالة .

فالسيرة الهلالية لا ترافق رباب الشاعر في مقاهي القاهرة العتيقة فحسب . ولا تتناقلها الالسن في سهرات الصعيد وقرى الدلتا فحسب ، وانما هي تروى ويصغى اليها في كافة القرى والمجتمعات الشعبيةالمنتشرة في ارجاء الوطن الواسع ، في مراكش وفي الجزائر وفي تونس . وفي جنوب الجزيرة وفي الشام والعراق، لا بل ان قبائل عربستان لا يزالون يسمرون على ملحمة.بني هلال ، ولم يصل الى علمنا انهم استساغوا السمر على حكايات الشاهنامة « الايرانية » . وكذلك الامر في كيليكية والاسكندرون ، حيث لا تزال حلب تصدر اليهما ـ تهريبا ـ القصص الشعبي ، لا بل ان الشاعر الكبير الاستاذ سليمان العيسى ، حين كان فتى من فتيان انطاكية ، حاول ان يقلد ملاحم الهلالية بابداع ملحمةشعبية تقص حكاية الفلاح البطل « جميل الحايك » . معنى هذا ان السيرة الهلالية كانت في انطاكيةاكثر انتشارا واقوى ازدهارا وتأثيرا منها في مصر ، مثلا ..

اذن فحجتنا الاولى على عروبة السيرة الهلالية، وبراءتها من الاقليمية المزيفة ، كونها لا تزال منتشرة في كافة ارجاء الوطن الكبير ، متغلغلة في ضلوع كل مجتمع شعبي عربي ، نشيطة في اداء وظيفتها الفنية كتراث يضم قيما اخلاقية وجمالية عربية محضة .

هذا اولا ..

واذا كان مبدع هذه السيرة او مبدعوها ، من سكان اقليم مصر في القرن السادس او السابع للهجرة ،وهي قضية لا يمكن اثباتها ، فان ذلك دليل ثان على عروبة هذا الشعب الذي انتج ادبا شعبيا عربيا محضا ، عربيا بحيث ينتشر في كل قطر ويزدهر ويعشش في كل القلوب .. ثم ان المجتمع

العربي في القرن السادس او السابع كا ن مجتمعا متماثلا في كافة الاقطار ، يعتقد عقيدة واحدة ويؤمن بقيم ومثل في الحياة واحدة ويواجه مشاكل واحدة ، الامر الذي لا يحتاج الى عناء في اثباته .

ولكن لم كل هذه الحجج وهذا العناء ، والسيرة الهلالية ذاتها بين ايدينا صريحة في سماتها ودمائها العربية ، اكاد اقول سماتها ودمائها البدوية الصحراوية الجاهلية ؟؟!.. انني ان اعرض اهم هذه السمات من خلال اجتهادي ، وانما ساعرضها كما وردت في اجتهاد الدكتورعبد الحميد يونس ذاته كي نحسم المشكلة اولا . ونضع يد الدكتور على اخطائه ثانيا ، ونبين للقاريء فشل كل محاولة فكرية في اقلمة اية ظاهرة عربية ، وفي الفولكلور خصوصا .

فالهلاليون ، كما جاء في كتاب « الهلالية في التاريخ والادب الشعبي » قبائل عربية ، من بدو الجزيرة ، معروفو النسب ، كان لهم ايام الجاهلية شان وخطر ، ومنهم قبائل وعشائر هاجرت الى بلاد الشام ومصر قبل الاسلام ، وكان لهم ايام الدعوة المحمدية وفي حروب الردة والفتوحات شان وخطر ، وازدادت هجراتهم الى المناطق المفتوحة ايضا .. ثم كانت هجرتهم – او تغريبتهم – التاريخية الواسعة بعد ذلك الى العراق والشام ومصر وليبيا وتونس ، وقد تركوا بعضا منهم في كل قطر مروا به ، ومنهم من آثر البقاء في الصعيد . اذن فهم عرب انتشروا في الجو العربي الجديد الواسع ، لا بل انهم كانوا « من المعنين في البداوة ، المعتزين بالعصبية ، لانهم كانوا يقاومون عوامل الاستقرار والاندماج . وانهم لم يتغيروا في جميع المسارح التي حلوا فيها . فقد كانوا في نجد والعراق والشام ، كما كانوا في مصر وافريقية وبلاد المغرب »ص٧٨.

ومن صفاتهم العربية انهم يعتزون بخيولهم ويغالون في ذلك « حتى اصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيل ادنى الى القرابة ، فيها من التعاطف والحب ما بين الاقرباء.. ودونت الكتب اسماء كثير من خيلهم المشهورة كالاحزم والازور واعوج الاكبر ، اشهر خيول العرب واعظمها ذكرا على الاطلاق .. وقد بلغ من وثوق الصلة بين الخيل واصحابها ان الفارس منهم كثيرا ما كان يعرف بفرسه لابقسماته وزيه » ص ٨٩ . – ويقال : « ان ديابا لم يبك احدا من بنيه كما بكى فرسه عندما نفقت ، وظل يذكرها حتى اذا حضرته الوفاة كانت وصيته ان يدفن الى جانبها في المكان الذي اختار لها » ص ١٧٢

ومن صفاتهم العربية ان الفارس منهم كان يحافظ على سلاحه محافظته على حياته ، ويهتم في ان « يصونه من التلف ، وان يتعهده بالصقل والاصلاح حينا بعد حين. وكانوا يتصورون هذه الاسلحة وكانها كائنات تنبض بالحياة ، سكبوا عليها من نفوسهم شعورا ووعيا ، ووصفوها بالتمييز ومعرفة العدو والاقدام والحماسة ، وما الى ذلك من اوصاف الفرسان عندهم » ص ٩٠

ثم يقول : « تعد سيرة بني هلال من اروع القصص في هذه البيئة المغايرة « يقصد المصرية » لبيئتها الاولى التي انشاتها « يقصد العربية » ... فما الذي مكن لهامن الحياة في هذا المحيط ؟؟ » ص ١٧٧ .

اليكم جوابه الذي يكاد يكون اعترافا وتسليما ، قال :

« لقد تسلمت البيئة المصرية سيرة بني هلال وغيرها من السير ، بعد العصر الفاطمي، او بعبارة اوضح ، بعد ان اصبح السلطان في يد غير العرب . ولهذا دلالته على تلك الخصيصة العامة التي نريد ان نتبينها ، فان الشعب المصري ، قد تم استعرابه واسلامه ، اصبح يقف من الدول الحاكمة موقف الشاعر بذاتيته ، المحتاج في الوقت نفسه الى التعبير عن هذه الذاتية . فدفعه ذلك الى انتخاب احداث بعينها تصلح للترجمة عن مشاعره القومية وهي كما نعلم ملونة بالعروبة ، فاهتدى الى عنترة والى سيف بن ذي يزن والزير سالم والى بني هلال . وهذا يدل على ان القومية المصرية ذات الطابع العربي لم يكن يعنيها التفريق بين عدنانية وقحطانية بقدر ما تعنيها الصفة العربية العامة . بل ان هذا الشعور القومي كان يطبع العناصر غير العربية بطابعه كما فعل مع الظاهربيبرس، اذ انتزعه من الجركس ووصله بالعرب . وعلى هذا فالخصيصة الاولى التي اعانت على تمصير السيرة الهلالية هي انتصار عروبتها » ص ١٧٨

ارايتم الى انزلاقات الدكتور في هذه الفقرة ؟

ارايتم الى تأكيده عروبة شعب مصر الذي احتضن اثرا ادبيا شعبيا وحافظ عليه ووجد فيه مثله ومطامحه وصورة لنفسه ومشاعره ؟

ان الدكتور عبد الحميد يونس يقع في مثل هذه المزالق الطيبة التي تخرج به عن نطاق الاقليمية المصطنعة الى ميدان القومية العربية الرحب الواضح ، في كثير من صفحات كتابه عن الهلالية . اما الهلالية ذاتها فتظل مستعصية على التأقلم والتضييق والتصغير .. وقد ثبت نهائيا ان ابازيد لم ياكل فولا مدمسا ، وكذلك الزناتي ودياب والجازية ، تلك البدوية التي احبت كل مصرية ان تكون مثلها ..

وبعد ، فان لدعاة الاقليمية في الادب الشعبي العربي خصوصا ، وفي كافة مظاهر الفولكلور العربي عموما ، فضلا كبيرا في انهم يبينون لنا استحالة تفتيت هذا الفولكلور ، وبناء منظومات فولكلورية اقليمية .. على ان الفولكلور العربي لم يصبه اي اذى من محاولاتهم التفتيتية ، اذ انه لا يزال تراثا غنيا هائلا ، لم تطله الدراسات الجدية بعد .

شريف الراس

القاهرة

ملتزمون ام متعصبون ؟؟!

بقلم مطاع صفدي

لفت انتباهي في نقد القصص خلال الاعداد الماضية من الاداب ، وخاصة العدد الاسبق ، ان لهجة معينة قد بدأت تبرز في تقسيم المضمون القصصي، واستطيع ان ادعوها لهجة (متعصبة) تدعي لنفسها مايدعيه احيانا غلاة المتدينين من حق في تكفير الناس ، وما كان يدعيه الى زمن قريب غلاة الدين الجديد ،اعني به الماركسية ، في فرض منهجية ضيقة خانقة على الكتاب . ولكن الخطير في هذا الطابع الجديد من التعصب ، الذي اعنيه هنا ، هو ان يكون باسم اكبر دعوة للحرية الحقيقية وهي قوميتنا العربية .

لقد قرأت آراء غريبة في فهم الالتزام لاترمي في النهاية الا لشل التجاوب الحقيقي بين الاديب وبين الواقع العربي الذي يلتزمه عفوا ودون جعجعة ومحاولة لفرض (المعلمية) في (العقيدة العربية). فمثلا حاولت الانسة نازك الملائكة في العدد الماضي ان تركز نقطة اساسية في مهاجمتها لقصتين احداهما لمي يتيم واخرى لزكريا تامر ، وهي مسألة المضمون القومي والاخلاقي للشخصيات المتحركة في هاتين القصتين . ولقد عجبت حقا ان تصدر مثل هذه الاراء عن كاتبة او شاعرة لامعة كنازك كان لها نصيب وافر في كشف جانب من سوداوية البطل العربي المعاصر ، تناولته من خلال التجربة الانثوية وقصة تمردها في واقعنا الثوري .

وانا اقول لنازك ان فهمها للانسان العربي على انه كائن عاقل ايجابي، محب لمدينته ، يحيا بسلام مع الله والتقاليد والشارع ، وانه بطل ، قوة كله ، تفاؤل كله ، فتح مبين دربه ، عالم من الشعر والصبح والزهر وافعه، هذا الفهم لبطلنا يجعل منه بطلا عسكريا ، كرتونيا ، نقدمه الى اطفالنا في مدارسنا الابتدائية . انه في الواقع نوع من (العناترة) الجدد التي لا تعيش الا في مخيلة سكونية لا علاقة لها بمأساة البطل العربي الحقيقي. تماما كما فعلت نازك في محاولتها لكتابة القصة ذات العنوان (منحدر التل) (1) ، فقدمت لنا عائلة من عرب فلسطين داهمتها الكارثة ،والعائلة ريفية ، فاذا بها تصبح ، بالنسبة لوعي القاصة الجديدة ، عائلة يحيا افرادها في غرف مستقلة، او في بيت تقام فيه العلاقات الاسروية كما تقام في بيت لورد اقطاعي في انكلترا - وفي قصة قصيرة ذات ثلاث صفحات هناك اعطاء لاكثر من خمسة او ستة اشخاص ، يطل كل واحد منهم من نافذة عابرة .. انهم اشخاص مختلفون ، سكونيون ، واحساسهم بالكارثة يشبه احساس صاحب (كاديلاك) بثقب عجلة من عجلاتها ... وعندما يفرون امام اليهودي لا ينسون ان يصحب كل واحد منهم (بطانيته) .. هذا في عائلة ريفية من عرب فلسطين ..

ثم من قال لك يا نازك ان العقيدة العربية لم تخلق من اليأس الكادح المدمر ، من قال لك ان العرب قد حلوا جميع مشاكلهم واصبحوا في راحة مطلقةيبحثون عنالجمال والرفاه،وكيف يمكن ان يكون انساننا الفنان مجرد شاعر غنائي و (السحل) في (بغدادك) والقلق ذو الالف مخلب في نفوس الطليعة العربية في كل مكان التي تعاني المأساة من داخل، لا كحلية جديدة في موجة مودة مستحدثة ، ولكن تحياها كأزمة وجود وحرية لا تفتأ تعمق هواتها بقدر ما ينفتح امامها عالم النصر .. كيف نبعد عن انساننا هذا القلق وهو يرى الى انتصاراته الكبرى تحيق بها اخطار جديدة يبتكرها الاعداء في ذات الخطورة التي لانتصارتنا على مصالحهم .. ما هذه السهولة واليسر والنعومة التي تراها نازك في ثورتنا ، وهي ثورية تشتق عظمتها كلها من كونها مخاطرة كلها ولا ضمان لها الا تصميمنا ، الا شعورنا بحريتنا الجديدة .. وهي حرية متمزقةشاقة على اصحابها عندما يعون حقا مهمتهم الاصلية ..

ليس ، يا نازك ، كالواقع العربي مدعاة لليأس والتمرد معا ، ليس كالريف كالمدينة كالبيت كالمصنع كالوظيفة كالسينما والملهى والمقهى في معطيات حياتنا اليومية ، محرضا على النقمة ، على الاشمئزاز ، على التنبه العميق لمعنىمأساتنا، وبالتالي على الثورة الاصيلة ..

انه جذر حقيقي لبطلنا ، كونه اولا بطلا بدون ضمانة ، كونه ثوريا بدون عدة للثورة ، كونه مهدما قاسيا ، ينحت من الصخر ، صخر الواقع الفاسد ، ينبوع الحياة الجديدة ، التي لم يعرفها بعد ، التي لا يدرك بعد ما هي وكيف ستكون،الا انه ارادة على الحرية الكبرى ، على المعاهدة المجاهدة .. والثائر هو اولا يائس ، واليأس معناه رفض كلي لجميعمظاهر الواقع وقيمه وتحجراته . فمشروع ان نكتب عن الجانب المظلم ، ان نعترف بالامنا ، ان نكشف عن أزماتنا ، ان نفضح اقبيتنا ، ومشروعان نقدمنماذج الى اسفل ، لنعلم بعد ما هو الاعلى ..

واما ان نحدد موضوع فننا بان يكون فن سعادة وطيبة وعقل وتوازن وتفاؤل ساذج ، فهذا هو التعصب لعقيدة لا نفهمها حق الفهم بعد ، وهذه هيالمنهجية التي تقبر الحرية ، وهي روح دعوتنا الحقيقية ، وهذه هي الماركسية في شكلها القسري والعنفي المصطنع ، ولكنها تتحدث الان بكلام عربي.

واخيرا فلتعد نازك الى تجربتها الشعرية منذ (عاشقة الليل) حتى (قرارة الموجة) لتبحث من جديد لماذا كان ذاك شعرا ، ولماذا كان ذاك (الشعر) ينبجس من سمفونية السواد واليأس والتمرد معا ، ولماذا اثر في قرائها ، وكان ذلك الاثر ما جعلها شاعرة حقا . نحن لا نريد ان نطلي ببريق زائف واقعنا المتناقض المشوه في اكثر من وجه له المضطرب، المندفع القلق ، لا زاد له الا كونه تمردا مطلقا من اجل ضوء سفير نحيل في فضاء مغلق بالسواد والصمت .

واخيرا ليست كلمتي هذه ردا (1) على نقد من نازك الملائكة . ولكنها تنبيه - قد يكون عنيفا قليلا - لدرب وعرة اخشى على كتابنا ذوي النية الحسنة تجاه عقيدتهم القومية ، ان ينجرفوا في وعورتهم ، عندما يطلبون، بدافع من التفاؤل والتغاضي المتكبر ، من الفنان نوعا من المنهجية المادية في وقت بدأت فيه تجربتنا الادبية الشابة تلامس شيئا فشيئا رسالتها

(1) نشرت في عدد قريب من الاداب

(1) وذلك لانني ما تعرضت للنقاط الفنية التي احدتها الكاتبة على القصص المنقودة ، بل انني اكتفيت بمناقشة فهم الناقدة لوظيفة المضمون القومي الذي تشير على كتاب القصة بتبنيه والتعصب له .

الطبيعية ، وهي ان تعبر عن الانسان العربي كما هو في جدليته الرائعة بين سواد مطبق وتمزيق للسواد في نفسه ، وفي عالمه .

دمشق — مطـاع صفدي

عندما تدافع الفرعونية عن محمد !!

بقلم علي بدور

تعجبني في مقالات الاستاذ الصديق غالي شكري ، عناوينها المضيئة ، فهو مرة .. يصف العمامة بانها : تاج العرب .. ثم لا يلبث ان يلقي في اخر المقال بتاج العرب ، ارضا ، كما فعل بطل الخندق الغميق للدكتور سهيل دريس .. ومرة يضع العنوان : دفاع عن محمد (١) .. ثم يبدأ من خلال المقال يبث افكاره واراءه .. في الرسل والرسالات والحضارات ، قديمها وحديثها ، باسلوب حي ، ولكـن لا يخلو من بعض الاراء الخاصة التي هي بحاجة الى وقفة ومناقشة .

نحن نود من الاستاذ غالي – ايمانا منه بمنطقه الفكري – ان تنسجم عناوينه مع كلام مقالاته . وان لا يقصد منها اثارة القارىء وتشويقه للقراءة .. كما تفعل بعض دور النشر حين تضع العناوين المثيرة للكـلام التافه الغث .. والاستاذ غالي يظلم افكاره القيمة بعناوينه هذه .

والنقطة الوحيدة التي استوقفتني هي ان الاستاذ غالي يريد ان يفسر لنا موقف الدكتور الصديق نظمي لوقا ، تفسيرا يبعد كثيرا عن المعنى الذي قصده الدكتور لوقا . اذ ان الدكتور لوقا يعرض في كتابه « محمد الرسالة والرسول » الى قصةاتقانه اللغة العربية والادب العربي وتفهمه بآداب اللغة العربية ، عندما كان صبيا على يد شيخ مسلم ، وهو المسيحي القبطي . ثم يتابع الدكتور عرض رأيه في قصة الرسول ومعنى الرسالة .

ولكن الاستاذ غالي ، من خلال منطقه وفهمه للاديان ، واللغة العربية والعرب ، يريد ان يشعرنا ان الدكتور نظمي انما كان يكتب قصة وليس بحثا له اصول واعراف . والا كيف نفسر ، اذن ، تفسيرات الاستاذ غالي، ان اخناتون – احسن الله اليه والى انصاره – قد تلاقى عنده ، محمـد والمسيح ، كما تلاقى الشيخ المسلم وتلميذه القبطي ، على اعتبار انهمـا مصريان .. ينحدران من صلب اخناتون .. ان كان لاله المؤمنين بالفرعونية صلب ينحدر منه البشر !

ولا ادري اذا كانت عقدة نقص ما ، موجودة لدى بعض الناس ، الذيـن يمكـن ان يسلموا بما جاء في افكار كاتب المقال ؟ ذلك انها متـناقضة . فهي في بدايتها تفسر الاديان تفسيرا علميا وتشترط لانبثاق دين ما ، عدم اغفال الظروف المادية الراهنة انذاك . هذه فكرة نسلم بها مبدئيا .. وهي فكرة الاستاذ غالي – ولكن كيف تستقيم هذه المقدمة مع جعل اخناتون – نعم اخناتون – اولموحد للعالم .. في العالم .. ورد فكرة التوحيد هذه الى طبيعة الشعب المصري الذي كان على حد تعبير الاستاذ غالي يعاني من المستبدين الانجليز والاتراك والمستبدين المصريين ، وكذلـك (العرب) – كما يقول الكاتب – كلما اراد ان يكشف عن انسانيته الماضية التـي اكتشفها اخناتون ، لتمحو مرارة التاريخ وتذيب رواسب القـرون ... ولكن كيف يتخلص الشعب في مصر من الاسلام والمسيحية ، واللغة العربية ليصل الى اخناتون ؟ ان اهل الكهف ناموا ثلاثمئة سنة فلما استيقظـوا جهلهم الناس ، افلا يجهل اخناتون تلاميذ كلوب (٢) ؟!

ويتحدث الكاتب عن الوحدة الجنسية التي عرفها الشعب – المصري – بعد الغزو العربي – رغم نفيه لكل دعوى عنصرية – الا ان الواقع التاريخي ان العرب عندما ذهبوا الى مصر لم يذهبوا كعرب ولكن ذهبوا كمسلمين. هذه حقيقة مهمة . والمسلمون الذين ذهبوا الى مصر لم يفعلوا باقبـاط مصر ما فعل مسيحيو اسبانيا بالمسلمين هناك بعد تقوض دولتهم ، اذ اجبروهم على التنصر . ولا ادري كيف يمكن لاقباط مصر ان يتكلموا اللغة العربية ، دون ان يصبحوا مسلمين لولا سماحة المسلمين الذين اسماهم الاستاذ غالي غزاة !! تماما كالانجليز الغزاة ، الذين فتحوا الهند ! ولكـن ماذا استطاع الانجليز ان يفرضوه على الشعب الهندي ؟ هل تكلم الشعب لغتهم في حياتهم اليومية ؟! هل فرض الانجليزي البروتستانتي لغته على الهندي البوذي او المسيحي ؟ ولا نعلم ما هي حقيقة شعور بعض المثقفين من اخواننا الاقباط في مصر .. فهم رغم ايمانهم بالظواهر المادية فـي حتى المجتمع وفرض التطور على التاريخ ، لا يزالون يناقشون الامـور المحيطة حولهم بروح قومية متعصبة لا لمظاهر الحياة التي يحيونها واللغـة التي يتكلمونها ، ولا لدين مسيحي سمح كريم .. بل لحضارة فرعونية، يستمدون منها القيم والافكار ، والمثل ، والدافع لتبرير الحياة الحاضرة ، وتوزيع افضالها على العالمين . ولا اعتقد ان للفرعونية في مصر مـن النفوذ ، غير اثارتها كالاهرامات وابي الهول الذي جدعت انفه العاديات وبعض الاثار المجموعة هنا وهناك .. ولا أريد ان اتساءل كيف يتعصب نفر مثقف لحضارة انقرضت ، ليس لها لغة ، ولا مشاعر ، ولا روابط تشـد افرادها بعضهم الى بعض ، ولا طراز حياة ، في المأكل والمشرب والتصرف العادي الذي يصبح عليه المواطن ويمسي ، في الوقت الذي يباهي به بعض الجاهلين ان الشعب المصري هضم اليهودية والمسيحية والاسلام ، وتمثل اليونان والرومان والعرب ، وظل فرعونيا رغم كل شيء ؟.. ولكن لا بأس ان يستعير لغته من العرب ، وطراز حياته منهم ايضا ، وان يكـون فيه المسلم والمسيحي واليهودي ، وان يظل رغم ذلك فرعونيا يحاول ان يستمسك بوحدته التي تصل به الى ابي التوحيد اخناتون كما يقول الاستاذ غالي ؟؟

ومفهوم الاستاذ غالي للغة العربية مفهوم ساذج حقا . انه يتصور ان اللغة العربية ، وفدت الى مصر في علبة مبطنة بالحرير .. ضمن أثاث احد الطغاة الفاتحين الذين وفدوا على مصر ! لا يا استاذ .. ان اللغـة العربية رغم انها كانت لغة لاسلام ، فانها لغة العرب الذين سكنوا مصر ايضا .. ولا اريد ان اعرض للاستاذ غالي نسب عرب الوجه القبـلي والبحري ، والقاهرة التي بناها جوهر ، وكيف امتزج هؤلاء .. بهؤلاء ... وكيف ولد شعب جديد ، ليس له اية علاقة تربطه بالمحترم اخناتون .. ولا خوفو .. ولا منقرع !! اللهم الا الذين ناموا نومة اهل الكهف .. ثم ارادوا ان يستيقظوا في هذه الايام ليتحدثوا كما يتحدث الصديـق الاستاذ غالي ، عن الغزو العربي والحكام العرب والطغاة العرب .. الى ما هنالك من معزوفة وضع الحانها الاستعمار ورددها الخداعون والابرياء من بعـده !

هل يدلنا الاستاذ غالي على مذهب للفكر يؤمن بالتطور المادي للتاريخ، وبالعنصرية التي تسمو على المسيحية والاسلام !! وبالكيان الاجتماعـي

(١) الاداب – ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٩ ص ١٩

(٢) مطبق السياسة الاستعمارية في مصر ومخطط برنامج فصل مصر عن العالم العربي واحياء الفرعونية !

الذي يريد ان يرجع لاصله مجردا من للغة ومظاهر الحياة وكل القيم الاجتماعية المرعية !! ويؤرخ تطورا الشعوب وانصهار بعضها في بعض ، على انه غزو وطغيان الى ما هنالك من قبيح الصفات والنعوت ! ويقف اخيرا ليناقش — ولا ادرى بحسب اي مذهب نقدي — ويفسر حياة كاتب رواها بقلمه ، على انها رمز لكل ما في افكاره من معلومات عن المذهب الفكري الغريب العجيب الذي يؤمن به ويدعو اليه ؟ ام ان الصديق الاستاذ غالي منهمك الان في اكمال ما توجيه مبادىء الدفاع عن حمد والعمامة تاج العرب ، وغيرها من عناوين هي اشبه بتيجان .. ولكن لاجسام من الافكار محنطة .. ميتة ، على طريقة من حنطهم التاريخ ، وبئس ما يحاول كل نافخ في رماد بارد ، ابرد من شعور بيت ، ووجدان كظيم !!

حمص — علي بدور

حـــول
«مصارعة الثيران في السياسة الدولية»
بقلم نور الدين مصطفى

ليس اخطر (*) على جيلنا العربي الراهن الذي تتالب ضده قوى عديدة هائلة من ان تتمزق قواه القومية او تتشكك في اهدافها الكبرى او تنقسم على نفسها او تفترسها الحيرة الشريرة المسمومة او تنحرف الى متاهات الحروب الجدلية حتى تضل سبيلها وتضيع .

ولا شك ان الشعب العربي سينكب بهذا الخطر لو فقد ايمانه بهذا الاتجاه التحرري الذي تدين به جماهير العروبة في شتى اقطارها وتطبعها بطابع جماعي موحد لاول مرة في تاريخها الحديث رغم اختلاف الانظمة السياسية التي تحكمها ورغم الاعداء الكثيرين الذين يتآمرون على تدمير روحها من وراء اقنعة مختلفة وبراقة احيانا ومزورة .

وليس اسهل ولا امكر في محاولة تمزيق الاتجاه العربي الثوري من الزعم بان هذا التيار الجماهيري الزاحف ان هو نزوة شخص او اشخاص معينين وليس روحا ملتهبة مؤمنة لا تقبل انحرافا ولا تطيق جدالا .

والاستاذ كاتب مقال (مصارعة الثيران في السياسة الدولية) في آداب الشهر الماضي لم يتعرض في مقاله لذكر البلاد العربية بصراحة ، ولكنه دون شك لم يكن يعني اسرائيل في غمزاته وتهكماته ، ولا يعني كذلك سويسرا ولا امريكا ولا روسيا ، بل يعني اطراف النزاع في معركة القومية العربية ، وهو سيحاول التنصل حينما نمسك بخناقه هنا وربما يدعى انه لا يعني مقاله شيئا ولا احدا .

يقول الاستاذ الكاتب « ان الانسان يصاب بالذهول حينما يرى شعبا يتحول الى جهاز دعاية » وهو كما نصر ونكرر لا يقصد الا العرب. انه يتقزز من هذا الشعب الذي تقوده روح واحدة ، ولكنه لا يقول ذلك بصراحة بل يجمل اجمالا فيشير الى شعب ما بانه تحول الى جهاز دعاية ، وسواء علينا اكان الكاتب يقصد العرب ام يقصد مجتمع واق الواق فان الامة العربية تعيش عصرا عربيا ثوريا كعصر الثورة الروسية وعصر الثورة الفرنسية وهو عصر خاص بالثورة العربية منبثق من طبيعتها وتاريخها وظروفها والروح العربية الثائرة سلالة منحدرة من كل ومضة اكتنفت آمال العرب والامهم وتجاربهم ومعاركهم منذ اقدم العصور حتى عصر الاستعمار الغربي . انها لمغالطة مفضوحة ان يقال ان هذا التيار العربي الهائل الذي انحدر الينا من الاف الينابيع الاصيلة ما هو الا اسلوب من أساليب السيباب تحامق به حاكم ما فسار راءه الناس جميعا (وتحولوا كلهم طفرة مثل صدى ذليل يكررون وينشدون بنفس واحد الخ ....) والواقع أننا في كل ما يتعلق باهدافنا العربية الرئيسية لا نتحول الى جهاز دعاية ولا نسير وراء هذا الجهاز ، بل نحن الشعب نسير الدعاية العربية في خطوطها العريضة ونفرضها ونوجهها ونرغمها على ان تلتزم غاياتنا .

ولا محل للعجب من سير الشعب العربي في تيار واحد ، فكل الثورات الكبرى في التاريخ وكل الحركات الدينية والقومية والاشتراكية كان اهم طابع يميزها انها تغمر القاعدة الشعبية بروح واحدة ، وهذه الروح هي التي فجرت الطاقات الانسانية الخلاقة ، وصنعت التاريخ ، ولو نزعنا هذا السر في حياة الانسان لرجعنا به آلاف السنين الى عهود الظلام .

ان هذه الروح الموحدة قد يستخدمها احيانا طغاة أشرار في التاريخ وقد يصنعونها او يضللونها ، ولا نكران لذلك ، ولكن شأنها في ذلك شأن كل التراث الانساني الرفيع الذي استخدمه الاخيار والاشرار ، ومع ذلك لا يستطيع منكر مستنير ان يدعو الناس الى نبذ هذا التراث لانه أستخدم لاغراض شريرة والا لطالبنا بمحاربة العلم والغاء الحضارة والمدنية لانها كلها قد أستخدمت في وقت ما ضد الانسان .

وعقيدتنا العربية المتحررة الشاملة الموحدة تراث تاريخي امتلات به روح العروبة الحديثة وتسلحت به ضد اعدائها الكثيرين في معركة المصير ، وان الدعوة الى نبذ هذه الروح والتشكيك في قيمتها واهميتها لا تختلف عن دعوة الجيش الذي يدافع عن نفسه بالقاء سلاحه امام عدو لا يلقي السلاح .

ان قادة العروبة المتحررة لم يصنعوا هم هذه الروح ولم يتحكموا فيها ، بل هي التي صنعتهم وتحكمت فيهم .

لقد كان عبد الناصر مثلا حاكما في يوما ، وكانت بيده كل اجهزة الدعاية والسلطان ورأيناه ذات يوم قبل أن يعرفه الشعب معرفة اكيدة وهو واقف واجم أمام هتافات معادية له تهدر كالرعد ولم يذعن الشعب لصحافته ولا لاذاعته ولم يتأثر بها في قليل ولا كثير حتى زهي تزف اليه امنيته الكبرى في « صك الجلاء » ذلك لان الشعب لا يعطي ثقته بسهولة وليس من اليسير ان يلقن الثقة والعقيدة عن طريق اذاعة او صحافة لانه كان لا يزال غير مطمئن الى اجهزة الدعاية ذاتها فكان يتشكك فيما تأتي به ولو كان حقا .

ولم يؤمن الشعب بجمال عبد الناصر ولم يتخذ منه رمزا للقيادة المتحررة الا بعد ان جاء بالمعجزات الكبرى التي لا تدع مجالا للشك وفي قمتها « تأميم القناة » .

وبعد ذلك ماذا حدث ؟

لقد تفجرت الطاقات العربية الجماهيرية الغافية من قرون وراحت تعبر عن نفسها بالسير وراء هذه القيادة التي افلحت في تقديم الدليل القاطع بالانجازات الضخمة لا بالدعاية والتهريج .

(*) ملاحظة من التحرير : نعتقد ان الناقد هنا قد حمل كاتب المقال اكثر مما يحتمل فانه لم يخطر لنا ببال انه يقصد في مقاله الذين يظنهم الناقد ، وانما اعتقدنا انه يتكلم بصورة عامة من غير ان يغمز احدا .. ومع ذلك فنحن ننشر هذا النقد حرصا على حرية الفكر ، ولا شك في ان لدى الكاتب ما يرد به على الناقد «الاداب»

انه ليست القيادة العربية المتحررة هي التي تملك اجهزة دعاية وحدها ، ان جميع اعدائها العرب وغير العرب يملكون نفس الاجهزة وهي في مجموعها اكبر من تلك واكثر ومع ذلك فان الجماهير العربية لم تكن تعرف الا طريق التحرر ولا تسير الا وراء قافلتها التي آمنت بها .

وليست القوة ولا السلطان ولا القهر هي التي تقود الروح العربية المتحررة او تصنعها فانا نجد الغالبية العظمى للجماهير العربية من الخليج الى المحيط تسيطر عليها هذه الروح رغم ان هناك اقطارا محكومة بالحديد والنار موجهة كل قواها الرسمية ضد تيار القومية العربية وهي في بعض الاقطار تضطهد وتجلد وتشنق لكي تتخلى عن ايمانها فلا تفعل .

حقا ان العرب كشأن سائر الامم التي الهبتها عقيدة جديدة ودفعتها الى المعترك رسالة كبرى اصبحوا لاول مرة منذ البعث الاسلامي « ينشدون بنفس واحد واسلوب كاسلوب الصلاة رايا معينا وحكما معينا ومذهبا معينا ومطالبة بسير في طريق معين » ولكن لا لان حاكمهم او قائدهم الروحي قال ذلك او رآه بل لانهم هم انفسهم كانوا انبعاثا لتحقيق رسالتهم ارادوا ذلك وفرضوه على انفسهم وعلى قائدهم ودخلوا لاسباب موضوعية في معركة ضارية طويلة ليصنعوا مستقبلهم الذي ارادوه واختاروه رغم كل طغيان واغراء وتضليل ، فاذا شاء احد ممن لا يرتاحون لهذه الظاهرة العجيبة ان يصاب بالذهول او حتى بالاغماء فلا عليه ان يفعل ذلك فانه كاتب حر .

وانا لا ارى احتقارا لشعب ولا سطحية في تفكير كما احسه واراه عند الكاتب الذي يلغي قدرة الشعب العربي الكبير على الفهم والادراك ، ويكفر بطاقاته النضالية في كل اقطاره وجماهيره ، ويحاول ان يوهمنا بان كل تحركات هذا الشعب الضخم تسيرها ارادة فرد او أفراد ويجهل او يتجاهل أن هناك عوامل تطورية وتيارات كبرى هي التي تحرك التاريخ العربي كله بجماهيره وقاداته وحكوماته وجيوشه وان الاشخاص مهما كانت سلطتهم او قداستهم ليسوا الا رموزا لهذا الاتجاه او ذاك ، واذا اردنا دقة اكثر فانا لا نطلق هذا الكلام على هذا النحو من التعميم بل نقرر أن هناك تأثيرا او سلطانا متبادلا ، فالافراد اساسا تخلقهم تيارات شعبية وتسيرهم الى أهداف رئيسية وتجعل منهم امثلة حية لتلك الاهداف وتعد نفسها مع ذلك للسير وراءهم وتتخلى لهم عن بعض حرياتها في سبيل الحصول على طاقات مركزة كبيرة تسير الشعب كله وراءهم دفعة واحدة الى اهدافه الكبرى فيصبح لهم من ثم قدرة هائلة على التوجيه تحرك الملايين بمجرد صيحة في مذياع او عنوان مثير في صحيفة .

وهذا هو الفرق الحاسم الذي يميز هذا النمط من أبطال التاريخ عن الحكام العاديين الذين يحكمون بالوراثة أو بالصدفة أو بالحيلة والدهاء ثم يصبحون وهم في اوج سلطانهم لا يستطيعون الا ان يوجهوا الجيوش والمصفحات لحماية أنفسهم من غضب الشعب .

وللمزيد من الدقة ، واحتراما لفهم القارىء ، لا نزعم ان قادة التيارات الشعبية الكبرى معصومون من الخطأ ، أنهم أعجز من ان يتجنبوا الخطأ ، وأعجز من أن يبرأوا من عيوب البشر ، فلا بد من أن يرتكبوا بعض الاغلاط لا سيما اذا انغمسوا في معارك كبيرة ضد جبهات عديدة ماكرة متربصة وفي ظروف تكتنفها المصاعب والتعقيدات .

وانا لا ارى احتقارا لفهم القارىء ان يزعم له زاعم او يوهمه كاتب فيستدرجه لكي يحكم على قادة المعارك الطاحنة حكما صبيانيا ساذجا فيلزمهم وهم في اعصار المعركة ان يسيروا في سمت واحد وفي خطوات رتيبة فلا يتذرعوا بمناورة ولا خدعة ولا يخبئوا لهم كمينا وراء أكمة ولا حصن ولا يكروا ولا يفروا ، وانما يضعون اقدامهم في طريق ممرد مصقول وراء نغم جنائزي يسير على رتابته حتى الموتى .

ان هؤلاء القادة غير معصومين من الاخطاء في تفاصيل القضايا ومنعرجات المعارك وهباتها ومضطرباتها ، ولكنهم بعد ذلك ـ وهذا اهم صفاتهم البارزة ـ يعجزون عجزا تاما عن ان ينحرفوا عن الخطوط العريضة لاتجاه الشعب واهدافه الرئيسية الكبرى ، تلك الاهداف التي تنازل الشعب في سبيل ضمانتها عن بعض منطلقاته وتحركاته .

وعلينا بعد هذا ان نصحو قليلا من الاندفاع في هذا النقاش فربما كنا نومىء الى مجرد الفراغ بمناقشة كاتب المقال العتيد ، فقد يكون هذا الكاتب كما يبدو من مقاله لا يقصد شيئا ولا يريد شيئا ومن ثم لا يقنعه شيء ، فنحن في جعلنا هذا نزج بالعقل وبالحركات التاريخية الكبرى وبقضايا الانسان ومثله وبارادة الشعب العربي ومصير ومستقبله بينما هذا الكاتب ربما كان كما يبدو في فقرات عديدة من مقاله لا يرتبط باي منطق منبثق من هذه الحقائق الانسانية الضخمة .

القاهرة **نور الدين مصطفى**

بغداد والموت !!

بقلم عبد اللطيف قطيش

لقد بات من المألوف ان يرتبط الموت ببغداد ، ارتباطا يكاد يكون عضويا، والى الابد ، لولا فسحة من امل واثق ، تابى ان ترى لبغداد مصيرا غير المصير المحتوم .. في ان تكون جزءا من الوطن العربي الكبير .. حيث تعيش في أمن ، وحب ، وسلام .. بعيدا عن الحقد ، والحبال . والموت.

ففي عصرها الحديث ، عاشت بغداد ، زمنا طويلا في السجن الرهيب الذي بنته ايدي دمى قصر الرحاب ، وجلاديه ... كعبد الاله ونوري السعيد .. في هذه الفترة الكالحة من حياة شعبنا هناك .. عرفت

بغداد نوعين من السجون : النوع الاول وهو البناء المعروف .. ذو الاسوار العالية .. والجدران السميكة .. والغرف المظلمة التي لا يدخلها النور الا بمقدار .. والنوع الاخر وهو ظروف الواقع .. وقد زجوا فيه كل ما تبقى من الشعب خارج السجون التقليدية .. لقد حبسوه في واقع اليم ، وفي ظروف قاسية.. يصعب على الانسان العيش فبها ، دون ان يشعر بالمذلة والهوان .. وحتى بالقرف من الحياة . سجنوه .. وتركوه يمعن ، ويهترىء .. بل ارادوا له ذلك ... واوكلوا به الشرطة ترميه، في الشوارع والازقة ، كلما حاول ان ينفض عنه الغبار ... او يتخلص من عفن مستنقع حياته الاسن ...

وفي هذين النوعين من السجون ، كان الموت القاسم المشترك لشعبنا في بغداد .. وبذلك ابعد هذا الشعب عن معارك التحرير القوميه .. ولم يسهم في اي منها .. بلواكثر من ذلك : كانت ارضه المطار الاستعماري الذي تنبع منه المؤامرات للقضاء على القوة الدافعة في تلك المعارك ..

وحسبنا ان الوضع باق .. وان بغداد قد الفت الصمت .. وبات من العسير ان نحلم .. وكنا بذلك ، نفكر بعكس ماتجري عليه طبائع الامور. ولكن القانون الصحيح عاد ليثبت صحته : بان الثورة لا تندلع الا لتقلب واقعا فاسدا .. تخثر وتكلس .. وتعصف فيه .. وتغير معالمه البالية وتعيده الى وضعه الطبيعي السوي .. تماما كما لايغسل ثوب الا عندما يتسخ ...

وهكذا كان ذلك الواقع : العيش بين الجدران السميكة المظلمة ... والبحث عن الخبز في المستنقعات والوحول .. بعيدا عن الاشتراك في المعارك القومية كان ذلك الواقع خميـرة للثورة ..ومنطلقا لها ..

وهكذا ، ايضا ، كان الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ .. وكانت الثورة في صبيحة ذلك اليوم الاغر ..نتيجة تخمر خفي ، بطيء مستمر لارادة اصيلة ، صادقة في الانقلاب على الفساد المستحكم .. والتغيير الجذري الشامل لركائزه .. وعلى جميع المستويات .. واختلطت اصـوات جماهير الشعب بأزيز رصاص الجيش .. وتألفت بداية سمفونية الثورة الهادرة ، الصافية .. وانفتحت ابواب سجون العهد البائد .. وتدافع المساجين « سابقا » بمناكبهم عند الباب الضيق .. حيث تركوا حلقات اغلالهم الصدئة . وراحوا – بعدئذ – يلوحون بأيديهم ، وفي كـل الاتجاهات هاتفين للثورة ..

والشعب في اعياده .. وفي فرحته الكبرى .. والخارجون من السجون في بدءتخلصهممن الرطوبةالباردة، وتمتعهم بالدفءوالحرية.. وقادة الشيوعيين خارج العراق، وداخله يتآمرون على اغتيال فرحةالشعب، وحريته .. ويخططون لاستغلال الثورة .. واجهاضها .. وتفريغها من مضمونها القومي البناء .. وتطبيق « تكتيكهم » المكيافلي الرخيص ..

وبدأ التنفيذ .. بلباقة .

ونجحت خطة التآمر .. الى حين ..

نجحت خطة التآمر الرهيبة .. فخنقوا فرحة الشعب واحالوها الى غصة . وعلى الخارجين من السجون ، فاعادوهم من حيث اتوا .. وكان يدعم التنفيذ . بل كان التنفيذ ذاته ، حبالا مستعدة في كل لحظة لان تجرد في الشوارع جثث المعارضين ومحكمة – اصبحت الان مشهورة – تقدم ، بين الحين والحين ، للاعدام .. شنقا ..رميا بالرصاص ..حتى الموت كل من لا يؤمن بالمادية الديالكتيكية .. وبتعدد القوميات والامم في كل حي من احياء بغداد ..

وانحرفت الثورة ... بعيدا عن الثورة ..

وعن هذا الانحراف ، تتكلم قصتنا : « الخائن » للدكتور عبد السـلام العجيلي. و«سلمى» للاستاذ مطاع صفدي.. الاداب – العدد الاول ١٩٦

ففي القصة الاولى – الخائن – وهي عبارة عن دفاع ضابط يحمل على كتفيه ثلاثة نجوم ، امامهيئة المحكمة . ليرد عن نفسه تهمة الخيانة التي الصقها به النائب العام العسكري .. لا حبا بالحياة .. اذ ان حب الحياة لم يخلد احدا في الحياة، « بل وربما طلبا للموت » احب الي ان افارق الحياة وانا في ذروة القدرة على التمتع بها . كل النفوس الكبيرة لم تجد في العمر الطويل الا الاسى ، بل انها وجدت الذل احيانا . » .. بـل لان الخيانة « سبة تلحق روحه بعد الموت ، وتلصق باسمه عين لايبقى على وجه الارض العنصر المضلل .. ومن شهود الاثبات في قضية الضابط حبيبته سلمى التي تمثل العنصر المضلل ، المدسوس على الثورة ..والذي انقلب عليها .. وانحرف بها .. بعيدا عن اهدافها الاصيلة .. العنصر الذي شكل « جموع اهل الاعمدة ، والحبال ، والسواطير » ، « ليقتلـوا ابناء الشعب ، ولتحيا ثورة الشعب ... »

وهذا مادفع الضابط لان يحمي الثورة من الانتهازيين المخربين » فيحاول نفخ النار في شعلتها ، وتنقية نور الشعلةمنالدخان والرمادوالارجاس». وهذا ، بالذات ، ماقاده الى قفص الاتهام .. والى « حكم بسيط قاطع ، يقضي برميه بالرصاص ، وحتى الموت » .

في هذه القصة الرائعة ، يحكي لنا الدكتور العجيلي كيف « ان رياحا نكباء هبت على شعلة ثورتنا من جهات الارض الاربع ، فحرفت نـور الشعلـة .. »

ولست ارى كبير فرق بين هذا الضابط البطل ، وبين العقيد الشهيد

عبد الوهاب الشواف الذي اعطى ساعده للثورة ـ كما فعل الضابط المتهم ـ حين اصطدم « انصار السلم » ، وقتل ، والسحل بجماهير الشعب الاعزل .. في الموصل .. والذي لو قدر له ان يصل الى قاعة محكمة « المهداوي » ، لما كان دفاعه غير دفاع الضابط البطل ، ولما كانت نهايته غير نهايته ..

ورغم مابذله الدكتور المجيلي ، من جهد ، لـ تفريق مابين مفهومين للثورة : الثورة للوطن .. والثورة للشعب .. ولفلسفة الانحراف ، والغوص على جذوره الفكرية فان الغموض والالتباس ، مايزالان يشوبانهما .. وكمقدمة لابداء رأينا نورد مايراه الكاتب في الموضوع .. قال : « ان الوطن هو القيمة المعنوية للكمية المادية التي اسمها الشعب . » وقال ايضا : « اننا ثرنا على اناس كانوا يمنوننا بالرفاه وبالتقدم في مستوى حياة الشعب ، لاننا رايناهم يسعون الى ذلك على حساب عزة الوطن وكرامته . »

ان نفهم « الشعب » على انه كمية مادية وحسب ، ابقاء للمفهوم المردود الذي يعتبر المجتمع مجموعة افراد ليس اكثر .. ناسيا ماينتج عن هذه المجموعة من صلات وعلاقات ومصالح واوضاع تعلو على الكمية العددية لها .. تماما كما لو امتزج الاوكسجين والهيدروجين لتنتج عنهما الماء وهو جسم اخر يعلو على عناصره .. واما ان يكون التبرير الوارد اعلاه سببا للثورة ودافعا .. فاننا نرى فيه شيئا من التناقض .. اذ لم يحدث ان كان رفاه وتقدم في مستوى حياة الشعب على حساب عزة الوطن وكرامته .. فمصر ـ مثلا ـ كانت ـ في عهد الاحتلال والملكية ـ فاقدة عزتها وكرامتها وكان شعبها ، في نفس الوقت فاقدا رفاهه وتقدمه المعيشي .. واستعادت مصر عزتها وكرامتها .. فاستعاد شعبها في نفس الوقت ، الرفاه والتقدم في مستوى حياته .. فالتلازم بين السيادة القومية والنهضة الاقتصادية ، يكاد يكون دائما ، اذا توافرت الشروط والظروف اللازمة ..

ولهذا نرى ، ما يراه الاستاذ الكبير ميشيل عفلق في التفريق بين مفهومين للثورة الاول ، وهو الصحيح ، اعتبار الثورة للشعب ووضعها في خدمته وافادته .. والاخر .. اعتبار الشعب للثورة .. ففي الاعتبار الاول يكون الشعب الوسيلة والغاية .. يكون اداة التنفيذ وهدفه .. واما الاعتبار الاخر فيرى الشعب الوسيلة فقط .. وأداة فقط ..

وفي القصة نفسها ، وعلى لسان الضابط ، المؤمن « بالثورة للوطن » يرد مايؤيد ماذهبنا اليه ، ويدعمه .. قال الضابط ، في سياق دفاعه ، : « ... ان احدا غير سلمى لايستطيع ان يميز بين الثورة التي خنتها وتلك التي لاازال لها مخلصا . » .. يرد هذا القول ، والضابط في قفص الاتهام ، نتيجةلوضوح الخلاف في مفهومي الثورة ، واتساع الشقة الفاصلة فيما بينهما ، يوما بعد يوم ... ومع ذلك تبقى الثورة على التمييز بين المفهومين وقفا على سلمى .. لماذا ؟..

ولعل الاسلوب الرفيع البعيد عن التكلف ، هو مايعوض عن الارتباك في بعض المفاهيم .. والمقدرة القصصية التي وجدناها في « سالي » و « الحب النفسي » لاتعدمها القصة الجديدة « الخائن » ..

*

واما القصة الثانية « سلمى » ، فتعالج الانحراف على مستوى اشمل واعم .. وتسمي المسميات باسمائها (بعكس القصة الاولى التي لم يرد فيها غير اسم واحد لخطيبة الضابط ـ سلمى) .. وتحيط بجميع ابعاد الازمة تقريبا .. فتروي لنا تاريخ الثورة في بغداد حتى يومنا هذا ..

ولسنا بحاجة لذكر مضمون القصة .. اذ ان المتتبع لاحداث العراق يعرف الشيء الكثير عن مضمونها ..

وبطلة القصة « سلمى » هي ـ كما نرى ـ رمز لرأي الاستاذ مطاع صفدي في مشكلة العراق .. ذلك لان تحميل الطليعة القومية الواعية مسؤولية كل مايحدث من نكسات تقريبا .. هو مايؤمن به الاستاذ مطاع .. وهو يطابق نفس الرأي الذي ابداه لنا يوما في نكسة اخرى اذ حمل الحركة القومية خطأ عدم المبادرة عندما كان في يدها زمام المبادرة ..

وعلى لسان مجيد ـ احد ابطال القصة ، واحد شباب الطليعة ـ الذي ادرك مخاوف « سلمى »بعد فوات الاوان ، يرد الاتهام صريحا : « ..ينبغي ان نتهم انفسنا ، نحن ابطال ! صحيح . نحن صنعنا الثورة ! نحن هدمنا صرح الطغيان . ولكن نحن لم نعمل على استمرار الثورة فتحولت الى فوضى ، الى طوفان .. واخيرا الى وحول ومستنقعات . »

ونحن لانذهب بعيدا مع الاستاذ مطاع فيما ذهب اليه من تحميل « الطليعة » وحدها مسؤولية كل مايحدث من نكسات .. ذلك لانعوامل كثيرة تتشابك وتتداخل فتؤلف شبكة قوية تحمي الواقع وتعمل لارجاعه ـ في كل لحظة ، وبكل قدرتها ـ الى ماكان عليه في حال تغيره ..

*

تلك هي قصة بغداد مع الموت .. مع الحبال والسواطير ..

وتلك هي القصة الرهيبة .. قصة الشيوعيين في محاولتهم « لالغاء شخصية شعب بكامله .. واتهامه بهويته .. وشنق حريته فوق رأسه » .. وفي بداية تنفيذ المحاولة .. ترى ، بعد ان عادت بغداد الى الصمت من جديد .. ترى هل ستتكلم ؟..

ان ماقررناه في بدء عجالتنا هذه ، من ان الثورة لاتندلع الا على واقع غير طبيعي فتهدم وتبني .. ان هذا الذي ينبئنا بان الوضع لن يطول.. وان حكم الطغاة منته..لاريب .. ومهما ضلل الشيوعيون بمبادئهم .. فان التضليل سيكون الى حين ..

تستطيع ان تخدع كل الناس بعض الوقت .. وتستطيع ان تخدع بعض الناس كل الوقت .. ولكن من المستحيل ان تخدع كل الناس ، كل الوقت .. نعم ، من المستحيل ..!

عبد اللطيف قطيش
عيناثا ـ لبنان

قرأت العدد الماضي من الاداب

ــ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ــ

وتبلورت في نفوسهم مسؤوليتهم .

يصفهم وهم يجمعون التواقيع من زملائهم للاحتجاج على تعذيب جميلة ابو حيرد . يصفهم وهم يحاربون نوري السعيد ويسكنون سجونه الكثيرة .. ثم يصفهم بعد الطوفان وهم يعبدون الالهة الجديدة .ويصفهم اخيرا وقد اصبحوا فرائس تهرسهم اضراس اولئك الالهة ..

وفي كل ذلك لا يخرج الاستاذ مطاع عن الواقعية المرتاضة على النظرة التحليلية .

ولكن الاستاذ مطاع ليس واقعيا فحسب .. بل هو وجودي كل الوجودي ، وهو رمزي ومثالي بمعنى ما ، وهو فوق هذا صاحبفلسفة لا يزهد في التعميق ولا تفوته الخلجات المختبئة تحت الستار السابع..

اصالة مطاع صفدي ، تلك هي اتلامها العميقة ، وهي في الحق اصالة اصيلة .

انني من المتذوقين لشطحات مؤلف (الاكلون لحومهم) ، ولكني اشك في انه يكتب للجماهير. وسيظل قصاص النخبة الصبورة على متاعب الفلسفة .. وهو بذلك يحتفظ للادب بعرشه الارستقراطي ..

اللوحة التالية من قصة (سلمى) ناصعة تسمو فوق الروعة :

«..ان هذا الانسان الضخم ، كصخرة مكدسة منذ الازل الى جانبي، يئن من ثقب في صميمه ، كما تئن الصخرة من فجوة ينبوع ، تعجب لمائه القليل كيف استطاع ان يحطم جمودها ويثقب معدنها .. ولكن حتى هذا الينبوع قد جف ، وبقي قناة صماء مظلمة تصفر فيها الريح بدون جدوى » .

ولكن الخاطرة المتفلسفة اذا جرت على لسان المتخاطبين قد تصدف المصابين بدوار الاعماق . مثال ذلك : « لو تدري يا حسين .. ان احدا من جيلنا الموحش لا يعذبه وجوده بقدر ما يعذبه عدمه ، عدمه الازرق في صميمه ، ولهذا فلن تنضب طاقة ، العدم لا يفرغ ابدا ..» قصة (سلمى) تبقى ــ وستبقى في تراثنا حتما ــ نموذجا لنوع من الادب ، ليس هو ادب المتعة السهلة ، وليس هو ادب الشعب ، وانما هو ادب الفلاسفة من الادباء ، والادباء من الفلاسفة .. الملتزمين منهم بمسؤوليات قومية واجتماعية . فعلى الذين يبتغون من الادب خدر التفكير ان ينصرفوا عن قراءة مطاع صفدي .

والقصة الثالثة : (الموت والكلمه) للسيدة الاديبة عايدة مطرجي ادريس ، لم اقرأها .. وانما احسست احساسا ماديا انني شهدتها بالفعل ...

كنت معها الى جانب زوجها وهو يكتب على المنضدة ، وكنت معها حين اندلعت الثورة ودوى الرصاص ، وكنت معها وهي تحنو على طفلتها وتحوطها بذراعيها المشفقين . مثال اخاذ للواقعية الفذة .

ولكن القصة ، على بساطتها الرائعة ، تدور حول مشكلة انسانية منتزعة من اعمق الاعماق ، وهي حدود التضحية لدى ارباب الفكر والقلم : هل من شانهم النزول الى معترك المعركة وحمل السلاح على كواهلهم الواهنة ، وتعريض قدراتهم للموت البليد ؟

صاحبة القصة لا تتحدث حديث القلب ، كزوجة محبة وكام عطوف . وانما تترك الحكم لعقلها الواعي ، فيهديها الى ان المفكر الصق بالمسؤولية الاجتماعية من الدهماء ، وينبغي ان تكون تضحيته اغلى ثمنا ... انها في الكلمة الملزمة التي يقولها ــ ويجب ان يقولها ــ ويحرك بها الوف السواعد المقاتلة .

ان الكلمة التزام قد ينتهي بالموت على وتد او بالسجن الطويل على اهون احتمال ، ومع ذلك يبقى الفنان والكاتب والعالم ، يبقى جميع هؤلاء ممزقين بين ضرورة التضحية بحياة الالوف واثرة الاكتفاء بالكلمة .. وقد اشار الى شيء من هذا الحرج الاستاذ طارق شريف في مقاله (مواقف ازاء التضحية) .

على ان المشكلة يمكن ان تطرح على صعيد اخر : هل من حق الادباء والمفكرين عامة ، ان ينخرطوا في العمل السياسي المباشر ؟ الا يجني ذلك على الادب والفكر من حيث لا تستفيد السياسة شيئا يذكر ؟! هذا رأي الكثيرين من الناس . وتجربة اندره شينيه وشاتوبريان وهوغو ولامارتين تجربة غير مشجعة ...

الموضوع لا يزال بحاجة الى بحث .

في قصة (خبز الفداء) ، للاديبة سميرة عزام ، حب بين سعاد ورامز يلد في حرم البطولة القومية . وعاطفة الحب متوافرة ايضا في القصص التي عرضناها لها ، ولا نجد في ذلك اي افتعال .

ومدار القصة هنا البطولات الصامتة في نكبة فلسطين : رامز ، من الحرس القومي، يدرب المطوعين في النهار ويسهر على جرحى الجهاد في الليل . وسعاد متبرعة للتمريض في مشفى المجاهدين وتقوم عند الضرورة بتوزيع الزاد على المحاربين. ويتم اللقاء المحتوم ويبرعم الحب العف .

والصدفة الحلوة ليست هنا ..؟ كانت فتيات المدينة قد نسجن قمصانا صوفية لرجال المعركة ، وكان في جيب كل قميص بطاقة تحمل اسم الفتاة المتبرعة وعبارة مشجعة . وسعاد وهبي كتبت في بطاقتها: ارجو ان تكون ــ اي الهدية ــ من نصيب بطل ؟ فكانت من نصيب رامز. صدفة حلوة ، ومحتملة الوقوع جدا في مدينة عكا الصغيرة .

تلك البطاقة السحرية اهابت برامز ان يكون بطلا حقا قبل ان يعرف سعاد ؟ ثم كان بعد الحب بطلا مزدوجا . وتحل النكبة ، وتقتل سعاد ملتفة بعباءتها المثقلة بالزاد ، ويبكي رامز وراء المتاريس بكاء مرا ، ويمسح عينيه الغارقتين بكم القميص الصوفي، ذلك المقدس ، ثم يتحامل على نفسه ويفتح الصرة التي حملتها الحبيبة ، ويقدم لرفاقه خبز الفداء وهو ينشج : كلوا .. ان سعاد لا ترضى لنا ان نموت جوعا .

صناع اصيلة ، تحسن تحريك الاشباح وارهاف الارواح ، تلك اليد التي كتبت (خبز الفداء) .

ومن بغداد وبيروت وعكا يحملنا قدر النضال العربي الى الجزائر . هنالك نجد (قدور) ساجيا في ظل زيتونة شمطاء ، وهو يسلم الروح، بعد ان صرع الكثير من ثيران باريس القذرة ..

وقدور ، في قصة (وعلى السفوح غرسناه) للاستاذ احمد سويد، يعيدنا الى مشكلة المثقفين الذين يخوضون معركة القومية العربية بالسلاح حين يوقنون في ظروف معينة ان السلاح انفع من القلم .

ان قدور ، خريج الصوربون ، كان جنديا عاديا في جيش التحرير، وقد لوع الفرنسيين في موائلهم . صلبوا امه ــ ويل للخنازير ! ــ دون مرحمة ، وانتقم لروحها الطهور ، ومات دامع العين لان حرب التحرير لم تنته بعد ..

بطلة القصة ، في رأيي ، هي ام قدور ، بكلماتها القليلة القليلة التي قذفت بها في وجه جنود المظلات العتاة . واللبوة لا تلد الا اسدا.

والقصة كلها مشهد خاطف عميق التأثير من اروع كفاح نهدت له الامة العربية في تاريخها كله .

ولعل ما يسمونه (التشويه المهني) هو الدافع لي ابداء الملاحظة التالية : اعرف كجغرافي ان (كولون بشار او كولومب بيشار) تبعد نحوا من ١٠٠٠ كم عن خط موريس المكهرب في غربي تونس . والحديث في مستهل القصة كان يدور حول خط موريس . ولقد يتوهم القارىء ان قدور وجماعته متمركزون على السفوح هنالك .. ثم تحدث المعركة فجاة في (كولون بشار) على حدود مملكة المغرب ..

ثوار الشعر

هنا ايضا استمد عناصر الحكم من مقال تحليلي في عدد (الاداب) للاديبة ملك عبد العزيز : الشعر الثوري في الادب المعاصر .

هنالك الشعر الثوري المباشر الذي يهجم على الموضوع مواجهة ، مرتكزا الى الالفاظ والتعابير والصور ، الملهبة للمشاعر ، وهنالك الشعر الثوري القصصي ، المعتمد على حادثة او حوادث يرويها على نحو مؤثر، ليصل ايضا الى استثارة النقمة والحماسة في النفوس . واحسب ان الاسلوب الثاني اطول نفسا وابعد مدى واسس قيادا بالنسبة الى الشاعر بالذات .. وقصائد هذا العدد من (الاداب) يغلب عليها النوع الثاني .

ويبدو ان رواد الشعر الحر قد ثبتوا اقدامهم في (الاداب) .. حتى اصبحت منتجعهم الخاص . ولولا الشاعر الضخم سليمان العيسى لخلنا ان « الاداب » تتبرم بالقدامى وتلتزم جانب المحدثين ..

ومهما يكن من امر ، فان سليمان العيسى حجة على من يرون في عمود الشعر المألوف حجرا على الفكرة الدافقة ، وحبسا للينبوع المتفجر. انه يعلو بالشعر القديم الى سموات فوق السموات ، ويطوف دون لهث في كل الافاق ..

وفي قصيدة (صيحة الرواد) يرسم سليمان العيسى نفسه راهبا للقضية العربية الكبرى :

ماذا تريد سماء الوحي من وتر ... وفوق صدري تاريخ الاسى جثما
ماذا ؟ أسوسنة في الحقل ضاحكة ... أصوغ أنداءها للمجتلي كلما ؟
أباقة من شعاع الشمس غاربة ... اذيب فيها فراغ الروح والسأما؟
أهمسة من شفاه الحب عابثة ... أقصها فاغذي الجيل منهزما ؟
كفرت بالحقل يؤوي غير زارعه ... ويحمل الجرح ،لاشكوى ، ولا برما
كفرت بالحب ان ينشر غلالته ... على حبيبين حام الذل فوقهما
كفرت بالشمس ان تشرق على بلدي ... الا لتلثم ارضا مرة وسما ..

هل اعطوه فوق حقه من سموه شاعر القومية العربية ؟

وارجع مرة اخرى الى « القديسة » .. لاهمس في اذن الاستاذ نزار القباني : متى كنت تصطاد الذباب ؟ هل نصدقك ياأكذب الكاذبين ؟!..

وبعد ، لايسعني الا التقاط « العينات » من محصول « الاداب » الشعري .. فهو وافر نمير : قصيدة الاستاذ عدنان الراوي « شهيد » نغم علوي يصلح لان يكون نشيد الانشاد في ثورة العراق العتيدة . وقصيدة « اغنية عربية » للاستاذ شفيق لكمالي نلفت اليها نظر صديقنا الدكتور عبد القادر القط ليضمها الى نماذجه عن تفاعيل الشعر الجديد . والاستاذ عبد الباسط الصوفي صائغ ماهر ، لايعالج الا معادن الماس والذهب والفضة ، وهي معادن ثمينة حقا الا انها في غير متناول ابناء الشعب .. وقصيدته « الحقد والفولاذ » تقطع الفولاذ .. اما قصيدة « الجرح الخالد » للاستاذ عبد القادر النعماني فالواضح ان تراكيبها تنوء بمعانيها .. بينما الاستاذ حسن النجمي قد استطاع ان يوازن بين الحامل والمحمول في « قصيدة الى الفجر » .

وفي « بعث جديد » للاستاذ محمد عمران تصوير مفتول العضلات للوثبة السمراء ... اما الاستاذ خليل الخوري فصلاته ليلة الميلاد « الى جميلة القضية » سيتقبلها الله في واسع عرشه بابتسامة رضى حزينة كما تقبلها القارىء في خشوع ..

واجد « اغنية من بور سعيد » للاستاذ حسن فتح الباب دون ملحمة بور سعيد الفخمة .. ولا بد ان اخص قصيدة « الكلمة والثورة » للاستاذ فضل الامين بمصافحة يد حارة ، وان أهنىء الاستاذ كامل ايوب على الحركة المتوثبة والعصب النابض في قصيدة « الجندي الاخير » . وقصيدة « الزنجي العجوز » للاستاذ محيي الدين فارس بيضاء ناصعة، هل هزت نفسي لالتزامها الوزن الذي ارتاح اليه؟ ابدا ، وانما لانسانيتها المفجعة . و « الموت الجديد » للاستاذ حساني عبد الملك صورة ساخنة معبرة للتمدين الفرنسي ... التمدين بالدم . وفي « احلام الشهداء » للاستاذ عبد المنعم عواد يوسف تصوير تاريخي صادق لاحقادنا واحلامنا .

كلمة الى الاستاذ محيي الدين صبحي

قلت لك اكثر من مرة في حرم جامعة دمشق انك ستكون — بل اصبحت — اديبا موفقا ، ولكنك لن تكون ابدا مدرسا ناجحا ....؟

وقد اقلقتني صرختك « وداعا ايها الادب » لانك قلبت المفاهيم ...

اصبر ياأخي . ان مهمة التدريس تجربة حياتية مفيدة كتجربة الرعي للانبياء ...؟ وما ضر مطاع صفدي ، الدائب في الخلق الرائع ، ان يكون مدرسا ...

والادب ، بعد ، هو في النوع قبل كل شيء . ولئن لم تنح لك متاعبك المهنية الا القليل القليل من الوقت لتصرفه في الادب المحض ، فاصرفه وئيدا في اثر او اثرين يكتب لهما الخلود . خذ الاسوة من « سويفت » في اسفار غوليفر ، و « دانييل دوفو » في روبنسون كروزويه، و«ملتون» في الفردوس المفقود و « بوكاشيو » في الايام العشرة ، و « أريوست » في رولان الغاضب و « لوتاسو » في تحرير القدس ، و لافونتين وفلوبير ومونتسكيو ، ومئات ومئات غيرهم من العمالقة المقلين ...

دمشق — عزة النص

طبعت على مطابع :
دار الغد للطباعة والنشر
تلفون ٢٢٩٢١

تتمة العطش والتعطش

ساسك رمل هيال من يا شريعه؟(٧)
عالرايح وعالجاي سرك تبيعه

اما السمك الذي يكثر في الانهار العراقية فان المحب العراقي يمنحه صفة المشاركة العاطفية ، ويجعله يبكي معه في ليالي الشوق التي يأرق فيها ولا يستطيع النوم :

وشلون انام الليل وانت على بالي
حتى السمك بالماي يبكي على حالي

وما اكثر الاغاني التي يشبه فيها العاشق العراقي نفسه بنبتة صغيرة غريبة زرعت على شاطيء نهر ، بين الخوف والماء ، لتبقى منفردة مستوحشة ، ان هذا المعنى يتكرر في ابيات غير قليلة واجمل امثلته الشطر المشهور :

بين الجرف والماي حنطه زرعوني

وما اكثر ما يصور العاشق العراقي نفسه حيران مضيعا على الضفاف يتوسل الى ملاحي السفن الشراعية ان يعبروا به النهر الى الشاطيء المقابل حيث تسكن الحبيبة ، فتضيع صيحاته ولا يستجيب له الملاحون :

لاهل السفن باريت ما عبروني

وهكذا نجد الماء في هذه الاغاني مرتبطا بالضياع والتحرق والخيبة وكأن لعنة ذلك المحب قد حقت فلم يعد النهر يروي ظامئا . واما عندما نبتعد عن الماء قليلا وتأتي القفار الماحلة والبراري الظمأى فتبدأ الاغاني بالعطش الفعلي ولا تكتفي بالتعطش . هناك يصبح الماء حرقة كاويه على الشفاه وتشير ابيات الاغاني الى حب بلا امل كأن العاشق فيه يحاول ان يحرث ارضا من الصخور فكل جهوده ضائعة والامل مستحيل :

طرحي بصخر ذبوه مسحاتي كلت
بس دعوتي وياك كل دعوه فلت

والبيتان التاليان تتحدث بهما فتاة عاشقة عن الذبول الذي اصاب قلبها بعد ان حال العذول بينها وبين من تحب :

اصبحت روحي اليوم ذابل وردها
هدولي عبرة ماي والواشي سدها

هنا ما كاد الماء يتدفق ، ما كاد يلمس الورود الذابلة حتى جاء الواشي واغلق الطاقة الصغيرة المفتوحة . ودموع هذه الفتاة اغزر بكثير من الماء الذي تنعم به بقعة الارض التي يزرعها ابوها . ذلك ان الفلاح الذي يرى « لوحا » صغيرا من ارضه قد ارتوى بدفقة ماء مفاجئة جاد بها الحظ يقف مبهورا من النشوة والسعادة وهو لا يصدق ان ماءه قد سقى كل تلك « الارض » . وهنا تسخر منه الفتاة العاشقة ، فان دموعها نفسها اكثر من هذا الماء . وفي خيالها يمكن ان تسيل هذه الدموع وتصعد حتى تصل الى مستوى الارض في « النجف » مشهد الامام علي وهي معروفة بانها تقع على تل عال . والصياغة في البيتين من اجمل ما يمكن في ادب الاغاني :

متعجب بدنياك مايك سقى لوح
دمعي من اهده اليوم للمشهد يروح

ان الماء يذكر فتيات الريف بدموعهن دائما ومن اجمل نماذج هذا المعنى هذا الشطر المشهور :

يا الشايلات شراع بدموعي فوتن
كل الوجاعه تطيب بس آنه اموتن

والعطش ، العطش الحقيقي الذي تشعر به فتاة تعيش في ريف قاحل ، هذا العطش يرتوي من مرة واحدة ترى فيها الحبيب . ولذلك نراها تقصد السوق ، ولو دون ان يكون لها عمل فيه ، وانما المقصد ان تمر بحبيبها وتراه ، ورؤيته تروي ظمأها حتى لو كانت لم تذق طعم الماء منذ سبع سنين :

مالي شغل بالسوق مريت اشوفك
عطشانه سبع سنين أروى من اشوفك

هذا هو الجو العام للاغاني العطشى التي تنبتها تربة العراق : محبون يزرعون الصخور وتضيع جهودهم سدى ، وازهار تذوي وتصفر لان الواشي يسد عنها مجرى الماء ، وفتيات بعطش سبع سنين ، واشجار ظامئة في قفار يابسة وقيظ وحر لافح تذبل خدود الحبيب العزيز تحت شمسه .

٭

ان هذا التكرار لفكرة العطش في الاغاني العراقية يشير الى ظواهر اعمق في حياة العراقي ، ظواهر قد نستطيع ان نعلل بها المشكلة الاجتماعية التي بدأ الجدل يثور حولها في السنوات الاخيرة : لماذا يبقى الغناء العراقي حزينا ملتاعا يمتزج بالاهات ويعصره العطش الروحي ؟ وقد لا تكون الاجابة عن هذا السؤال هينة . ولكننا لن نلتمس التعليلات في خارج حدود الاغاني العراقية . اننا نريد ان نأخذ الجواب من فم المحب العراقي المنفرد وهو يغني في اعماق الريف .

ولن نحتاج الى كثير من الجهد في التماس الجواب .. فلو التفتنا في قليل من التأمل الى اغانينا الشعبية لوجدنا في معانيها معنى عاما يتكرر على صور كثيرة ويفاجئنا مختبئا في الابيات والمقاطع هنا وهناك . ذلك هو معنى الاحساس بما لا يتحقق ، باستحالة الوصول الى الغاية ، وبعدم القدرة على تحقيق ما يبدو قريب المنال . وابسط تجسيد لهذا المعنى بيت شائع لعل اكثر العراقيين يحفظونه وهو يجري هكذا :

نمنا وشبعنا نوم بفيك يا نعناع

وهو بيت يشبه سائر اغاني الريف في انه يعبر بكلمات بسيطة قليلة عن معنى خصب مثقل بالاشارات . ولن يتاح لنا ان نفهم وجه المعنى في البيت الا اذا تذكرنا ان « النعناع » عشبة خضراء صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن اصبعين . وهذا المحب يحدثنا انه التمس ظلا يتقي به حر الظهيرة اللافح فلم يجد الا النعناع .. ثم يقول لنا انه نام

(٧) معنى الشطر الاول ان « اساسك » - اي طبعك - يشبه الرمال التي لا تثبت ويسهل انهيارها وسرعان ما تجرفها امواج النهر . اما « الشريعة » بكسر الشين فهي الاسم المحلي لمرسى الزوارق .

في ظل هذا النعناع .. وشبع نوما . اية سخرية يمكن ان تكون اشد مرارة من هذه ؟ انه في الحق بيت يكاد يقطر بالدمع ، فياله نوما ، ويا لها ظلالا وريفة . ان هذا المحب الذي يتحسر ، لا يعبر عن حسرته بالتأوه والشكوى وانما بالسخرية الموجعة والاستهزاء . وهو يلمس قلوبنا احر لمس بهذه الاشارة الكئيبة الساخرة .

ويطل علينا الاحساس بما لا يتحقق في بيت اخر اقل شيوعا من البيت السابق وهذا نصه :

نتقابل انـي ويـاك بابره نحفر بـير

ان هذين المحبين قد يئسا من امكان اللقاء والاجتماع الى درجة تجعلهما يحسان بانهما ، في استماتتهما في تحقيق ذلك ، اشبه بمن يحاول ان يحفر بئرا بابرة لعله يصل الى الماء في باطن الارض . وذلك هو عين الاحساس بالمستحيل . فكيف يمكن ان تحفر بئر بابرة مهما كان الحفار صبورا مخلصا ؟ وهكذا ينتهي المحبان الى ان يسخرا من موقفهما المضني ويقنعا بالتشبيه . انهما يحتاجان ، لكي يرتويا من العطش ، الى ان يحفرا بئرا ، وليس معهما ما يحفران به الا ابرة . فما ابعد الارتواء.

ان هذه السخرية تتكرر كثيرا في الاغاني العراقية وكان المحب ، وهو يجسد نفسه محروما ، يسلي نفسه بالصور والتشبيهات والوان الاستهزاء . انه على الاقل يسعد ان يكون اول من يسخر من الواقع المرير الذي لا يستطيع تغييره وان حاول . ولعل السخرية ان تكون وجها من وجوه التنفيس العاطفي التي يبررها علم النفس وذلك لما تتضمنه من ادراك سابق للالم والحرمان . فان نتألم ونتقبل المنا ونضحك منه ، ذلك خير لنا من ان نتألم ونثور على المنا فنضيف اليه . ان التقبل نصف الحل وفيه عزاء على كل حال . لا بل انه يكاد يكون مرحلة من الانتصار .

كل هذا يعطينا مفتاحا هاما للروح التي تسيطر على الاغنية العراقية . آبار مغرية تلوح بالماء البارد العذب لو حفرت ، ولكننا لا نمتلك مساحي ولا فؤوسا نحفر بها لا شيء الا ابرة ضعيفة لا نفع فيها . وقوم يحرقهم قيظ الظهيرة فلا يجدون حاميا منها اكثر من ظلال النعناع . ان الابار لا تحفر قط ، على حرارة رغبة العراقي العطشان في حفرها ، والنوم لا ينال ما دامت الظلال معدومة . ويبقى النعناع رمزا ساخرا الفرق بين الاحلام التي يتمناها العراقي والواقع التافه الذي يحققه ، كما تظل الابر رمزا مؤلما للحرمان من الفؤوس الحادة والمساحي التي تقلب التراب وتوصل الى المياه الباردة الصافية .

واما النتائج النفسية والعاطفية التي يحدثها هذا الشلل الروحي ، وذلك العطش الدائم الذي يحسه العراقي ، فان الاغنية العراقية لا تضيق عن تشخيصها تشخيصا غير واع . ونحن ولا شك واجدون مادة غزيرة للبحث لو تأملنا مختلف الاغاني من ناحيتها الاجتماعية والفكرية . ولعلنا ان نفرغ لذلك في حلقة تالية من هذا البحث !

بيروت **نازك الملائكة**

لبنان

ازمة الادب في لبنان

منذ ايام ، تنادت فئة من الذين يعنون بالادب في لبنان الى عقد اجتماع يبحثون فيه قضية الادب اللبناني . ولا شك في ان الدافع الذي كان يستكن في الصدور لعقد هذا الاجتماع ، وعقد اجتماعات كثيرة تالية ، هو الشعور بان الادب في لبنان يعاني اكثر من عام ازمة ما لابد من تحليلها وتشريحها لدرس مصادرها واسبابها في سبيل معالجتها ، والقضاء عليها ان كان الى القضاء عليها من سبيل .

فما هي هذه الازمة قبل كل شيء ، وما هي مظاهرها ؟

يرى البعض ان النتاج الادبي قد انعدم او كاد ، وان النشر في لبنان يقتصر الان على كتب الادباء الواردة من البلاد العربية المجاورة ، بحيث ان لبنان اصبح ناشرا لما ينتج الادب ، لا منتجا لما ينشر منه .

وهذا الرأي صحيح اذا كان المقصود بالانتاج اثار الادباء اللبنانيين الكبار الذي اصبحوا يشكلون اليوم جيل الشيوخ من الادباء ، والذين كانت لهم معين . اما الان فقد انقطع معظم هؤلاء الادباء عن الانتاج وعن الادب بصورة عامة . اذ اختطفتهم ميادين اخرى ، كان اكثرها استئثارا بهم ميدان السياسة والدبلوماسية ، او اقعدهم العجز والشيخوخة ،ولولا ان اديبنا الكبير ميخائيل نعيمة مايزال يغذي ادبنا بروائع من اثاره كان اخرها كتاب سيرته « اربعون » لطوينا صفحة الادباء الشيوخ في لبنان .

على ان ذلك الرأي قابل للمناقشة حين نواجه انتاج الجيل من الادباء الشباب في لبنان ، فان هؤلاء ينتجون ويبذلون الجهد الذي يطيقون ، ويعطون مايملكون . وقضية تقييم هذه الاثار قضية اخرى ،فان انتاج الشيوخ انفسهم لا يمثل مستوى واحدا من الجودة ، ويظل امر قيمته موضع خلاف ونقاش . غير ان مالا نستطيع انكاره ان هذا الانتاج الحديث لم يستطع بعد ان يفرض نفسه في حركة التاريخ الادبي ولم يدفع ادبنا اللبناني بطابع جديد ينم عنه ويتسم به ، ومرد ذلك في رأينا ، ان هذه الاثار الجديدة ماتزال براعم ، وان الوقت الذي انقضى على ولادتها لايتجاوز السنوات العشر ، فهي ماتزال في بدء الطريق ، ولا بد من مرور وقت كاف ليتاح لها ان تأخذ مكانها في السد الادبي .

ولكن ماهو اهم من ذلك واخطر ، هو ان هذا الجيل من الادباء الشباب مدعو الى خلق ادب جديد يكاد لايمت الى الاثار السابقة بصلة، ويوشك ان يحمل من الخصائص والميزات مابحقق به مرحلة فريدةجديدة كل الجدة ، في تاريخ الادب اللبناني .

ان ادب هذا الجيل الحديث يعايش اليوم مرحلة حاسمة من تاريخ لبنان خاصة ، وتاريخ البلاد العربية عامة . وهذه الفترة هي فترةانتقال بين وضع يتميز بالخمول والجهود ، ووضع يتميز بالتحفز واليقظة والانتقال . ولا بد للادب من ان يتاثر بهذا الوضع ، كما ان لابد له في المستقبل من ان يؤثر فيه ، وليس من اليسير ان يعكس ادبنا مظاهر هذه الفترة الانتقالية التي تضطرب بالاحداث وتجيش بالهموم والمشاغل ، وتسعى الى تمييز نفسها وعلان هويتها . من اجل هذا كان انتاجنا الحديث قلقا مضطربا ، وفي هذا تكمن ميزته بالذات لانه لايفعل الا ان يعكس بصدق واخلاص وضعنا الحياتي كله .

وهكذا نرى اننا لسنا بحاجة الى الذعر والخوف مما نحسب ان حالة الادب في لبنان قد آلت اليه ، ولسنا بحاجة الى اليأس والى اطلاق صيحات الخطر ، فكل مافي الامر اننا في فترة انتقال ، وان الجيل الجديد يتحفز للانطلاق ، وانه اذا كان الان في حالة انتظار وترقب ، فهو يتمخض بالكثير ويتربص بالفرصة المناسبة ليقذف باثاره الجديدة ، بيد ان ذلك لايقعده ولن يقعده عن السعي والبذل والاهتمام فالواقع ان الحركة الادبية ، بمظهرها النشري حية شديدة الحيوية في لبنان . اندور النشر ناشطة اشد النشاط وهي تتلقف المخطوطات من كل قطر عربي ، بالاضافة الى لبنان طبعا ، لتقذف بها كتبا انيقة المظهر ، رائجة السوق في كل مكان ، وان المجلات الشهرية ماتفتأ تحمل آثار ادباء الطليعة وتنتشر في كل ناحية ، محافظة على هذه الشعلة التي تضطرم في تبادل الاقطار بين الادباء والقراء . والندوات والمحاضرات لاتكاد تنقطع في قاعاتنا ونوادبنا ، وفيها دليل على ان الفكر مايزال بخير وان الحركة المادية لن تستطيع ان تقتل الهموم الروحية والمعنوية فى افطار المواطنين عندنا .

غير انه لابد لنا من ان نشير الى ان لبنان يكاد يكون من البلدان القلائل التي لايعنى المسؤولون فيه اية عناية بالادب وبالانتاج الادبي من غير ان يمنعهم ذلك من الاشادة بمآثره والتحدث عن اشعاعه !صحيح ان مبلغا من المال كان برسم التشجيع الادبي يوم كانت جمعية اهل القلم قائمة . ولكن اذا اسيء استعمال هذا المال في تلك الفترة وذهب في غير مارصد له ، فليس ذلك بكاف لتبرير الغاء ذلك المبلغ ، او التخلي عن مبدأ التشجيع . ان بوسع وزارة التربية الوطنية او وزارة الانباء ان تعلن عن جوائز ادبية تمنح لافضل المؤلفات اللبنانية في ميادين الشعر والقصة والبحث وتشرف هي بنفسها على تنظيم المسابقات والسهر على ان تبتعد عن جو المساومات والترضيات وسوء الاستعمال . فالواقع ان هذه الجوائز ضرورية لتشجيع الادباء على الانتاج ولتنشيطهم على استغلال مواهبهم في ما خلقوا له . والحق ان كثيرين ممن بدأوا حياتهم بالانتاج الادبي لم يلبثوا ان انصرفوا عنه اذ تيقنوا انه سيكون عاجزا عن تأمين معيشتهم الضرورية فالتفتوا الى مورد اخر وخنقوا في نفوسهم موهبتهم الادبية فلو ان هناك جوائز للدولة تغريهم بالانتاج لكرسوا له وقتهم ، وتأملوا دائما في احراز احدى هذه الجوائز مما سيكون سببا في شق آفاق واسعة من الشهرة امامهم وفي انصرافهم النهائي الى هذا الميدان الذي سيفتني بهم ويؤمن للادب النجاح المرجو .

ان انعدام مثل هذا التشجيع يشكل الجانب الاخطر من ازمة الادب عندنا فان انتعاش الجو الادبي يفتقر الى المنافسة التي يغذيها بين الادباء املهم في كسب جائزة تضمن لهم شهرة كبيرة تكون السبيل الاولى الى رواج ادبهم وانتشار كتبهم .

فهل تعود الحكومة اللبنانية الى الاهتمام بالادب الذي مافتيء يشكل عنوانا من عناوين المفاخر اللبنانية ، فلا ينقضي العام القادم الا وتتدفق

الاثار الادبية الجديدة القيمة وتخف حدة الازمة في الادب اللبناني ؟
((الاداب))

الجمهورية العربية المتحدة

لمراسل ((الاداب)) محيي الدين محمد

رواية نجيب محفوظ الاخيرة

لعل رواية من الروايات العربية الحديثة لم تثر الضجة التي أثارتها ((اولاد حارتنا)) لنجيب محفوظ . والغريب ان هذه الضجة أثيرت بالرغم من ان العمل الفني لم يبرز وجهه مرة واحدة في كتاب جامع ، وانما قرىء متفرقا في جريدة يومية ، مع مايؤديه ذلك من نسيان للملامح ، ومن فواصل زمنية ، ومن تشتت ، ومن فقدان للخيط الرئيسي الذي يلملم الشخصيات ويعطيها الطابع الانسيابي الحياتي . وقد تدخلت اصابع الربح التجارية لادارة الصحيفة ، في ضغط الجزء المنشور يوميا الى اصغر حد ، غير مراعية اية فاصلة بين نهاية اليوم وبداية اليوم التالي ، وذلك بالطبع يعني زيادة عدد الايام المخصصة لنشر هذه الرواية . واذا قارنا هذه العملية الاغتصابية بما يجري في صحف الغرب ، نلاحظ ان الصحيفة هناك تجري فعلا وراء الربح، ولكنها تضع في اعتبارها ايضا رغبة القارىء في الخروج بقيمة يومية معينة ، وذلك يعني ان تزاد المساحة المخصصة للرواية المنشورة ، ومن جهة اخرى يصح ان يكون الجزء اليومي عملا قائما بذاته متصلا من حيث الانسياب الروائي ، ومنفصلا من حيث البناء الفصلي . وهكذا نجد ان احترام القارىء والرغبة بالربح ، يعطيان الصحافة الغربية هذا الوجه الجدي المقدر المسئول ..

وسر الضجة التي أثيرت يعود اساسا الى رموز هذا العمل الروائي فقد قام بعض المسؤولين في الازهر ، وبعض النقاد في الصحف اليومية والندوات ، بربط شخصيات الرواية بالرجال العظام في التاريخ كالانبياء موسى وعيسى ومحمد ، بل واستطاع البعض ان يربطوا بين الشخصية الرئيسية وبين الله نفسه ، بقدر ضئيل من الذكاء ، لان الرموز التي استعملها نجيب محفوظ لم تكن مضببة بما يكفي لاغلاق العمل الفني ، وهكذا وقعت الشخصيات من سماء الفن الى وحل التاريخ ..

هجوم الازهر يستند الى مايسميه تطاول الروائي على مقدسات الامة العربية ، مسلمين ومسيحيين ، ويرفض ان تكون شخصية الرسول مرسومة بهذه الالوان ((الفضحلة)) التي لادلالة لها سوى الرغبة في السخرية من الاديان ...

اما هجوم النقاد فيستند الى نوعية اكثر نضجا ووعيا ، فالبعض اقام في ذهنه مقابلة بين هذا العمل الروائي وبين امثاله في الغرب ، ودافعهم الى اقامة المقابلة هو رغبة شخصية لنجيب محفوظ بان يكون كاتبا على غرار توماس مان ، كروائي انساني ، على ان يكف نهائيا عن مجرد التصوير الحرفي لحياة الطبقة الوسطى في المدينة . فهم يقابلون بين هذا العمل الذي يزعم البعض انه حكاية البشرية ، وبين اعمال توماس مان او دوستويفسكي في الغرب ، فيجدون البون شاسعا جدا ، لان رموز نجيب محفوظ ساذجة ، ويستطيع اي تلميذ في الثانوي ان يكشفها ، على حين تظل رموز الجبل السحري ، او الموت في البندقية اعلى وارفع من المحاولات النقدية التي تحاول تكشيفها ..

واذن ، ففي اذهان هؤلاء النقاد شيء من اثنين : اما ان يكون الزعم بان شخصيات ((اولاد حارتنا)) هي شخصيات التاريخ ، زعما باطلا ، واما ان يكون صحيحا . فاذا كان الزعم صحيحا ، سقطت الرواية وفشلت ووجب ان تقيم على انها محاولة تبسيطية سردية لحكاية تاريخ البشرية . فلا بد للرمز الروائي ان يكون ابعد بكثير من المحاولات التشريحية للنقد ، والا فماذا يعني ان تتفق كلمة النقاد على ان هذه الشخصية تساوي كذا ، وتلك تساوي كيت .. ماذا يعني ذلك ؟! ولماذا لم يكتب نجيب محفوظ كتابا تاريخيا يحكي فيه قصة الانسانية اذا كان غرضه كذلك ..؟!

ان على الرمز ان يكون ساميا بحيث يظل النقد بصفة مستمرة ، اقصر باعا ، واقل قدرا على تكشيفه دفعة واحدة والانتهاء من تقييمه .. وذلك يعني ان يكون الكاتب اكثر انفتاحا واعماقا وكشفا لطبائع البشر وقوانين الاشياء عن الرجلين : العادي والمثقف . وذلك يعني ان يصبح الروائي في مرتبة النبي من حيث هذا الوضوح الحاد للبصيرة ، وهذا البصر الحدسي المؤهل لمستقبل الانسان وحاضره .. ولنتصور شخصية هملت ، وقد كتب عليها : هذا هو الشكل العام للقلق والتردد !! افكنا نستطيع ان نقرأ هذه المسرحية العظيمة لو لم يكن فيها هذا الامتلاء النادر الشخصي بعشرات من الاحساسات المختلفة والعواطف التي لا يمكن امساكها .؟ اكان يمكننا ان نخضع لتفسير واحد لشخصية هملت ، نستريح عليه ، ونهدأ

في حضنـــه ؟.

واذن ، فلا يعني الرمز المكشوف الا قصر ذيل العمل الفني ، وسذاجة الفنان ، وسطحية اطلاعه .. واذا كان الزعم خاطئا وجب ان نرفض هذا التقارب الشديد بين احداث الرواية واحداث التاريخ ، وان نبني من جديد على التفصيلات هذه المرة ـ القيمة المعنوية للرواية ، وذلــك يتطلب ان تقرأ في كتاب ، موحدة ، ملمومة ، كاملة ...

لقد توصل البعض من النقاد الى الحكمة الغالية التالية : الصبـر اجدى بكثير من الوقوع في الخطأ ... والبعض الاخر يظن ان مجـرد رغبة نجيب محفوظ في الاقلاع عن الكتابة للطبقة البورجوازية ،والتحول الى الانسانية ، يعني فعلا ان التحول ممكن ، مادامت الارادة مستعدة .!! ان هذا التفكير نفسه ، تفكير بورجوازي اصلا ، وهو التشديد على انالفكر وحده يمكن ان يحقق التطور والاندفاع والثورة ..

فاذا كان نجيب محفوظ يظن ان القفزة من مجرد التعبير عن الطبقـة الى مطلق التعبير عن الانسان قفزة تطويرية لفنه ، وجب على البعـض من هؤلاء النقاد ان يكشفوا استحالة ذلك وان يقيموا البراهين علـى ان مجرد الارادة في جهلها لن يعني التحقيق بحال من الاحوال ..

لان الكاتب اساسا ، مسؤول عن طبقته وعن وطنه ، ومسؤول عـن فقر أمته ، وعن ترديها في الجهل والمرض . مسؤوللانه صوت شعبه الوحيد ، ولانه لايمكنه ان ينسى مذلات امته ، وان يثرثر في مشكلات لاتعني اخوته . وباعتقادي ان « اولاد حارتنا » محاولة لتكشيف واقـع الامة العربية في شكل مبسط من اشكال الرواية .

من هذه الناحية كان على نجيب محفوظ ان يكتب روايته هذه ، ومن هذه الزاوية بالذات كان على النقد ان يحاول تفهم العمل الفني ، لا مـن حيث انه تسجيل للانسانية والتاريخ ..

فالوطن العربي امة مؤمنة ، مسلمة بالله وبالرسل وبالاقطاع ، وهـذا التسليم يركن بها الى الضعف والخضوع والرضى بالحاكم وبالمذلـة والطغيان ، ومقدم العلم الذي يعني الحرية والاشتراكية ، والذي يظهر في الرواية على شكل ساحر يمكنه ان يفهم كل شيء وان يفك رموز كل مجهول ، هذا العلم ياتي في النهاية لتنبعث في الارض العربية مقدرات التحرر والثروة والسعادة ..

فنجيب محفوظ لم يقفز بعمله الفني الى المستوى الانساني . انـه مغمور مازال في وحل شرقنا العربي ، يحاول ان يداوي امراضه ، ويشفي قروحه .. والظن الساذج يرجع في نهاية الامر الى انخداع بعـض هؤلاء النقاد برموز الرواية وتسرعهم في الاستنتاج على حساب شـرف الكشف الاول .

واستعانة الروائي بشخصيات التاريخ لايمكن ان يفهم منها انهـا محاولة للسرد ، اكثر مما يفهم منها انها محاولة لتكشيف خطأ الوسيلة التي تردى فيها الشرق اكثر من مرة بعدد الانبياء والرسل والمصلحين الذين ظهروا في تاريخه ..!. ان الجواب لابد ان يكون عصريا وعلميا للغاية .. يقفز بالعربي الى منتهى التحرر واللاعبودية ..

واذن فنجيب محفوظ لايحاول البتة ان يكون نسخة من توماس مان او كافكا ، بدليل هذا الاستغراق في فحص حياتنا العربية ، وبدليل هذا الانكباب على تصوير ملامحنا العربية .. واذا شاء ناقد لم يجد عظمة دو ستويفسكي عند محفوظ ان يهلل لما يسميه فشل الرواية وتقصيرها عن ان تلحق عملا غربيا عظيما ، فان له ذلك . على ان يتحول هو شخصيا عن الالتزام بارضنا وتاريخنا وحياتنا ..

نحن لانقول ان نازك او الجيوسي او السياب او جيلي او عبد الصبور او حجازي ، احسن من اليوت وباوند وماريان مور .. نحن لايمكننا ان نقول ذلك ، ولكننا نطلب من مفكرينا هؤلاء ان يكونوا صوتنا . بكـل مايتطلبه ذلك من وعي وتصميم ورغبة وارادة ، وتعجيل بهذا الحس العظيم للصيرورة والوجود والتقدم ..

وعليه : فلا بد قبل هذا الانكباب على الاستنتاج ، والتسرع فـي الحكم ، ان تدرس الرواية جملة وتفصيلا ، ولن يتاتى ذلك ، الا اذا صبرنا حتى تخرج كاملة في كتاب خاص ..

وفاة ادهم وائلي

فن التصوير في مصر لايلقي قبولا ، لا من الجمهور ولا من خاصـة المثقفين . والسبب في ذلك هو نفسه السبب الذي يجعلنا في شرقنا العربي لانهتم بالزهور في منازلنا ، ولا بالغسق الالهي العظيم . السبب نفسه الذي يمنعنا عن التمتع بحياتنا وعطلاتنا الاسبوعية والسنوية .. هذا السبب الكريه الشائن الذي اسمه الفقر ، ونتيجته الحتمية المؤكدة: انعـدام الوعـي ..

منذ كان التصوير في مصر ، كانت الاستعانة بالغرب ، وبمدارسالغرب الفنية ، ومحاولاتها كشف الانسان ، والتعبير عن قلقه وسخطه ووحدته وافتراق الجذور فيه عن تطلعه الغصني لافاق جديدة .. وكان ذلكيعني ان مصر العربية لاتجد الرسام الذي يعطيها من ذاته الملامح نفسها التي استعارها منها . وكان الفن المستورد ياتي باخر النظريات البلاستيكية ، ويقتلها في ابهاء رسم لايتردد عليها سوى طائفة ترتدي معاطف الفرو ، وتتعطر باخر مستحدثات فيري وماكس فاكتور . وكانت فئة اخرى من الرسامين المصريين يمثلها حامد ندا ، تحاول ان تبرز اللمسات المصرية الصرفة ، خلال شكل متوتر ومملوء رمزية وطلاسم ، وكانت المحاولـة تموت ، لان بهو الرسم ما زال بعيدا عن ذهن رجل الشارع ..

اسباب هذا العقم التصويري عديدة ، ومحاولة القفز من استمالـة وجود جواب له ، الى توضيح هذا الجواب ، يفترض ان نشرك الدولة هذه المسئولية الجسيمة ..

١ ـ لماذا يصر الرسامون على عرض مصوراتهم في ابهاء فخمة يستحيل على الرجل الشعبي ارتيادها ، كالاتيليه ، والكونتننتال وقصر المانسترلي؟ لماذا لا تبني الدولة دارا تختص بعرض لوحات الرسامين ، برسم زهيد؟؟

٢ ـ لماذا لاتشتري الدولة حق طبع نسخ من اللوحات الجيدة ،وبيعها للجمهور ؟ اذا علمنا ان هذه العملية سوف تسهم لا محالة في خـلق ذوق فني للشعب ، وتساعد الرسام من جهة اخرى ماديا ؟

٣ ـ لماذا لا تساهم الدولة بانشاء معاهد فنية في المدن والريف ، تحقق للاف الهواة والمبدعين ، فائدة الدراسة والاستمتاع .؟

٤ ـ لماذا لا تقيم الدولة معارض متنقلة للاف اللوحات المكدسـة في مخازنها ومراسم المصورين ؟.

النشاط الثقافي في الوطن العربي

٥ – لماذا لا تنشىء الدولة مجلة فنية خاصة بالفنون البلاستيكية ؟.

٦ – لماذا تصر الدولة عى اعتبار فن الرسم في المعاهد الدراسية علما جانبيا لا يضر ولا ينفع ؟

٧ – لماذا يسكت الرسامون على ذلك ؟.

وقد كان هذا التجاهل ، وهذه الحفرة الكبيرة بين الدولة والرسام، وبين الرسام والتذوق ، عنصرا فعالا جدا في قتل فن الرسم ، هذا القتل البطيء المنسل الذي يرهقنا ويكبد اعصابنا ويبتر فينا الامل .

منذ اسابيع قليلة مات ادهم وانلي ، احد اخوين يعملان معا في الاسكندرية ويرسمان منذ اعوام كثيرة . وكتبت الجرائد – كالعادة – عن موته .. ثم انتهت من ذلك ، كانه الذي مات هو احد خيول السباق.

وبعد اعوام لا يعلم الا الله مداها ، قد يتذكر احد المسئولين ان فنانا عظيما قد مات وان لوحاته ترقد في مرسمه المغلق بالاسكندرية ، فتهب الصحافة ويتسارع انصاف المسئولين ، فيزيلون عن اللوحات التراب والجهل ، ويسمون شارعا باسم الفنان ، ويقيمون له تمثالا نصفيا ، ويلقون عشرين محاضرة تخليدا لاسمه .. يذهب اليها ناس مضحكون ، يلبسون الاردية القاتمة ، وربطات العنق السوداء ، ويطبعون ملامح الاسف والحزن على وجوههم .. وتنتهي العاصفة كما بدات .. وتعود اللوحات الى مخزن الوزارة بعد ان كانت في مخزن الرسام نفسه ..

لماذا لا تزيل الدولة التراب عن ذهنها ذاته ، فتبدأ عملية تقييم للفنان اثناء حياته ، لا بعد وفاته ؟.. لماذا لا يتقارب هذا الذي يحتاج جمهورا، مع بقية الناس الذين يجهلونه لظروفهم الخاصة؟. ان وفاة ادهم ، هي بقية السلسلة التي بدات بوفاة محمود خليل ، والوفاة الفنية لماهر رائف ، ومسعوده ، والجزار ، وحامد عبدالله ، وبقية المدرسة المصرية في الفن ..

ان دعوة الى انقاذ فن الرسم قديمة ، قدم الدعوة الى انقاذ انفسنا.. فلماذا لا نجرب ان يكون استشهادنا في سبيل انفسنا ، متمما لوجوب استشهادنا في سبيل فن ما زال مقيما ؟!.

باليه لينتجراد

قد تكون الاوبرا كذلك ، غير ان الباليه وحده يظل داخل النسيج الشعبي كامنا فيه ، وساميا عنه معا .. لان هذا الفن الراقص الصوفي المرتبط الى سحر الموسيقى بذلك الرباط التوافقي الاسر ، لا يفترض ان يكون المتذوق على علم لا بفن الباليه كتقنية ، ولا بعلم الموسيقى ..

وعلى الناظر ان يعتمد سياحة باطنية لهذا الرقص العلوي ، تكون مادتها الانغام ، وهذه الليونة للجسد الانسان الذي يتفتح ويتثنى ويفترق امامـــه ..

الفرق الايطالية الغنائية تحضر الى دار الاوبرا فتقدم الناي السحري وعايدة وامبكو فرنتز وتوسكا .. الخ.. ، باسعار خيالية هائلة لانها بالاتفاق مع المسئولين في دار الاوبرا ، يعرفون الطبقة التي تتردد على هذه الاوبرات ، وهي الطبقة الارستقراطية بالتضامن مع الجالية الايطالية، ونسبة نادرة من المتذوقين المصريين لا يشكلون سوقا تجارية على الاطلاق، وارتفاع اسعار الدخول شيء طبيعي جدا وموافق عليه ، لان هذا الفن بالذات لا يهم الشعب ولا يهم ذوقه ..

وفي هذا الموسم ، وفدت على دار الاوبرا في القاهرة ، فرقة باليه لينينجراد لتقدم بحيرة البجع وجيزيل ، وبعض المقطوعات الاخرى،وظلت اسعار الدخول خيالية جدا ، بل لقد فاقت في نسبتها اسعار الاوبرات!!

ان وزارة الثقافة التي تبنت دعوة هامة جدا ، هي اقامة حفلة صباحية كل جمعة لفرقة القاهرة السيمفونية بسعر خمسة قروش ، ولاقت نجاحا هائلا ، لا بد لها ان تضع في ذهنها ان فن الباليه لبس كالاوبرا ، ولا بد ان يعرفه الجمهور ، ولن يتاتي له ذلك الا اذا كانت اسعار الدخول هادئة الوقع ، وليست في السماء.

لقد حظي هذا الفن البسيط غير المعقد بحماسة شعبية عظيمة في البلاد الاشتراكية جميعا ، ويكفي ان نعلم ان العامل الروسي يعرف عن هذا الفن خيرا مما كان يعرفه القيصر نفسه، بقليل من الاهتمام والتوجيه قدمتهما الدولة له ..

والشخصية الروسية التي كنا نعرفها في روايات دوستويفسكي وتولستوي وجوجول، فجة وغشيمة وحيوانية ، تترقى الان وتذهب فجاجتها وخشونتها بهذه الاصطدامات المتوالية بفن يرقى الحس ، ويرفع المستوى الشعوري ، ويعمق البصيرة ويهديها .

ان على وزارة الثقافة ان تزيل هذه اللحظة الارستقراطية ، وان تشرك الشعب تذوق هذه الاعمال الممتازة جدا، بعملية بسيطة جدا : ان الجائزة التي تدفعها الدولة الى بعض الكتاب الكبار ، ومقدارها خمسة الاف جنيه ، يجب ان تكون جائزة رمزية ، كنوط او ميدالية ذهبية ، فالادباء الكبار غير محتاجين لهذا التقدير العيني . على ان تستعين الوزارة بهذه المبالغ التي تفيد البعض النادر ، على دعوة الفرق الموسيقية ، وفرق الباليه الكلاسيكية والشعبية ، مضحية باسعار الدخول التي اوهى حد .. فتسهم من ناحية بترقية الذوق الشعبي ، ومن ناحية اخرى بتامين ربح كبير لهذه الفرق .. اما عن دار الاوبرا الحالية ، فقد فشلت كدار حديثة ، ويجب على المسئولين ازالتها او تحويلهـا متحفا ، على ان تبنى دار حديثة تتوفر فيها المطالب العصرية ، من مسرح دوار ، الى تكييف للهواء ، الى صالة واسعة مريحة ، وعناية بالاضاءة اوفـر ...

ان امام وزارة الثقافة سدودا كثيفة يجب ان تزال فورا ..

القاهرة — محيي الدين محمد

الشعر الانثوي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

عندما يستنفد وسائله الفنية الخالصة ويشعر بضرورة الشمول . ورغم ان سلمى توفق الى مثل هذه الرؤيات احيانا ، الا انها قلما تنتبه الى اكثر من القيم الفنية ، بما تعده لها تجربتها في الصياغة الشعرية . وهي ما زالت في ذلك تقع تحت تأثير قراءاتها الانية ، وخاصة من الشعر الانجليزي . وهذا ما يسبب فقدان الوحدة في اساوب المعالجة ، حتى اننا نلاحظ ان موضوعا واحدا وهو (رثاء الشهيد) قد عالجته باساليب متعددة ، تفترض وراءها احيانا تجارب متضاربة في طريقة التأثر والاعطاء الشعري،

٢ ـ الذاتية ـ الجمعية

لقد كانت صيغة الضمير في اكثر قصائد الديوان تستعمل الجمع من (نحن وانتم وهم) . وقلما استعملت الشاعرة صيغة الفرد. ولا اعتقد ان هذه الخاصة قد جاءت عرضا وصدفة ، فان بنية الاحساس الشعري في هذه القصائد تفترض نوعا من الاطلاقية . ولا يمكن تفسير هذه الصلة الدائمة بين الذات الشاعرة والمجموعة الانسانية التي تحاول ان تعبر عنها الا بالعودة الى طبيعة هذا الشعر الذي تطلقه سلمى . فان صلة صادقة تربط بين وجدان الشاعرة ووجدان امتها . وهي قد صاحبتها منذ نعومة أظفارها ، عندما كانت طفلة في بلدة عربية اصيلة (هي صفد) من فلسطين الضائعة . وهناك اكتسبت تربية قومية اقرب الى تربية الصحراء بما فيها من اصالة في الحس والتفكير والسلوك . والى ذلك فانها مدينة في كثير من مقوماتها الانسانية والعربية الى بيتها المناضل ، وعلى راسه والدها ، الذي كان واحدا من رجالات الكفاح القومي في فلسطين ضد الاستعمار الانكليزي ، وضد مؤامرات الصهاينة على انتزاع الاراضي العربية . وفي الديوان قصيدة في ذكرى وفاة ابيها تتضح منها تعابير الولاء الاشم لاستاذ لها في الحياة والنضال :

أبي .. ابي يا زارع التفاح
يا ميتا على سرير من كفاح
يا جرح قلبي ، يا ابي .. يا سيد الجراح !..

وفي مقطع اخر :

يا نبعنا العميق كيف نستقي
منك الوفاء والنضال والتصبر الحمول
ويا نشيدنا السخي يا تراثنا النقي

وتظل سلمى تتقمص روح قومها وعذاباتها منذ بدء الكارثة . وهي لا تستطيع ان تنسى هذه الانا الكلية التي ترتبط هي بصميمها ، وتمنح منها ايحاءاتها ومشروعية معانيها القومية والفردية . ولكن سلمى بالمقابل كثيرا ما تمردت على هذه الروح الكلية . انها ترى فيها ما يرى كل ثوري عربي من نواقص وعيوب الواقع الفاسد ، ولعل افجع ما تثور عليه هو نفسية الندب الدائم من خلال ندبها الخاص . فتبرز سلمى عقدة القدرية المتمثلة في هذا الصبر الكسول ، في تأرجحات الذل والاستسلام ، في الاتكالية وضياع مسؤولية الفرد البطل . ولا يمكن لسلمى ان تفصل ذاتيتها القومية عن ذاتيتها الفردية في اية لحظة من لحظات الايحاء الشعري حتى عندما تهدهد لاطفالها وتناجي زوجها ، وتنتشي لمرأى شاب شرقي عابر ، وعندما تخاطب اختها . ولكم يفقد القارىء احيانا القدرة على التمييز في شعرها بين شخصها ، وشخص امتها المتلامح دائما من معانيها وصورها .. امتها هذه الانثى الثائرة الباكية ، الحاقدة المتفجعة ، الغاضبة الشامتة بابنائها ، المعولة على ابنائها ، المتوعدة والمنذرة . وفيها ما يذكرنا بشعر الخنساء ، بالندب الطويل الذي فقد مبرره الجزئي وصار ندبا وجوديا ، كأنه الصيغة النهائية لكينونة الانسان، وفيها ما يذكرنا بالشاعر الجاهلي عامة عندما يعكس في شعره اللوحات الاساسية لحياة النفس العربية كلها ..

ان هذا الاندغام التلقائي بين الانا والنحن في شعر



سلمى ، لا يؤدي ابدا الى ذوبان شخصية الشاعرة ، من حيث هي فرد ، في كلية الجماعة . وعلى العكس فان ذاتية الفنان نوع من التركيز الانساني لعمقية الامة ، لا من حيث هي مجتمع ، ولكن باعتبارها الذات الاخيرة ، التي تستمد ، كل فردية اخرى ، مشروعيتها منها . فهي عن طريق تبنيها لالام امتها ، عن طريق تشخيصها لمعاني الكارثة في تلك النماذج الفنية ، انما تحول ما هو موجود فعلا الى بؤرات من القيم ، اي انها تقلب واقع الكارثة الى نماذج فنية خالصة .

٣ — غنائية المعنى

لم تزل النزعة الغالبة على موسيقى شعرنا ، هي نزعة تتبع الجرس اللفظي ، كان اللفظة في حروفها وتشكلها الصوتي ، هي الهدف الاخير للشاعر . وفي هذه الحال تجر الشاعر اوزانه . والاوزان تفرض عليه هيكل كلماته . وتلك هي اسوأ عادة علقت بشعرنا الكلاسي . فغاضت منه التجربة الشعرية الانسانية ، وبقيت التجربة اللغوية ، التي تطورت الى كليشات جامدة ، يتناقلها الشعراء ، ولا هم لهم الا اللعب باسلوب رصفها وتنضيدها . وبالتالي كانت الصفة المناقضة ، وهي غنائية المعنى ، ابرز ما في الشعر الغربي . ومن الشعراء العرب الحديثين القلائل الذين انتبهوا الى هذه الخاصة سلمى الخضراء . وهذا ما جعل شعر سلمى ضعيف التأثير المباشر . ولكنه عميق في استحواذه على النفس من الداخل . انه لا يطرب الحس السطحي .. ولكنه يغرق قارئه تدريجيا في اجواء من المعاني ، تصل احيانا حدود الرمز المكثف كما في قصائد (الرحيل) و (منذورون) و (العودة من النبع الحالم) .
لقد اصبحت العواطف في تجربة سلمى بمثابة نقاط تفجرية من الايحاء ، تحطم الاطارات النسبية حولها . ولكن سلمى قد تعجز احيانا عن متابعة هذه الطريقة الشاقة فتركن الى ابيات تسير مع العرض المباشر والاعطاء السهل .
وفي هذا المجال لا بد ان اسجل ملاحظة عابرة ، وهي ان القصيدة الواحدة قد تحمل من التماوج في التأثير المباشر وغير المباشر ، مما يدفع الى التساؤل حول مصدر هذا التماوج ، كان ايحاءات ، من مصادر نفسية مختلفة ، قد عملت على سكب القصيدة الواحدة . فاذا كانت هذه الملاحظة تصلح بالنسبة للقصيدة الواحدة ، فانها تصلح بالنسبة لتفاوت القصائد جملة . وربما كان مرجع ذلك هو ان سلمى ابتغت ان تقدم للقارىء نماذج من شعرها القديم وشعرها الحديث الذي يتجاوب مع تجربتها الشعرية والثقافية اكثر واعمق .

ان غنائية المعنى تفترض دائما عمقية ذات توفر متجانس ، هو دائما في مستوى ابداعي عال . ولعل تأثير القراءات المختلفة هو الذي يفقد المبدع احيانا سجيته الاصلية ، رغم ان هذه القراءات هي التي تمده بوسائل تعبيرية ، وزوايا الرؤية متجددة . الا ان اصالة الشاعر

في أعدادنا القادمة

ابحاث

* ميخائيل نعيمة والكون	محجوب بن ميلاد
* دراستان عن ديوان « اغاني الصبا »	بقلم عايدة الشريف والحساني حسن عبد الله
* الناقد	محمد عبد الله الشفقي
* احمد شوقي والشعب	محمد خير الحلواني
* الادب بين الواقع والوجدان	يوسف حوراني
* يوسف ادريس والواقعية الشعبية	جورج طرابيشي
* حصاد العمر	غالي شكري
* نيكراسوف	« « «
* صبحية مباركة	عبد العزيز ع. محمود
* محمد العيد كبير شعراء الجزائر	ابو القاسم سعد الله
* طوبة مدخولة	الطيب الشريف
* المداحون روح الكنانة	شريف الراس

قصص

بطلة جديدة	عايدة م. ادريس
ارادة « قصة مترجمة »	محيي الدين اسماعيل
اللص والحارس	سليمان فياض
الثلج والشرف ...	عثمان سعدي
حادثة نشل	صابر الحضري

قصائد

غرباء	حسن فتح الباب
اغنية الميناء	عبد الرشيد الصادق
الشمس والنمل	خليل الخوري
الافعى الغادرة	نذير الحسامي
اللقاء الاول	مختار عبد الباقي
الكلمة اقوى من الموت	ماجد حكواتي

هي التي تتحكم في كل المكتسبات الثقافية ، تفتتها وتردها الى عجينها الخاصة ، حتى تفقدها صورة تكونها الاول .
والناقد لا يملك اخيرا ازاء هذا الديوان من الشعر الانثوي الا ان يتطلع الى نتائج من التطور الابداعي ، تبلغ حدا من الحقيقة يمكن فيه ان يتفاءل بمستقبل الانثى الخالقة .
انها لن تظل طويلا تمنح قيمتها من كونها انثى ذات عالم هو موضوع صبابة وتشوق وشبق من قبل الرجل .
وهكذا فان على المرأة المبدعة ان تنتقل فعلا من دور القيمة للانثى الى دور القيمة للانسان الفنان الذي يصدر عنها .. وهذا هو شعر سلمى على انطلاقة مجنحة في هذا المضمار الشيق القوي .

دمشق — مطاع صفدي

المأساة في مقصورة ابن دريد

تتمة المنشور على الصفحة ٢٣

على الصبوة الانسانية الكامنة في اعماقه ، بل اصبحت هذا القدر الداخلي ادي ينسج مصير المرء في ايمان وحب ، وهو يعرف ان الامتحان القاسي هو انتزاع الموت في حرية وتصميم . وليس الموت هو اليقين في هـــذه التجربة ، بل اختيار الموت . وهذا الاختيار هو اعمق صور المأساة ، ولكنه صيحة تمرد جريئة في وجه القدر ، فيها عزاء لجميع الاخرين عما يعانون من عبودية الزمـــن .

وان في تجارب الغابرين لامثلة كثيرة(١) :

— ١٠ —

فامرؤ القيس عرف هذه التجربة عندما قتل ابوه ووقف امام ملكـــه السليب وكرامته المهانة . وكان قبل ذلك مستغرقا في طلب الحيـــاة تحفزه الرغبة الى اقتناص اللذات والاستمتاع بالوجود . وكان شاعـــرا مبدعا قادرا على ملء وجوده بالجمال ، ولكنه انعطف امام الكارثة ، فاصبح الثار — ومن ورائه الملك — كل قضيته . وتحمل الالم في شجاعة ، من اجل مصيره . ولم يتراجع ، وقضي دون غايته وهو مؤمن بفداحـــة المأساة . (٢) ولكنه اختار ، ولا سبيل للعودة . (٣) .

وقد كان للكندي هذا المصير . اغتصب عرشه ولاحقه العار ونخلى عنه الجميع فلم يستسلم واصبح الكفاح قضيته ولقى حتفه في منتصف الطريـــق . (٤)

وكان عبد الرحمن بن الاشعث طرازا اخر لهذا المصير . كان قائدا ظافرا اتيح له في زمن الحجاج ان يصل بالفتوحات العربية الـــى الهند ، وكان التجربة حين تلمس في نفس مصير ملك عظيم ، فخلع طاعة الحجاج وتمرد على الخليفة عبد الملك بن مروان وخلعه وانقادت لــــه البلاد ، ولكنه اسر بمكيدة فانتحر قبل ان يصل الى بغداد (٥).

وعرف الوضاح هذه التجربة ، وهو جذيمة بن الابرش ، وجد نفـــسه امام الزباء وبينهما ثار قديم وكان قد قتل اباها واقام لنفسه ملكـــا عريضا . فلجأت الزباء الى الحيلة فخطبته على نفسها . وكان الحـــد الفاصل في موقفه حين صمم على الذهاب اليها دون وجل وكان مـــن السطوة والزهو ماجعله يرفض النظر الى العاقبة . عندما ادرك — بعـــد فوات الاوان — انه كان ماضيا الى حتفه ، قبل الموت في جراة نادرة(٦)

والزباء(٧) نفسها لقيت بعده هذا المصير فانتزعها الثار من عرشـــها المنيع وعندما وقفت امام الموت اخذته بنفسها وقالت كلمتها المعروفة :

« بيـــدي لابيـــدك ياعمـــرو ..»

وعلى هذا النحو ايضا اوقف الموت المبكر عزيمة يزيد بن المهلب بن ابي صفرة ، وقد نزعت به الارادة الى الخلافة فاستمر ينازع الامويين سلطة الدولة الى ان اغتيل (١)

ومثل هذا العزم اتاح لسيف بن ذي يزن ان يحمل في عناد وباس قضية كرامته وقضية قومه ، واستطاع ان يحرر شعبه ويظفر (٢)..ولكن الموت اقتنصه ايضـــا ..

مصائر كبيرة صنعها افراد اقوياء اختارهم ابن دريد من الذين انفصلوا عن واقعهم ورفضوا حكمة الايـــام . وقد امتدت اليهم جميعا يـــد الموت لانهم مدوا يدهم اولا ، واستنزلوا من اوج العظمة . ومـــن الخيـــر ان نتعزى بهم عن مأساة الحيـــاة .

— ١١ —

اذا كان لكل لذة نهاية ، وكل ارادة متمردة تحمل مصيرها الفاجع ، والفساد يغزو كل شيء ، فلماذا حياة الانسان ؟ هل الانسان حادثـــة عابرة لا تملك من اليقين الا ما يملك الجسد الفاني او الصبوة الحالمة ؟ وماذا يجديه ان يخلد حياته بالشعر او يترك للناس الذكر الحسن(٣) ؟

تلك هي المأساة في الظاهر . ولكنها في الحقيقة صراع اعمـــق جذورا في وجود الانسان . يقول الزمن ان الانسان الى فناء . ولكـــن الانسان يرفض الزوال . ان شيئا من ضياء الابدية يتموج في كيانه ويمنحه الامل والرجاء حتى في احلك ساعات اليأس . (٤) ينظر الـــى مصيره

---

(١) هل انا بدع فن عرانين ؟

(٢) ولس غريبا من تناءت دياره ولكن من وارى التراب غريـــب
« امرؤ القيس »

(٣) ان امرؤ القيس جرى الى مدى فاعتاقه حمامه دون المدا

(٤) وخامرت نفس ابي الجبر الجوى حتى حواه الحتف ..

(٥) ... ساق نفسه الى الردى حذار اشمات العدى

(٦) واخترم الوضاح من دون اللتي املها سيف الحمام المنتضى

(٧) واستنزل الزباء قسرا ...

---

(١) فاعترضت دون الذي رام ..

(٢) وسيف استعلت به همته ..

(٣) وانما المرء حديث بعده ..

(٤) ما اعتن لي يأس يناجي همتي الا تحداه رجاء .. »

فيرى حكمة الزمن اقوى من ان ينالها التغير فالموت حقيقة (١) ومن الحماقة ان يغفل المرء عن هذه الحقيقة ويغتر بالحياة (٢) ولكنه من خلال موته ، من خلال فنائه الشخصي ، يتطلع الى الابدية ويؤمن ان له مايبرر هذا التطلع ، على الرغم من الفساد الذي يتخلل حياته .

الحقيقة ان الابدية تتراءى لنا في الحياة نفسها ، ونستطيع ان نتبين ملامحها في المقدسات التي تهيمن على نفوس الجميع بالطمأنينة واليقين. والاشياء المقدسة ليست من صنع الفرد ، بل هي امل يتوجه اليه الجميع كشاطىء راسخ لاتناله امواج الزمن وعواصف الفناء . وحين يلتفت الفرد الى هذا الشاطىء فانما يستجير من الاسى والخيبة اللذين تحملهما اليه تجربة الحياة ، خلال اعوام وجوده . فهو فان ، ولكن الانسان باق بعده، تغمره المقدسات ابدا بضياء الخلود .

وتصدر هذه المقدسات في تجربة ابن دريد من ثلاثة ينابيع يشير اليها بوضوح في صور تأخذ منه الخشوع والضراعة ، وتطوف به كأسمى ماتحمله حياة الانسان من رجاء ..

الصورة الاولى : المؤمن

النياق الصلبة منطلقات في قلب الصحراء . سراع الخطى . كأنهن اشباح القسي . غائرات العيون من الهزال . مقوسات الظهور . انوفهن راعفة من جذب اللجاب . حين يأتي الظلام يغبن في لجة الدجى السحيقة وفي النهار يطفون فيما رفعته الشمس من مشرق السراب . اخفافهن المتشققة من الحفا والمشقة تخضب بالدم الحصى الابيض . يحملن كل شاحب تقوس ظهره من طول السفر واحتمال التعب . مؤمن خاشع انهكه التقشف . ماض الى المكان المقدس (٣).

الصورة الثانية : البطل

الخيل تعدو . اكتافها هزيلة ناشزة واعرافها مشعثة في الرياح . تتسابق كالذئاب الكواسر ، رانية بعيونها المائلة الى بريق الرماح ، تحمل كل مقاتل ماض الى الكفاح ، كل محارب باسل ، قوي الفؤاد ، قاذف نفسه في غمرة القتال ، يغشى الحرب بحدي سيفه حين تكون الحرب مخيفة رهيبة ، لو مثل له الموت خصما لما صده الخوف عن الاقتحام ، ولو اراد القدر حمايته من الموت لرفض واقتحم بنفسه الفناء (٤).

الصورة الثالثة : الاجداد

الاجداد الشم ، اقدس مايقسم به الانسان ، الذين حملوا لواء المكارم واليهم ترجع المآثر ، ان فاخرهم احد قال الفخر نفسه : ليمتلىء فمك ترابا ، الذين اجروا ينابيع السخاء فغمروا العالم بالهبات ، الذين اذلوا من تجبر وقوموا من سولت له نفسه الغرور ، وجرعوا الذل من تحداهم واراد لهم الهوان (٥)

الايمان ، البطولة ، الامة .. تلك هي مقدسات الحياة الانسانية في تجربة ابن دريد ... الشواطىء الرحيبة التي تفتح للانسان آفاق الامل حين تخطئه العزيمة الصادقة امام المأساة .

دمشق — **صدقي اسماعيل**

(١) والناس للموت خلا يلسهم .. »
عجبت من مستيقن ان الردى — اذا اتاه لايداوى بالرقى

(٢) وهو من الغفلة في اهوية ..

(٣) البيت (٤٦) من المقصورة وما يليه .

(٤) البيت (٦٠) وما يليه

(٥) البيت (٦٧) وما يليه .

ومضة برق

ـ التتمة من الصفحة ٣٥ ـ

واخذت العاصفة تهدأ شيئا فشيئا ، فانقطع الرعد ، وانقشعت السحب عن سماء زرقاء فيها قمر يتهادى بين الغيوم ، وبدأ الصبح يتنفس عن نهار مشرق وضاح . واخذت هي تستعيد هدوءها وتستوعب ما حدث لها كأنها كانت في غيبوبة وصحت لتوها . فكبر عليها الامر وتملكها خوف شديد وراحت تسائل نفسها مرتاعة :

كيف استطاع هذا الماكر ان ينتزع منها هذا الاعتراف الخطير بسهولة ويسر ؟ لقد اغتنم فرصة يأسها وانهيار اعصابها فكان له ماأراد ..

الى م ينتهي امرها ياترى ؟؟..

وراحت تصغي الى صوت خطواته وهو يتنقل بين غرف البيت ، والى صوت حركة متوالية في غرفة الزينة المقابلة لغرفة النوم ، والى صرير ابواب الخزائن والادراج وهي تفتح وتغلق . ماذا يعمل يا ترى ؟ ليت لديها ولو قليلا من الشجاعة لمجابهته وسؤاله عما يفعل ، ثم سمعت صوت خطواته على الدرج ، ثم صرير باب البيت الخارجي وهو يغلق بشدة فتيقنت انه برح البيت . فخرجت من غرفتها واسرعت الى الشرفة واطلت منها فلمحته وهو يركب سيارته وينطلق بها . تساءلت الى اين ياترى ولما تشرق الشمس ؟؟. لاشك انه ذاهب الى ابيها ليخبره بكل ماحدث بينهما . فياهول ماينتظرها !!...

وعادت الى غرفتها مستسلمة الى اليأس والقنوط . رات في طريق عودتها على احدى المناضد رسالة تركها لها فتناولتها وفتحتها واخذت تقرأ وتعيد ما تقرأ بدهشة واستغراب وتكاد لا تصدق ما تقرأ. احقا ياترى ما يقول ؟ انه ماض الان الى مشروعه في القرية النائية . وسيظل ما حدث بينهما هذه الليلة سرا مكتوما حتى عن ابيها وزوجه لانه يعرف تماما ماسيلحقها من ضيم اذا عرفا حقيقة امرها ، تلك الحقيقة التي يراها هو حقا مشروعا لها ، ومن الظلم ان تحرم منه . وسيبقيها في بيته وتحت حمايته ـ ان ارادت ـ ريثما تدبر امورها كما يحلو لها ، لانه لن تربطه بها بعد اليوم رابطة تجيز له التدخل في شؤونها الخاصة ، وسيعيد اليها حريتها ساعة ترغب ، وسيكون لها خير نصير . ويختم رسالته بجملة بدت لها اول الامر كلغز اذ يقول :

انا رجل كهل تستطيع امرأة مثلك ان تسعدني ولكنها لاتستطيع ابدا ان تشقيني ، ولذا فانا احمد الله الذي سخر لي ومضة برق عابرة اضاءت لي حقيقة أمرك ، وكانت معوانا لي على كشف سرك الذي تخفينه عني وتشقين به ، واحمديه انت ايضا لانه اومضها في نفسي فانتهيت الى هذا القرار الذي ارتاح اليه ضميري ، ولن احيد عنه ابدا مهما قال الناس فيه .

بينما كانت هي تقرأ وتعيد ماتقرأ في دهشة واستغراب ، كان هو ماضيا في طريقه ، تنهب سيارته الارض نهبا وقد جلس خلف مقودها شامخ الرأس متعاليا راضي النفس ، يبدو لعينيه كل شيء جميلا ، ويشعر معتزا بان الغلبة كانت له ايضا على المرأة في هذه الليلة العاصفة بكل شيء كما لم تكن له ابدا ...

دمشق — **الفه ادلبي**

من جمعية الادباء العرب